



صور إسلامية

الجزء الأول

عبد الحميد محمد المشهدي

رسالة زعيم الجيل

أحمد حسين

عظمة رسول الله

هى السبيل لمعرفة الله ... فاعرفوه أيها المسلمون

ولنستأنف جهادنا فى عزم وثبات

ولدت من أبوين مسلمين ومن هنا فقد نشأت مسلما والحمد لله . . ولقد كانت أمي سيدة متعبدة واني لاذكرها الآن وهي تصلى وتطيل الصلاة وتكثر من التسبيح وتلاوة القرآن .. ولعل هذا هو الاثر العميق الذي تركته والدتي في نفسي اذ نشأت نشأة دينية وفي المدرسة، الابتدائية كنت رئيسا لجمعية دينية سميناها (جمعية نصر الدين الاسلامي) . وكانت مهمتها الوعظ والارشاد عن طريق الخطابة وتوزيع نشرات تحمل تفسيرا لآيات القرآن واحكام الدين وقواعده . كان هذا فيما يختص بنشر الدعوة ولكن الطابع الظاهر لهذه الجمعية هو الذى نفذناه على أنفسنا. فقدأخذنا

أنفسنا بالتعبد والاسراف في العبادة .. حتى لاذكر مرة أني صليت مائة ركعة .. كما أفتخر بأني صليت هذا العدد ولم اكد انتهى منها حتى تورمت قدماي وركبتاي وأصبحت بعدها عاجزا عن الصلاة اطلاقا لمدة من الزمن .. وكنا نصلي الفجر دواما في مسجد السيدة زينب وكنا نشعر في ذلك بلذة لا تعد لها لذة .. ذلك كان اسلامي في طفولتي .. ولم أكن في ذاك الوقت الا طالبا في المدرسة الابتدائية في السنة الثانية . ولعل هذه النشأة تدلك على أني كنت مسلما متدينا كأقصى ما يكون المسلم المتدين ، ولكن لم أكن في ذلك الا متبعا لهذا الالهام الذي يخالج نفوسنا من حين لآخر .وقد لا أكون في هذا الا مقلدا كما يقولون فقد شاهدت والدي متدينة متعبدة لجاريتها في هذه العبادة . وكان لنا مدرس للديانة يغذي هذا الشعور في نفوسنا فاندفعت في هذا السبيل من غير تفكير أو منطق ..

وأنا اليوم بنعمة الله وفضله مسلم متدين .. ولكن شتان ما بين مسلم اليوم ومسلم الامس . شتان بين نظرتي للدين بالأمس ونظرتي له اليوم . شتان بين طفل الأمس ورجل اليوم . كنت بالامس أصلي واكثر من الصلاه لأنهم علموني أن كل ركعة يقابلها (كذا) من الحسنات . وأن كل صلاة يقابلها قصر في الجنة وأن كل خطوة نحو المسجد يجزيها الله عشر حسنات وأن كل تسبيحة لها حسنة وكل صلاة على النبي لها حسنة أخرى . وهذه الحسنات اذا ما تكاثرت يوم القيامة جعلها الله قصورا وجنانا وحورا عينا وفاكهة . لا مقطوعة ولا ممنوعة. وانهارا من اللبن والعسل واثوابا من سندس واستبرق وارائك من الخز والديباج وأساور من ذهب ومن فضة .

كان ذلك كله يستهويني وكنت أطمع في الحصول عليه . . وكنت أري العبادة توصلني اليه . فكنت أسرف في كل مظهر من مظاهرها ابتغاء الثواب الكثير . اذكر مرة أنه قيل لي ان بقعة الارض التى نصلي عليها تشهد لنا يوم القيامة فعلينا أن نجعلها كبيرة ما أمكن فكنت اذا وقفت أصلى باعدت ما بين قدمى لتشغلا مساحة أوسع . .

وكنت أتعبد طمعا في الجنة ورهبة من النار . . أجل كان يرعبنى ما اسمعه عن النار . كان يرعبنى ما اسمعه من احاديث النار ويجعلني أقوم من النوم فزعا . . فشجرة الزقوم وزبانية القبر والجحيم وهذه النار التى تشوي الوجوه وهذه المياه الملتهبة . وهذه الافاعى وهذه الاسلحة التى تفرى اللحم والعظم وهذه الجلود التى تحرق ثم تنمو من جديد لتمزق مرة أخرى كل هذا كان يملأنى رعبا وفزعا ويدفعنى للصلاة والاكثار من الصلاة ويدفعني للتبتل فلا اكلم الناس الا بحديث الدين ولا أفهم الحياة الا من خلال الجنة والنار . ذلك كان اسلامى وتديني بالامس عندما كنت طفلا وهكذا آمنت بالجنة والنار دون أن أدرك لها سرا . ونفذت تعاليم الاسلام دون أن أدرك لها حكمة .

عقيدة الرجولة

أما اليوم فما أسعدنى وما أكثر ايماني . أنا اليوم أو من بالجنة لا لأني لقنت أن أومن بها او أن أمى حدثتني عنها ولكن لأنها حق . احسه بروحى ونفسي وعقلي . وأنا اليوم أو من بالنار لا لأنهم أخافونى منها ولكن لأنها حق أحسه بنفسي وروحي وعقلى . وأنا اليوم أعبد الله لا طمعا فى الجنة وأعنابها وخوخها ورمانها . ولكن طمعا في رضاء الله

ومغفرته . وأنا اليوم أعبد الله لا رهبة من النار وزبانيتها ولكن فزعا من سخط الجبار وغضبه . وأنا اليوم أصوم وأصلي وأقوم بكل أركان العبادات . لا لأني رأيت الناس يفعلون ذلك ولكن لاني لا أكاد أقوى على الحياة بغير هذه العبادات . بل لا أكاد افهم الحياة بغير هذه العبادات . بل لا أكاد أدرك علة لوجودي الا لهذه العبادات مصداقا لقول العزيز الحكيم « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

أنا اليوم لا أستطيع أن اتصور كيف تستقيم الدنيا بغير الاسلام . أنا اليوم اومن بأن لا اسلام للعالم الا بانتشار الاسلام . أنا اليوم أومن بأن آلام البشرية لن يقضى عليها الا الاسلام ولن يحول العالم الى دنيا من الخير والاحسان الا الاسلام . . كل ما أمر به القرآن فهو عندي حق وكل خروج عنه أو تهاون فيه أو تفريط في معانيه هو اهدار للحياة وكيانها . كل ما أمر به الرسول هو عندي مقدس لا تستقيم الحياة الا به . كل ما فعل محمد أو قال أو أشار اليه . هو الخير الذى لا خير قبله ولا بعده . هو النجاة لهذه البشرية الضالة . هو النور وهو السعادة التى ينتظرها العالم منذ الوف والوف من السنين . .

أما كيف أصبحت الى هذا الحد مؤمنا . أما كيف أصبحت الي هذا الحد وقد كرست حياتى من أجل عقيدتي فالفضل في ذلك لعظمة محمد عليه الصلاة والسلام تلك التى خلقها الله على الارض لتكون معجزة له ودليلا على وجوده وبرهان ربوبيته . فعظمة محمد هي الطريق لمعرفة الله هى برهان وجود الله . وآيات الله وكلامه . قد جاءت الي هذا الكون على لسان محمد فان لم نعرف محمدا فقد جهلنا الله . ومتى عرفنا محمدا فقد أصبح ايماننا بالله كالصخرة الشماء لا يأتيها الوهن من بين يديها ولا من خلفها .

أتعرف هؤلاء الملاحدة وهؤلاء الجاحدين . هؤلاء الذين ينكرون الله والأديان . هؤلاء الذين يثورون علي الخالق فيجذفون ويسرفون في التجذيف. هؤلاء ما كانوا ليفعلوا ذلك لو أنهم عرفوا عظمة سيدنا محمد. ولو أنهم وقفوا على رسالة سيدنا محمد، اذن لما استطاعوا الا أن يحنوا الرؤوس وأن يركعوا مع الراكعين ويسجدوا مع الساجدين تمجيدا لله ذي الجلال والاكرام .

فعظمة محمد هى نقطة البدأ للوصول الي الله . وعن طريق هذه العظمة - أنا اليوم بعد ألف وثلثمائة عام من وفاة محمد - علي استعداد لسفك آخر قطرة من دمي في سبيل الذود عن تلك الرسالة التى حمل لواءها سيدنا محمد .

وعظمة محمد لا نعرفها أول ما نعرفها من هذه الاحاديث التي يروونها عنه .. عظمة محمد لم أعرفها لاني تعلمت في المدارس انه كان عظيما أو انه كان صاحب معجزات . أو انه فعل كذا وكذا وقالت الناس عنه كذا وكذا

وعظمة محمد لم أعرفها أول ما عرفتها لأن القرآن يحدثنا عنها فلقد كنت حدثا صغيرا ما كان لى أن أفهم اسرار القرآن وأن أغوص الي اعماقه . . وأنا اليوم حتى في هذا السن وفي هذا السبيل الذي أنا آخذ به نفسي ما زلت أضعف من أن أغوص الى أعماق القرآن واخرج منه كل ما ينطوى عليه من أسرار وآيات

ولكن عظمة الرسول عليه الصلاة والسلام قد لمستها وشعرت بها من خلال تعاليم الاسلام وقواعده واحدة بعد الاخرى . . ولم تكن الصلاة ولا الصوم هي القواعد التى هدتنى أول ماهدتنى الي عظمة الرسول ولكن التشريع المدنى الخاص بالمعاملات وعلاقات الناس وتنظيمها وقواعد المجتمع هي أول ما لفت نظرى الى عظمة الدين

الاسلامى . ومن هـذه العظمة التشريعية أخذت أتدرج الي العظمة الروحيه .. حتى انتهيت الى عظمة محمد وآمنت بأنه سيد الخلق فعلا .. حتى اذا نضج في نفسي هذا الايمان لم يبق الا أن أصدق كل ما يقوله سيد الخلق وأن ينزل مني منزلة التقديس

بين تعاليم المدنية الغربية

تفتحت عيني على الحياة وأخـذت أتطلع لهذا الذي يسمونه المدنية الغربية وقواعد الحضارة الحديثـة فراعتني كل هذه الامبراطوريات والممالك التي تحكم الدنيا فأخذت أدرس مع الدارسين عناصر هذه الحضارة وعناصر هذه القوة التي جعلت انجلترا سيدة البحار . ولها من المستعمرات مالا تغيب عنه الشمس وجعلت فرنسا سيدة أوروبا بلا مراء وصاحبة النفوذ الأدبي على العالم بأسره . .

استهواني ذلك النهوض وأخذت بلبي تلك الحضـارة فاعتزمت أن أغترف من منهلها وأن أدرك سرها وابهـا فآليت على نفسي أن أبادر في أول فرصـة لزيارة فرنسا وعاصمتها باريس حتى أقف بصورة مادية على أثر الحضارة الغربية . .

ولقد كان وسافرت الى باريس في عام ١٩٣٠ وهناك مكثت شهراً ونصفا أو أكثر ولم يكن لى من عمل إلا دراسـة هذه الظواهر التى تحيط بي والتأمل في حقيقة القواعد والمبادىء التي يقوم عليها هذا البناء ..

خطف بصرى أول ماطالعت باريس دمقراطية الفرنسيين واحساسهم بشخصيتهم وايمانهم بالمساواة فيما بينهم .. حتى اذا امتدت بي الايام قليلا أخذت أرى من تفاصيل الحياة الفرنسـية مايلفت النظر فقد وجدت أنهم

لا يكذبون في معاملاتهم اليومية . . فهم يصدقون في وعودهم . وهم لا يحاولون خديعة محادثهم . وراعني منهم النظام والنظافة . . فالنظافة في كل شيء . في ملابسهم . . في طرقاتهم . في معيشتهم . . في قطاراتهم ومركباتهم . . والنظام رائدهم اذا أقبلوا يركبون سيارة وقفوا صفا منظما ينتظر كل دوره . واذا رغبوا في شراء سلعة من السلع وتكاثر عددهم بادروا بتنظيم أنفسهم وهكذا

ولكني بعد ذلك لم أجد شيئا غريبا ولا فذا فقد وجدت أناسا ككل الناس لهم عيون ولهم آذان ولهم أرجل . . لا . . بل لهم أكثر من ذلك عقول محدودة لا ذكاء خارق فيها ولا نبوغ . فالمصرى قد يكون في بعض الاحيان أكثر ذكاء ونبوغا . . كما نشاهد ذلك في بعض معاهد العلم الفرنسية بالذات . .

واذن لم يكن نجاح الفرنسيين والاوربيين على العموم راجع الي مقدرة خارقة . ولا هو معجزة من المعجزات وانما هو نتيجة لهذه الحياة التي يحيونها والتي تخلق للرجل شخصيته وتسوى بين الافراد وتمنحهم حريتهم المطلقة . . وهو في النهاية نتيجة لهذه التربية التي تغرس في النفس حب العلم والنظام والخلق الحسن . . من جد وصدق وعزم واخلاص . وهذه صفات تتوفر كلها في الاوروبيين اذا اسقطنا من الحساب ما طرأ على ذلك كله عقب الحرب من تغييرات . . واذا كانت دول أوربا قد سادت فهي انما سادت بهذه الاخلاق وهذه الصفات التي كانت لها بالامس لا بما هي عليه اليوم والتي ستؤدى بها الي الخراب والدمار حتما بعد أول حرب مقبلة . واذن فقد دفعني ذلك للتفكير العميق في هذه الاسس التي تقوم عليها الحياة الفرنسية والحياة الاوربية بصفة عامة .

حرية . اخاء . مساواة

فعاد بي الفكر الى الثورة الفرنسية . . وكل مافي باريس يذكرك بالثورة الفرنسية . . فهذه القصور وهذه الاعلام وهذه الاسماء كلها تعيد الى الذهن هذا الحدث العظيم الرهيب . والذي انطلق فيه الشعب الفرنسي يخرب ويحطم آثار العهود القديمة فسرت منه نار الثورة الي أوروبا بأسرها . فسرعان مادكت النظم القديمة دكا . . واستقبلت أوروبا عهدا جديدا من الحضارة والحياة . .

حرية . واخاء . ومساواة . تلك هي الثلاث تعاليم التي حملتها الثورة الفرنسية والتي تراها اليوم في باريس وقد خطت على كل منشأة عامة وفي كل مدرسة وفي كل محكمة وفي كل كنيسة . . بل انك لتراها على مطبوعات الحكومة ومنشوراتها وأعلامها . . بل انك لواجدها في علم الدولة المثلث الالوان . . وواجدها بالأكثر على كل مايتناوله الناس من طعام وشراب

وليست هذه المبادىء الثلاثة إلا شعار أوروبا الحديثة بأسرها . . فهي كما قلت لك قد سرت من فرنسا الي ماجاورها من البلدان وسرعان مااعتبر العالم أن الثورة الفرنسية بدء حلقة جديدة من حياة الانسانية بأسرها . . ففى كل ميادين الحياة وفروعها في نظم الحكم وفي علاقة الناس في القانون والتشريع والقضاء . في الادب وفي الفنون وفي الدين . . في كل مظاهر الحياة حدث انقلاب من جراء الثورة الفرنسية والتي حملت لواء المبادىء الثلاثة . حرية واخاء ومساواة وكان ذلك منذ قرن ونصف

وقفت طويلا أمام هذه المبادىء التي أشرقت على الانسانية منذ قرن .

ونصف والتي يقول الفرنسيون انهم حملوها للعالم. وان قبل ذلك التاريخ كان العالم يعيش في ظلام وذل وشقاء .. كان العالم يعيش في فوضى. والانسانية في تأخر وخمول . لانها لم تكن تعرف الحرية ولم تكن تعرف الاخاء ولم تكن تعرف المساواة .

على انني عبثا حاولت أن أشعر بعمق هذا الانقلاب وخطورته فلم أتخيل كيف كان العالم قبل الثورة الفرنسية يجهل هذه المباديء الثلاثة . . وساءلت نفسي هل كانت الناس تفهم الحياة بغير حرية . . وهل كانوا يفهمونها بغير مساواة وبغير اخاء حتى قرن ونصف من الزمان ..

فكان جواب الثورة الفرنسية (نعم) والا فعلام كل هذه الهزة التي أطاحت برؤوس ملوك وملكات وأشراف ..

علام هذه الفترة من الزمن التي كان يقاد فيها للمقصلة كل شريف أو من يحمي شريفا أو يمت الي شريف بصلة . .

والتي صورها بعض الكتاب والمؤلفين بصورة يرتعد لها البدن وتهتز النفس لها من الاعماق .. علام ذلك كله ان لم تكن الانسانية تبغي التخلص من عهد لتستقبل عهدا جديدا . . لتدفن مباديء ولتستقبل مباديء جديدة .. ففرنسا بل أوربا بأسرها قبل الثورة الفرنسية كانت تنظر الى الملك كصاحب حق الهي . .

وكان الناس قسمين قسما من الاشراف هم السادة وهم الاغنياء وقسما من العبيد والاتباع وهم جمهرة الناس وأغلبيتهم . . ولم يكن لدم الاخيرين من ثمن .. ولم يكن لحريتهم من باب أو بالاحرى من معنى مفهوم. فقد كان السادة ينظرون اليهم كنوع من الحشرات أو نوع من البعوض .. ولذلك فلقد

دهشت ماري انتوانيت ولقد كانت مخلصة في دهشتها عند ما قالوا لها ان الناس في الخارج تريد خبزا لأنها جائعة . "

مرت في ذهني كل هذه الاخيلة والمعاني وأنا مبهوت لمجرد استعراضها ولم أكن أعرف لماذا أنا في كل هذا العجب وهذه الدهشة لهذه الحوادث منذ قرن ونصف .. ولم أستطع أن أعلل ما أشعر به من الحيرة في نفسي ازاء هذه الثورة حتى تنبهت الى انى مسلم وديني الاسلام . وهذا مايجعل الثورة الفرنسية تبدو غريبة كل الغرابة، تبدو وليس لها ما يعللها من تفكيري ومنطقي واحساسي .

ذلك انا معاشر المسلمين نرى الحرية شيئا طبيعيا كالهواء والماء .. ونرى المساواة كذلك والاخاء .. ولذلك فلسنا نستطيع أن نتصور أن هذه المبادىء كانت محل نزاع وانها ظلت منكورة حتى قرن ونصف من الزمان . . وان انفجارا مخيفا وحشيا هو الذي أعلنها وخلقها . . . وما كان ذلك يحدث لو أن هذه البيئة كانت تعيش في ظل الاسلام وتعاليم الاسلام والتى نصت أول ما نصت على الحرية والاخاء والمساواة . .

فمن الاحاديث المروية أن المسلمين سواسية كأسنان المشط . .

ومن الاحاديث المروية أن لا فضل لعربى على عجمي الا بدين أوعمل صالح

ومن الآيات الكريمة (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) . .

ومن آيات الاسلام أنه جعل المؤمنين أخوة فحديث الأخوة بين المؤمنين يفيض به القرآن وتفيض به الاحاديث . .

وقل مثل ذلك عن الحرية وحق كل مؤمن فيها كما لخصها بحق سيدنا

عمر رضي الله عنه في عبارته المشهورة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »

فالمساواة المطلقة والحرية المطلقة والاخاء الصادق كانت الدعائم الاولي التي دعى اليها الاسلام وارتفع على قواعدها .

وماذا تقول في هذه القصة الخالدة التي يرويها التاريخ عن عمر عند ما وقف في المسجد يقول : من رأى في اعوجاجا فليقومه . فقام أعرابي من أقصي المسجد يقول : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فحمد عمر الله أن جعل في أمة المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بالسيف .

بل ولماذا نتدرج الي ذكر هذه الحكاية السابقة وهذا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقف مرة يقول للناس (من كان له عندي حق فليطالبني به) فقام رجل يقول له لقد أوجعتني يارسول الله يوما بغير حق فمكني من نفسك حتى آخذ حقي فوالله ما كاد الرجل يتم قولته حتى كان سيدنا محمد أسرع الي تلبيته من ختام عبارته فلم يمالك الرجل نفسه من أن يلتزم رسول الله وأن يعانقه وهو يقول : بأبي أنت وأمي يا رسول . .

سبحانك يارب ما أروع آياتك أكل هذه المساواة قد علمنا اياها الاسلام وقدمها للعالمين ؟ . . أكل هذه الحرية . وكل هذا الاخاء قد لقنها الاسلام للانسانية . فما أعظم هذه التعاليم . . وما أعظم تلك المباديء .

فليكبر العالم ما شاء له الاكبار في مبادي الثورة الفرنسية فليقدسها تقديسا وليسجد لها سجودا ان أراد . .

فليعتبروا ان الثورة الفرنسية هي النور الذى أضاء الارجاء . . وهي الخير الذى عم العالمين فذلك كله تمجيد للاسلام واعظام للاسلام .

ذلك الذي حمل هذه المبادي للانسانية منذ نيف والف وثلثمائة عام عند ما كانت الانسانية تعج في دياجير الظلمات

ولم يكن الاسلام داعيا فحسب لهذه المبادىء ولكنه شاد على قواعدها دولة هي أعظم دولة عرفها التاريخ .. واذا كانت هذه الدولة قد تفككت ردحا من الزمان فهى لا تلبث أن تعود أكثر قوة ومضاء من ذي قبل بعد أن آمن العالم بأسره بهذه القواعد التي أقرها الاسلام وأعنى بها الحرية والاخاء والمساواة ..

وهكذا كانت مبادىء الثورة الفرنسية كما رأيتها في باريس هى أول من هداني الي عظمة التشريع الاسلامى فأخذت منذ ذلك التاريخ أتأمل أحكام هذا التشريع وأطبقه على ما وصل العالم اليه من نظم أو يبتغي لوصول اليها فلا أجد من الاسلام الا احكاما وسموا واعجازا

الاسلام والاشتراكية

ان موجة التفكير الحديث اليوم في العالم قاطبة تنحو نحو الاشتراكية والتعاون فالناس لم تعد تطيق رؤية الثروات تكدس في يد بضعة أفراد والى جوارهم عشرات الالوف يئنون من الجوع والفاقة . لم يعد ضمير العالم يحتمل كل هذه الفوارق الاقتصادية بين جماعة وجماعة . فنمت المبادىء الاشتراكية وترعرعت .. واختلفت مدارسها وتعددت مذاهبها ولكنها تدور كلها حول محور واحد . وهو واجب الاغنياء في مساعدة الفقراء وتضامن الطبقات لخير المجموع وسعادة المجموع .

ويرون في انتشار المبادىء الاشتراكية وتأثر أوربا الحديثة بها وتأليف حكومات مختلفة على اساسها

يري الكتاب والمؤلفون والناقدون والمتفرجون . يرون في ذلك مظهرا من مظاهر ارتقاء البشرية ورفعتها ويشيرون الى تطور الانسانية وتدرجها نحو الكمال والمثل الاعلي . كيف نما الضمير الانساني فأصبح يحرم الصعود على اكتاف الناس ويتركهم فقراء ضعفاء . .

وان كنت أعجب لشيء فهو أن هذا التفكير لم تعرفه اوربا الا منذ خمسين عاما فقط أو أقل ولكن العجب يزول اذا تذكرنا ان اوربا لم تعرف الحرية ولا الاخاء ولا المساواة الا منذ قرن ونصف فقط . وهكذا يبدو منطقيا أنها ظلت تجهل الي نصف قرن تضامن المجموع لخير المجموع . وأن للضعفاء على الاقوياء حقا وللفقراء على الاغنياء حقوقا

ذلك أن هذا المعنى الذى لم تحاول أوربا أن تفهمه الا منذ هذا الامد القصير هو ركن من أركان الاسلام وبغيره لا يستقيم الاسلام ولقد فكر بعض المسلمين يوما أن يتحرروا منه فكانت حروب لا عهد للمسلمين بأهوالها من قبل حتى خرج المبدأ ظافرا منتصرا يقرر للفقير حقه على الغنى وللضعيف حقه على القوى وأعنى به مبدأ الزكاة .

فالزكاة هى الروح الاشتراكية التي لم تكتشفها اوربا الا منذ خمسين عاما يقررها الاسلام منذ الف وثلثمائة عام في قوة ووضوح ويجعلها من دعائم الدين .

وزكاة المال هي دفع ٢٫٥ في المائة من رأس المال في كل عام يتسلمها بيت المال ليوزعها على الفقراء والمعوزين

وهذه نسبة ضخمة تكفي لالتهام رأس المال بحيث أن رأس المال هذا ان لم يتزايد وينمو فهو لا يلبث أن ينعدم بعد أربعين عاما أو خمسين وان كانت الزكاة تقف عند حد معين فلا تصبح واجبة عند هذا الحد .

هذا المبدأ الخالد من مبادىء الاسلام هو ما تجاهدله الانسانية عبثا حتى الآن باساليب مختلفة، تارة بالعنف وتارة بالتطور البطيء . . فلم تستطع الوصول اليه حتى الآن وأرجوان تفرق بين الضرائب التي يدفعها الاغنياء اليوم في بلاد أوربا وبين الزكاة . . ذلك أن الضرائب يدفعها الانسان في مقابل منفعة يحصل عليها شخصيا من الدولة ولذلك فهو يدفع ثمن هذه المنفعة والدليل علي ذلك أن الضرائب التي تأخذها الحكومة لا تقف عند حد الاغنياء بل هى تشمل الفقراء أيضا ولعلها تشمل الفقراء بأقسى مما تنال الاغنياء .

فالفقراء يدفعون ضرائب باهظة عن طريق غير مباشرة

فالضرائب الجمركية التي تفرض على السلع يتوزع ثمنها على وحدات هذه السلع والتي يحصل عليها الفقراء .. خذ مثالا لذلك في مصر فهناك ضرائب علي السكر والشاي والكبريت والدخان وكل هذه حاجيات يستهلكها الفقراء بقدر استهلاك الاغنياء لها فالفقراء يتألمون من الضرائب التي تفرض على هذه السلع سواء أكانت في ضرائب جمركية أو ضرائب انتاج .. اكثر مما يتأثر الاغنياء .

فالضرائب تجبيها الدولة في مقابل منافع تقدمها للسكان فهى تشق الطرق وتبنى الكبارى وتطفيء الحرائق وتحفظ الامن وتبنى المستشفيات وتنشر التعليم وتدافع عن الدولة بالجيش . فالضرائب ثمن لعضوية الدولة .

أما الزكاة فشيء غير هذا .. انها فريضة علي رؤوس الاموال لتمنح مباشرة للفقراء والمعوزين بطريقة منظمة . . . وهذا هو آخر ما تطمح اليه الانسانية ولا تكاد تصل اليه .

بقي أن الاشتراكية فيها ناحية أخرى من تنظيم علاقة أصحاب

الاعمال بالعمل وانك لتعجب بهذه الاحكام الدقيقة التى فرضها الاسلام علي من يؤجر عاملا وبحسبك أن تعلم أن من بين هذه الاحكام ان صاحب العمل ان شاء اطعام العامل فقد وجب عليه أن يقدم له طعاما من خاصة ما يأكل. وان شاء ان يقدم لها رداءا فقد وجب أن يكون من خاصة ما يلبس

وهكذا وضع الاسلام العامل في مرتبة يصل فيها الي صاحب العمل بالاحسان والمعروف والديانة .

واذن فان الاسلام لم يغفل الحاجيات المادية الانسانية ولم يغفل عن تنظيمها ووضع القواعد الاساسية لها والتى احتاجت الانسانية الى ثلاثة وعشرين قرنا كيما تهتدى اليها عن طريق التفكير والفلسفة . وما زالت الانسانية تتخبط وتتعثر على غير هدى لا تعرف قاعدة تسير عليها الا ان تكون هذه القاعدة التى قررها الاسلام في هذا السبيل .

الاسلام والعالمية

وفي العالم اليوم نزعة لتوحيد صفوفه والتأليف بين وحداته . واحلام البشرية اليوم تتلخص في رؤية العالم وحدة واحدة لاقيود ولا حواجز ولا حروب ولا ويلات . ليس في العالم اليوم من تصبو نفسه بأن تكون الدنيا بأسرها وطنه فالتجارة حرة والرزق حر وابناء العالم اخوة وليست عصبة الامم التى تريد اخضاع العالم بأسره لسيادتها .. وليست هذه المؤتمرات العالمية والمعارض العالمية . والالعاب الاولمبية والمباريات الدولية .. ليس ذلك كله الا محاولات من العالم لجعل العالم بأسره وحدة واحدة .

هذا المبدأ الذي اعتنقته الشيوعية وجعلت تفخر به وتنادى أنها تريد انقاذ الانسانية بواسطته .

ما أعجب .. بل ما أصدق أن يكون ذلك هو الاساس الذى قام عليه الاسلام يوم أن قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فالاسلام بهذه القاعدة كان يقضي على الفوارق الجنسية وحدود الممالك وينظر الي المسلمين في جميع بقاع الارض كأمة واحدة وأبناء وطن واحد ولقد قامت الدولة الاسلامية على هذه الدعائم بالذات فامتدت من بحر قزوين شمالا الى انهار الهند جنوبا والى الصين شرقا والمحيط الاطلسي غربا

كل هذه الرقعة التي حوت ثلاثة أرباع العالم كان كل فرد فيها يقف على قدم المساواة مع المسلم الآخر

وكان المسلم يرى في هذه المملكة الضخمة وطنه . فلم يكن المغربي في مصر إلا مسلما له حقوق المسلم وعليه واجباته .

تلك هى العالمية حلم البشرية في العصور الحديثة قررها الاسلام وعمل لها ومازال يعمل وسوف يحققها من جديد باذن الله

الق بالك لهذا المؤتمر العالمى الذي يعقده الاسلام في الحجاز كل عام مرة عند ما يؤدي المسلمون فريضة الحج فانك تستطيع أن تأخذ لنفسك صورة كيف يريد الاسلام أن يجمع أمم العالم كلها في صعيد واحد . فاذا عرفت بعد ذلك أن الحاج ينبغى عليه أن يخلع ملابسه ويرتدى ازارا أبيض وأن يقف المسلمون جميعا موقفا واحدا علي جبل عرفات لافرق فيهم بين ملك وجندي . بين غنى وفقير . بين مصرى وصينى . بين تركي وعجمى الجميع في ملابس بيضاء ومن نوع واحد .. الجميع يرددون دعاءا واحدا

وحديثا واحدا .. الجميع يطلبون من لله عزا ونصرا ومغفرة . فاذا انفضوا من ذلك الموقف اجتمع زعماؤهم الى بعضهم يتحدثون ويتشاورون ويتبادلون المنافع ويتعاونون .. هذه هي عصبة الامم التى يحلم بها العالم اليوم فيعجز عن تحقيقها إلا بهذه الحفنة من السياسيين الكاذبين المنافقين الذين يجتمعون لينهبوا ويسرقوا ويعتدوا علي الضعفاء .. ضع نصب عينك هاتين الصورتين ثم احكم بنفسك الى أي مدى كان التشريع الاسلامي منظما الدنيا بأسرها فى سمو واعجاز •

فالحرية والاخاء والمساواة وهى ما يسمونها حقوق الانسان والاشتراكية والعالمية .. كل هذه قواعد مقررة في التشريع الاسلامي وطبقها الاسلام وسيظل ينادي بها ويطبقها ..

واذن فان جهود العقل البشرى طوال الف وثلثمائة عام قد تمخضت وانتهت الى ما أعلنه الاسلام منذ الدقيقة الاولي وهى قد انتهت اليه فكرا لا عملا .. وما زالت تعتبره حلما وخيالا .. ومع ذلك فهذا هو ما أعلنه محمد عليه الصلاة والسلام وطبقه بالفعل وقامت الدولة الاسلامية على أساسه في عز وسؤدد وقوة طوال عدة قرون فهل يمكن أن يكون ذلك كله من صنع الانسان .. ؟ ؟

الاسلام وآداب السلوك

ويلفت أنظارنا من حضارة الغرب مبادىء السلوك التى اعتادها الناس فبلغوا شأوا عظيما في الرقى .. فهم لا يكذبون في معاملاتهم وهم يؤدون الامانات .. وهم يشمرون عن ساعد الجد في أعمالهم .. وهم يأخذون أنفسهم بالنظام والنظافة . وهم يحترمون الرجولة ويكبرونها . ويحفظون للكرامة

حقها . وهذا مايروع الانسان عندما ينفذ الي صميم حياة الاوروبيين ..
فبهذه الاخلاق تفوقوا .. وبهذه الآداب سادوا .. وانك لتعجب أن
تري ذلك كله ليس إلا قواعد مقررة في الاسلام دعا اليها منذ الدقيقة
الاولى واعتنقها المسلمون الاوائل فسادوا علي العالمين .. فليس هذا الذى
يسير عليه الاوربيون إلا فضيلة الاسلام اعتنقوها فسادوا .. وأهملناها
فهبطنا الي الحضيض .. وهل يعلمنا الاسلام شيئا أكثر من الصدق ..
هل فينا من لايعرف وصية سيدنا محمد لأحد المسلمين الذى شكا اليه كثرة
خطاياه وطلب من النبي صلي الله عليه وسلم علاجا فطلب منه الرسول أن
يعاهده على ترك الكذب .. وأخذ يكررها له حتي خلدت على مر
الايام ووصلت الينا من خلال العصور

فمن من المسلمين اليوم لايصطنع الكذب في حديثه بل لا يتخذ
الكذب حرفته في بعض الاحيان ..

والوفاء بالعهود وحفظ الامانات والتعاون والاتحاد .. كلها ..
كلها فضائل دعانا اليها الاسلام وطالبنا بها .. فنفذها الاوربيون فكان
ذلك سر تقدمهم ..وأهملناها فكان سر تدهورنا ..

طالما وقفت مشدوها أمام ظاهرة غريبة وتلك هي نظافة الاوربيين
وقذارة المسلمين .. هنا في مصر اذا فتح أجنبي أحد الحوانيت فلن
يأخذ نفسه بشيء غير النظافة وهذا كفيل بانجاحه . واذا مارس أحد
الصناع الاجانب عملاما من الاعمال . فلن يأخذ نفسه بغير النظافة . وهذا
كفيل بانجاحه .

فهم قد اعتادوا النظافة في بيوتهم في أعمالهم فى ملابسهم فى
حياتهم ونحن قد ألفنا القذارة .تراها في حوانيتنا . تراها في بيوتنا .

تراها في ملابسنا تراها طابعا لكل شيء . والغريب فى ذلك كله أننا أبناء الدين الذي يضع النظافة شرطا أساسيا لصحة أى ضرب من ضروب العبادة . هو دين جعل من آدابه أن تغسل يديك قبل الاكل وبعده . وهو دين جعل من فروضه أن يتوضأ الانسان بالماء خمس مرات فى اليوم وهو دين جعل من فروضه الاستحمام فى أكثر من مناسبة . وهكذا هو دين قدقدس النظافة وقدمها على ماعداها . فاذا راعتنا نظافة الاوربيين فهي ليست الاقبسا من تعاليم الاسلام التي أهملناها وجهلناها

فالدين الاسلامى قد نفذ الي كل تفاصيل الحياة فنظمها ووضع آداب السلوك وشرعها بما تفخر الانسانية أنها قد اكتشفته بعد ثلاثة عشر قرنا . أذكر مرة أنني ذهلت عند ما كنت اطالع آداب المائدة عند الانجليز عندما وجدتها تكاد تنطبق بالحرف على آداب المائدة في الاسلام . فالانجليز يطلبون منك أن تجلس الى المائدة في أدب ووقار معتدلا في جلستك فاذا أكلت فقد وجب أن تمضغ الاكل جيدا وأن تغلق فمك حين المضغ مخافة أن يتناثر الطعام من فيك على أن تتبادل الحديث الطريف من حين لآخر ابان الطعام . هذه التفاصيل وغيرها وأكثر دقة منها سوف يروعك أن تعلم أنها هى . . هي بذاتها ما شرعها لنا الاسلام ذلك الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها . .

الاسلام وعلاقة الزوجية

انتقل بنا الى نظام الاسلام في الزواج وهذه القواعد التى وضعها للمرأة تجده أنه قد وصل كعادته الي الكمال المطلق الذي تنشده الانسانية فلا تكاد تصل اليه وهي تتخبط في سبيل الحصول عليه لعجزها

حتى الآن عن ادراك هذه النعمة . شرع الاسلام للانسانية نظام الطلاق ذلك أن هذه العلاقة التي تقوم بين الرجل وزوجه هي علاقة تقوم على التآلف والاتحاد والوئام فاذا انحلت هذه العروة الوثقي فقد تحولت رابطة الزوجية الى جحيم وهم دائم . ومن هنا فقد تداخل التشريع الاسلامي ليفصل بين الزوجين بمعروف . والمسيحية لا تعرف الطلاق وتعتبره من أكبر المنكرات فقد جاء في الانجيل أن ما ربطه الله لايحله الانسان فلاعجب أن قامت اوربا المسيحية وقعدت ضد هذا التشريع الاسلامي وجعلته مطعنا في الدين الاسلامي ومأخذا أى مأخذ . ولكن أوربا تطورت في النضوج العقلي وامتلأت بالثقافة والفلسفة التي تعمل لادراك مشكلات الحياة . اوربا هذه قد انتهت الي تقرير شريعة الاسلام فأخذت تبيح الطلاق. وتنظم الطلاق وهي في هذا انما تطبق أدق تعاليم الاسلام وهكذا احتاجت البشرية الى ثلاثة عشر قرنا لتهتدى الي نظام قرره الاسلام في وضوح ونصاعة منذ اللحظة الاولي . .

ومن نظم الاسلام التي تقف الى جوار الطلاق سماحه بتعدد الزوجات ابان الضرورة كأن تكون الزوجة عاقرا والزوج يريد الولد . أو كأن تكون الزوجة مريضة تطاول بها المرض أو كأن تصاب الامة عقب حرب من الحروب بفناء أغلبية الذكور فيها . أو تزيد نسبة الاناث عن الذكران كما حدث في التعداد المصرى هذا العام وقس على ذلك أمثال هذه الحالات التي يصبح فيها التعدد ضرورة اجتماعية لا يحلها الا الفوضى الجنسية أو تعدد الزوجات

ولقد وقف الاوربيون يوما من هذا النظام موقفهم بالأمس من الطلاق .فهم يستبشعونه . وهم في هذا يمثلون دورا من أحط أدوار النفاق والانحطاط ذلك انهم لا يستطيعون الرد على مسائل

الاسلام في هذا الباب الا بأن يعلنوا الاباحية والفوضى الخلقية . فأنت اذ تسألهم : الاتسلمون معنا بأن من الرجال من لايطمع من حياته في أكثر من أن يكون له ولد فان لم يرزق هذا الولد كان شقيا تعسا ؟ . فيقولون بلى .فنسألهم : فماذا يكون الحل اذا تزوج هذا الرجل بامرأة وأحبها وارتضاها زوجة له ولكنها كانت عاقرا فلم تمنحه الولد الذى يصبو اليه ؟ ما هو الحل في مثل هذا الموقف من الناحية الاجتماعية ومن الناحية الانسانية ومن الناحية الطبيعية التي تؤمنون بها . الا تسلمون معنا أن غاية الزواج هي النسل فسيقولون: نعم . فنسألهم بدورنا فماذا نفعل في هذا الزواج العقيم؟؟ الا يكون من المنطق ومن حق المجتمع وخضوعا لنواميس الحياة أن يتزوج هذا الرجل بزوجة ثانية وأن يحتفظ بالاخري التى فتحت بيته أولا . فلها عليه حق العطف والرعاية ثم يتزوج باخري ليرزق منها بالغلام الذي يصبو اليه كل رجل في الحياة . اذ هو حياة الرجل وخلوده

واذا تزوج رجل بامرأة فمرضت مرضا مزمنا الزمها الفراش عاما وعامين وثلاثة والي ماشاء الله . فأين يكون الخير للانسانية ولهذه المرأة وللمجتمع . وأين يوجد المنطق السليم . أليس في أن يتزوج هذا الرجل بامرأة جديدة تعيد الحياة اليه والي بيته والى المجتمع .

في مثل هاتين الحالتين لايجد الاوربيون جوابا على مثل هذه المشاكل الا بواحد من اثنين اما أن يلبسوا ثوب النفاق والرياء ويهرفون بألفاظ هم أول من يعرف سخافتها وتلك هي أن يقولوا لك على مثل هذا الرجل أن يتعفف.. وماذا يعنى انه لابد أن يرزق ابنا !!وهل الحياة لابد فيها من ابن؟!

واذا مرضت زوجته مرضا طويلا مزمنا فالرجل لا يتعفف . أهو لابد أن يكون حيوانا شهوانيا !! ومثل هذه الردود لاتحتاج منا الا مجرد اثباتها

ليتبين ما فيهامن سخف لأن قائليها هم الغارقون في الشهوات حتي اذقانهم . هم الذين ابتكروا الرقص والاختلاط ورفعوا الحدود ونادوا بالاباحية الجنسية . . فهؤلاء هم الذين يتحدثون عن التعفف في أمثال هذه الحالات فيطالبون الرجل لأن زوجته مريضة طوال عدة سنوات أن يترهب وأن يزهد في النساء ، وهم أول من يقررون لك أن هذا مستحيل وهو ان أمكن تصوره بالنسبة لرجل من الناس فهو لا يمكن أن يكون قاعدة عامة .

بقى الجواب الثاني الذي يردون به في أمثال هذه المواضيع وهو يتلخص في كلمة الاباحية وفوضي الاباحية فهم يقولون ان النساء أمام الرجل كثيرات فليتصل بهن على شكل محظيات .. وأنت ترى أن ذلك لا يمكن أن يكون حلا لأن الاباحيـة لا يمكن أن تـكون حلا يقوم الى جوار الزوجية ..

لان نظام الزوجية يعنى شرعية العلاقة بين الرجل والمرأة وتقييدها بقيود . والاباحية معناها اهدار هذه القيود فـكيف تتفق قيود ولا قيود .. وأيها أكثر حفظا لـكيان المرأة واحترامها . . أن تـكون ولها حق شرعي على الرجل اذا اقترب منها .. أم أن تـكون سلعة يدفع ثمنها معجلا لـكل مرة يقترب فيها منها . .

الحق ان السماح بتعدد الزوجة في أمثال هذه الحالات هو الحيـاة وناموس الحياة .. هو احترام المرأة وتوقيرها واعلاء كلمتها وتقديس حقوقها ولعله يدهش نفرا عظيما من المسلمين أن يعرفوا أن أوربا تتجه اليوم نحو الاعتراف بتعدد الزوجات تحت ضغط مطالب الحياة وضروراتها ويتجلى ذلك في أن النساء يطالبن في مؤتمراتهن العامة أن يعمل التشريع

على الاعتراف بالولد الغير شرعى ليرتب على أبيه له حقوقا واذا أضفت الي ذلك أن القانون في بعض بلاد أوربا يعترف بحق الخليلة على الرجل الذى عاشرها فباتت المحاكم تقضى بالتعويضات اذا ماتخلي عنها الرجل فجأة وامتنع عن الصرف ..

أقول اذا قرنت هذا الحق الذي تقرر أو هو في سبيل التقرير أكثر صراحة وتنظيما .. اذا قرنت اليه ما يطالب به النساء الآن من ضرورة الاعتراف بالابن الغير شرعى لعلمت اذن كيف تتجه اوروبا نحو اقرار مبدأ تعدد الزوجات .. فان الخليلة التى يترتب لها حق على خليلها .. وابنها الذي ترزقه ..منه يصبح ابنا شرعيا فانها في مثل هذه الحالة لا تكون خليلة بل حليلة لان الفرق بين العلاقة الشرعية وغير الشرعية أن الاولى يعترف بها المجتمع ويرتب عليها حقوقا وواجبات .. أما الاخيرة فينكرها المجتمع ويأباها .. ولا يرتب عليها أي حق من الحقوق .. فاذا انتهى المجتمع -وهو منته حتما- الى تقريرها فهو قد اعتنق مبدأ تعدد الزوجات .. وان كان لا يسميه كذلك صراحة خوفا من دينه المسيحي الذى يحرمه تحريما باتا

فأنت تري من هذا كيف أن الاوربيين أصبحوا مضطرين للخروج على تعاليم المسيحية سواء في الطلاق أو في اباحة تعدد علاقات الرجل بالمرأة .. وهم في هذا يقتربون من الاسلام وقواعده رغم أنوفهم تحت ضغط تطور الحياة ونواميسها .

فهلا يروعك بعد ذلك كله عظمة هذا التشريع الاسلامي الذى أحاط بالكون كل هذه الاحاطة ونظمه كل هذا التنظيم الذي هو صورة من صور الكمال وعلاج لكل أمراض الانسانية . الأمر الذى يجعلني أومن أن كل ما تشكو منه اليوم مرده اغفالها لهذه المبادىء والتعاليم

عظمة سيدنا محمد

هنا وقفت طويلا وأخذت أتأمل في هذا الانسان الذي حمل للانسانية هذا التشريع منذ ألف وثلثمائة عام ..

ويقولون عنه انه كان أميا .. ويقولون عنه انه لم يتعلم ولم يتلق درسا على أحد وهو قد وجد في بلاد لو لم يوجد فيها لكانت صحراء بلقعا لا قيمة لها ولا مقدارا .

أجل . لكم وقفت طويلا ازاء هذه البلاد التى خرج منها سيدنا محمد . فجعلني ذلك أومن برسالة محمد .. لو أنه جاء في بلاد اليونان لامكن القول انه عظيم كهؤلاء العظماء الذين سبقوه .. عظيم في الحرب كالاسكندر الذي فتح الدنيا .. وعظيم في الفكر كافلاطون وسقراط وارسطو فهو قد جمع في شخصه كل هذه المواهب والقدرة ..

ولو انه جاء في الرومان لقيل عنه مثل ذلك أيضا .. واذن فليخرج من بلاد لا ماضى لها ولا قوة ولا حول ولا طول .. فليخرج من شعب لا يعرف مجرد الكتابة .. ولا يزيد سكانه على بضعة ملايين .. ولا يملك من الثروة الا بمقدار ما يقيم أوده ..

فليخرج من هذا البلقع المجدب كل هذه الحياة .. فليخرج من هذا الضعف كل هذه القوة .. فليخرج من هذا الالحاد كل هذا الايمان .. فليخرج من العدم كل هذا الوجود ..

فمحمد عليه الصلاة والسلام منذ ألف وثلثمائة عام وفي جزيرة العرب التى لم تكن تساوى شيئا بين الممالك والامبراطوريات .. محمد في هذا الزمن الذي خرج فيه وفي هذه البيئة، يحمل للعالم هذا التشريع الذى تثبت الايام

كمال كل مظهر من مظاهره .. وبهذا القرآن الذي تثبت الايام صحة كل حرف فيه مع كثرة ما يعرض له من موضوعات و كثرة ما خاض فيه من علوم فلقد تناول القرآن الفلك والجغرافيا والتاريخ وعلم الحياة .. وسجل نظريات وقرر قواعد والعقل البشري منذ ذلك التاريخ يعمل ويجتهد ويبتكر ويخترع ويكتشف، وتطورت العلوم حتى انقلبت من النقيض الي النقيض .. ومن اليمين الى الشمال . فهل جاء العلم طوال هذه الحقبة بنظرية تهدم حرفا او تعدل حرفا مما جاء في القرآن على كثرة ما تناوله من المباحث الفلكية والعلوم الاخري ؟ ..

اللهم لا .. فهل يمكن أن يكون ذلك من صنع بشر ؟ .. اللهم لا . وان سلمنا بأنه من صنع بشر أو لا يكون هذا البشر هو أعظم الخليقة طرا وأسماها مقاما ؟ فوجب علينا أن نصدقه في كل ما يقول وان ننزل عند أوامره و نواهيه ، وأن نتعلم ما يعلمنا اياه .. ونرى ما يرينا اياه .. الحق ان ذلك هو الحق الذي لا امراء فيه ..

محمد رسول الله

ان عظمة سيدنا محمد تجعله فوق مستوي البشرية بلا مراء . فهذا تاريخ البشرية جمعاء لا يوجد فيه رجل واحد نبيا كان أو رسولا أو عبقريا أو صنديدا قد أثر على الانسانية بكل هذا ووضع لها هذه القواعد الخالدة التي شيدت أعظم دولة عرفها التاريخ من القدم .

وهي بعد ما زالت عاملة في نفوس ربعمائة مليون مسلم يعملون اناء الليل واطراف النهار للنهوض من كبوتهم واعادة مجد الاسلام ونشر لوائه على العالمين من جديد

وقد تقول ان المسيحية لها من الاتباع ما يربو على المسلمين ولكنك قد فهمت من غير شك في هذه العجالة السابقة كيف ان مبادىء المسيحية لم تعد قادرة على مسايرة الزمن الحديث فأصبحت التشريعات تخرج عليها و تعدل أحكامها . وهي بتعديلها وخروجها على المسيحية انما تقترب من قواعد الاسلام

فالتاريخ بأسره ليس فيه انسان قد بلغ من العظمة والتأثير على البشرية مقدار ما وصل اليه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

اذن فقد وجب على العالم كله أن يجلس منه مجلس التلميذ يتلقن على يديه تعاليم الاسلام واسرار الكون ووحدانية الله . لان هذا العظيم البالغ منتهى العظمة لا يمكن الا أن يكون صادقا في كل ما يقول .. ولا يجوز عليه الكذب باى حال من الأحوال لان الكذب منقصة وذميمة والعقل لا يتصور أن يتصف هذا الكمال الانساني الذى يتلخص في سيدنا محمد ، بهذه النقيصة التي تعيب الانسان العادي فما بالك بالانسان الكامل .. فسيد الخلق صادق من غير شك فاذا قال لنا انه رسول الله فقد صدق واذا قال لنا ان الله يوحي اليه فهو صادق . واذ يقول لنا ان القرآن هو من عند الله فهو صادق .. وهو اذ يحدثنا بالمغيبات فهو صادق وهو اذ يصور لنا الجنة والنار فهو صادق وهو اذ يفرض علينا تعاليم الدين باعتبارها اوامر الله فهو صادق .. هو صادق في كل ما يقول وما يفعل .. ولا يوجد في البشرية بأسرها من يستطيع أن يرفع رأسه ليناقش أو يجادل او يماري فما كان لعقل أن يرقي الي عقل سيدنا محمد وما كان لحكمة أو نفس أن ترقى الي حكمة سيدنا محمد أو نفس سيدنا محمد فعندما يقول سيدنا محمد انه رسول الله حقا وصدقا فقد وجب على

البشرية بأسرها خصوصا في هذه الايام ـ بعد الف وثلثمائة عام من بعثه ـ أن تؤمن بهذه الرسالة والنبوة التي أعلن صاحبها أنها ستكون خاتمة الرسالات والنبوات فصدق في هذه الدعوة .. صدقه في كل ماقاله أو فعله ..

فالبشرية التي كانت تتوالى عليها الرسالات كل عدة قرون وأنبياء بني اسرائيل الذين كانوا سلسلة متصلة الحلقات .. كل هؤلاء قد وقفوا عند حد رسول الله خاتم النبيين والصديقين .. فوالله لقد صدق رسول الله .. وتحدي البشرية أن لا نبي بعده أو رسول بعده فانتصر، لان الله يريد النصر ليعز كلمته ولينشر لواءه على العالمين وليقطع دابر الكافرين.

وهكذا آمنت برسالة سيدنا محمد بوحى من العقيدة والعقل والتفكير وهتفت من الاعماق أشهد أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله .. وركعت وسجدت لله خاشعا كما علمنا سيدنا محمد وناديت سبحانك يارب لا علم لنا الا ما علمتنا ولا هدي الا ما هديتنا اليه ولا نعمة الا ما اسبغتها علينا .

فسيدنا محمد هو رسول الله بعثه الله ليكون بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة وليدعو للتي هي أقوم وليبين الرشد من الغى .. وليعرف الناس بربهم وليقود المفلحين منهم الى منازلهم في الجنة .

جهاد الرسول ومعجزاته

وسيدنا محمد وهذه رسالته في الحياة ، هو حبيب الله وصفيه .. وهو خليله ونبيه ومع ذلك فأي عذاب هذا الذى كابده .. وأى مشاق تلك التي عاناها .. وأى اخطار تلك التي عرض لها في سبيل تبليغ الرسالة

وان الانسان لا يمالك نفسه من الوقوف مشدوها ازاء هذه الآلام المادية التي حلت بسيدنا محمد ولا يمالك نفسه من القول سبحانك يارب جلت قدرتك وتنزهت حكمتك .. فلقد كان بمكنتك أن تجعل الدنيا مسلمة في طرفة عين بل أقصر .. فبحسبك أن تأمر فتطاع ولكن لو تم ذلك لما تميز الخبيث من الطيب ولما تحققت سنتك التي اردتها للكون ولعبيدك الصالحين وهي أن يمتازوا فيما بينهم بالجهاد والصبر والثبات والتعفف كيما تنزلهم بعد ذلك منازلهم وتؤاخذ المذنب بما فعل واستعبد نفسه للشيطان وتجزي المحسن قدر احسانه واتباعه ما أمرت وانتهائه عما نهيت

ولقد أراد الله ان يكون حبيبه ورسوله خير قدوة للناس .. كيف يجاهدون وكيف يصبرون وكيف يكابدون فلا يتراجعون .. وليكون هو وأصحابه في جهادهم وبلائهم اسوة لمن يجيئون بعدهم .. وليكون في ذلك معجزة أية معجزة تخلد على كر الدهور والايام ..

لو أن مهمة سيدنا محمد كانت سهلة في تبليغ رسالته .. اذن لفقدت هذه الرسالة معجزتها الكبرى وهو انتصارها على كل ما وضع في طريقها من عقبات

لو أن محمدا قال فصدق الناس اذن لما ارتفع الاسلام وعاش حتى اليوم وخلد الي الابد لان كفاح الناس لسيدنا محمد هو برهان صدق ومحك رسالته وخروجه منتصرا على حربهم وكيدهم ، هو دليل تأييد الله له. فقد كان سيدنا محمد أصغر بني قومه وكان فقيرا فقاموا عليه جميعا قومة رجل واحد وانك لتعجب كيف أنهم لم يقتلوه على كثرة ما دبروا له من مؤامرات وما أحاطوه من فتن

وانك لتعجب كيف أن شعبا كان في هذه الحالة من الهمجية، قد وقف

عاجزا أمام سيدنا محمد فلم يقدر على تحطيم هذا الجسد الصغير النحيل مع رغبتهم القوية وعزمهم على ذلك . وانك لتعجب ايضا كيف كان سيدنا محمد يروح ويجيء ويدخل الى الحرم وسط خصوم وأعداء يتمنى كل واحد منهم له الموت وليس من يحاسب وليس من يخشى الله وليس من يرعى للحياة حرمة . ومع ذلك فقد عاش سيدنا محمد حتى تغلب على كل هؤلاء وانتصر علي كل هؤلاء وأعز كلمة الاسلام . لا تستطيع أن تفسر هذه الظاهرة الا اذا آمنت بأن سيد الخلق هو رسول الله حقا وصدقا . وأن الله ساعة أن قال له « والله يعصمك من الناس » كان وفيا بعهده ومن أوفي من الله عهداً . فحماه ورعاه حتى قام برسالته .

كافح سيدنا محمد في سبيل تأدية الرسالة ثلاثة وعشرين عاما فقد بعث وهو في الاربعين وتوفي وهو في الثالثة والستين فمدة كفاحه ثلاثة وعشرين سنه أمضي ثلاثه عشر عاما منها وهو في مكة شريدا طريدا لا ناصر له ولا معين الا الله أما شراذم المسلمين فقد اضطرت أن تنجو بحياتها فرحلت الى الحبشة وبارحت مكة هربا بدينها وعقيدتها . عاش سيدنا محمد في مكة وحيدا الا من ايمانه . يرى في كل يوم ايذاء قومه . فما وهن ولا أصاب عزمه الكلل أو الملال . وهذا وحده دليل رسالته وصلته بالله . فان أى انسان عادى لا بد وان يتسرب اليه ، أى انسان فيه ضعف البشرية ما كان يستطيع أن يقاوم ذلك كله طويلا . خصوصا وقد عرض أن يكون سيدا عليهم . عرض عليه قومه أن يعطوه من مالهم حتى يصير اغناهم وارقاهم . عرض عليه قومه أن ينزلوا له عن بناتهم يختار منهن من يشاء . وعن بيوتهم يختار منها ما يريد . وأخيرا عرضوا عليه أن يكون ملكا عليهم يسير بهم الي المجد الذى يشتهيه وأن يصبح الكل له من الخدم

والعبيد. وذلك كله في مقابل أن ينزل عن دعوته بوحدانية الله فأبي وآثر أن يعيش مهددا في كل لحظة فقيرا معدما الأمن ايمانه بربه ووحيه والهامه ووالله لو لم يكن على صلة بربه وبوحيه لما قاوم كل هذه الاعاصير والزوابع ولما زاد عليها بعد ذلك بقليل . هذه الرسالات التي بعث بها الي ملوك الارض طرا يدعوهم الى الايمان بالله وبرسالته في كلمات قلائل فيها نصاعة الحق وقوة اليقين . فتخيل هذا العربي فى بلاد العرب التي لا حول لها ولا طول ولا كيان بين الامم وهو يرسل هذه الرسائل لملوك الارض طرا وليس فيهم من لا يستطيع أن يدهم العرب بخيله ورجله ويقطع رؤوس ابنائها جميعا جزاء لهم أن أخرجوا من بين صفوفهم من يجرأ على الوقوف منهم هذا الموقف ، فيدعوهم فيه للنزول عند دعوته ودينه . ومن عجب .. لا .. ليس عجيبا ولكنه برهان صدق رسول الله أن هؤلاء الملوك يتلقون كتابه بالتكريم والاعظام . ويخشعون لمرأى رسله وتلاوة آياته فيبعثون اليه الردود الرقيقة ويشفعونها بالهدايا والخيرات الا ملك واحد اجترأ على أن يمزق خطاب سيد المرسلين وقد كان ذلك هو كسرى الفرس فما كان من سيد الخلق الا أن قال (مزق الله ملكه) وقد كان : فقد تمزق ملكه وكان ممزقوه هم هؤلاء الذين سمعوا سيدنا محمد يقول هذه الكلمات.

أشهد أن محمدا رسول الله .. أشهد أن محمدا رسول الله ..

حياة الرسول مدرسة العالم

ثلاثة عشر عاما هى التي قضاها في مكة ثم هاجر منها وليس معه الا رفيق واحد هو الصديق . حتي اذا بلغ يثرب شرع يؤسس دولة الاسلام التي حكمت العالمين فى الماضي . وستضيء عليه فى المستقبل

ولقد أمضى بالمدينة عشر سنوات تدفق فيها هذا التشريع الكامل الجامع والذى عرضت عليك لمحة منه فيما سبق . وما زال في النفس ايات من هذا التشريع . أرغب في عرضها عليك ، لولا أن المقام لا يسعفنى والكتاب يضيق بى . ولكنى أرجوك أن لا تنسى الى جوار ما حدثتك عنه من مبادىء أن الاسلام قد دعا الي الشوري والتشاور فوضع نظام الحكم الديمقراطي والبرلمانات فيما وضع من نظم

وفي المدينة قام سيدنا محمد بغزوات وبعث بسرايا . وعقد محالفات وابرم معاهدات . وصادق وعادي . وهاجم ودافع . واقتص وسامح . واشتد ولان . وغضب ثم ابتسم . وفي المدينة تزوج وتعددت زوجاته وفى كلمة لقد عاش سيدنا محمد حياة كاملة ولم يقبضه الله الا بعد أن شرع بأقواله وأعماله في كل ناحية من نواحي الحياة وكل ضرب من ضروب الفقه والتشريع والسياسة والحرب والعلم والاخلاق . فحياة الرسول هى المدرسة الكاملة للبشرية جمعاء وهذه هى المدرسة التى تتلقى فيها مصر الفتاة الدروس في كل يوم بل في كل ساعة . .

وطالما يسألني الغرباء الذين يقابلوننى لاول مرة . من . من العظماء قد أثر عليك وأيهم يستهويك . . ومن الذى جعلته نبراسك وأمامك . أهو هتلر أم موسولينى أم غاندى أم مصطفى كمال . . ولقد فات هؤلاء السائلون انى مسلم أشهد أن محمدا رسول الله . . وأن من عرف سيدنا محمد حق المعرفة أغناه عن البشر جميعا . . وأن مدرسة الرسول هي مدرسة المجاهدين في كل زمان ومكان . . فهو قد دعانا للتشبه به والنسج على منواله . . والله يقول لنا « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » وسيدنا محمد يدعونا للاقتداء بأصحابه . . فمحمد ومن معه قبلتنا وهم نشدتنا . .

فاذا حزبنا الامر هرعنا الى السيرة نتعلم منها مايهدينا الي حل المشكلات واذا أردنا التذرع بالصبر والثبات .. استوحينا ذلك من سيرته وسيرة الاصحاب .

فسيرة رسول الله قبلتنا .. وسيرة من معه قدوتنا ونحن واصلون بفضل تلك الهداية الي الذروة باذن الله . الله مولانا ومحمد امامناوقائدنا والاسلام عدتنا .. ونحن في ذلك نقول مانؤمن به .. فهل لنا الا النصر ان شاء الله.

مصر الفتاة والاسلام

وهذه هي مصر الفتاة .. تريد بعث الاسلام من جديد .. ايمانا منا بأن هذا البعث فيه خير لمصر وللمصريين .. وفيه سعادة للعالم ونجاة . وهذا هو جهادنا .. وماتلك الصور التى يعرضها عليك أخي وصديق روحي المجاهد عبد الحميد الشهدي إلا هذه المدرسه التى تخرجنامنها والتى نريدك بدورك أن تتخرج منها كذلك .. فنور الاسلام الصحيح يجب أن ينفذ الي كل قلب كما نفذ الي قلوبنا .. وليكن ايماننا بالاسلام بعد اليوم ايمانا مجددا يدفعنا من جديد الي تحقيقه ونشر لوائه . . ولترجع روح الرسول لتسيطر على عصرنا الحاضر ولنستمد منها الالهام والمعونة ولننظر الى أنفسنا من جديد كأتباع يتلقون دعوة الاسلام في فطرتها فنصل الي ماوصل اليه السلف الصالح عندما فتحوا الدنيا وسادوها بالحق واليقين . .

لم نسجل على أنفسنا أننا في عصر لانستطيع أن نكون فيه مسلمين مجاهدين .. ولم ، لانتطلع دائما الي صدر الاسلام ونحتذيه . . والا فلو

قلنا ان الاسلام لن يزدهر ولم يزدهر إلا في صدره لحكمنا على الاسلام بالافلاس .. وحاشا لله أن يكون الاسلام كذلك فهو في تجدد دائم وشباب دائم وخلود دائم .. الاسلام دين عام خالد مبعوث لكل الناس ولكل العصور ولجميع الممالك .. فطوبي لهذا الشعب الذي يتلقى رسالته فينهض بها ويعتنقها كاعتناق المسلمين الاولين . وسحقا لهذا الشعب .. الذى يفرض في نفسه العجز والذلة والضعف فيقعد عن الايمان برسالة الاسلام حق الايمان والجهاد في سبيل الاسلام حق الجهاد .

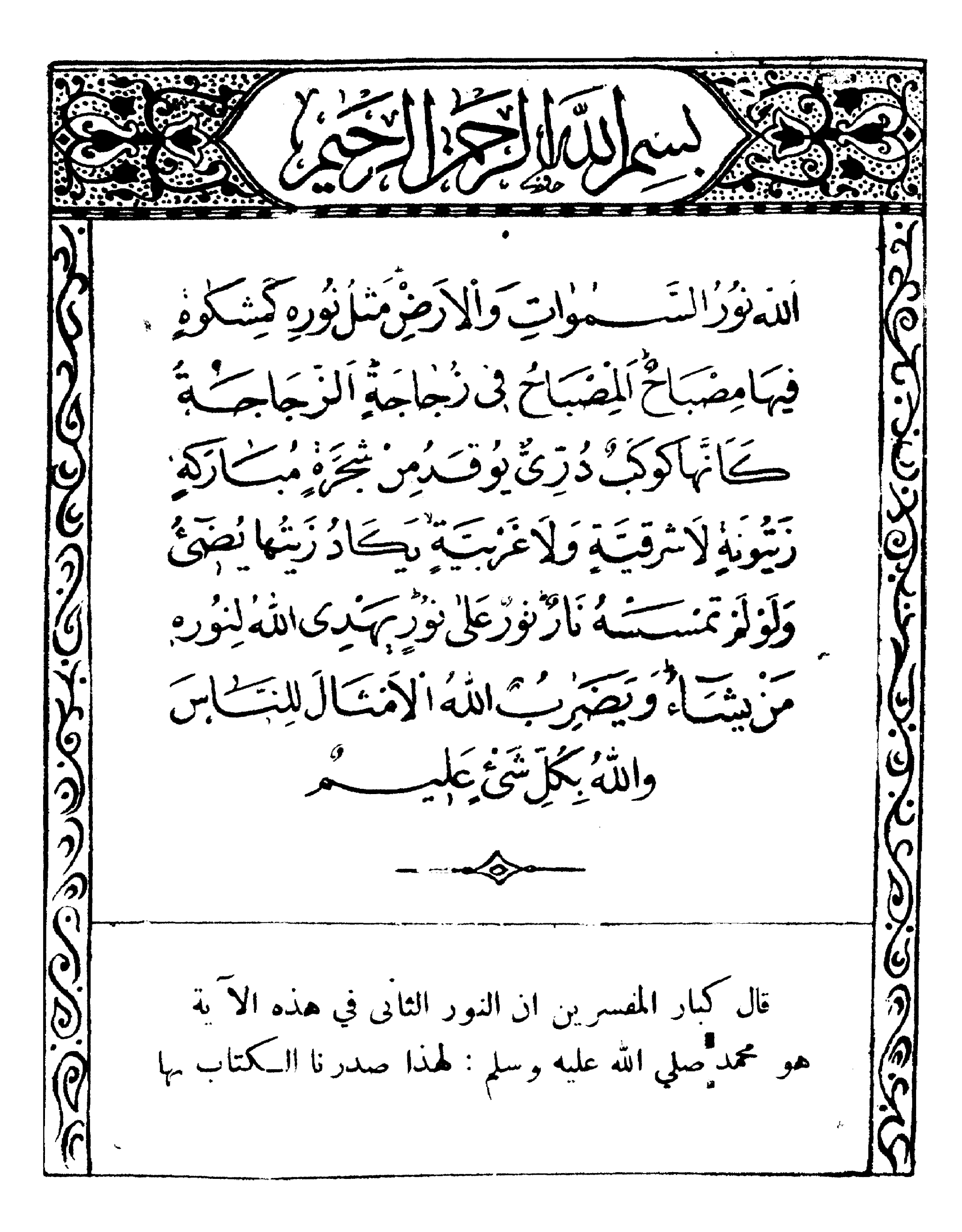
نداء

الي المسلمين اذن في أنحاء الدنيا نقدم هذه الصور من حياة رسول الله ليعلموا كم قاسى وكم جاهد وكم صبر والذين معه حتي انتصر .. ولم يكن ذلك خاصا بالرسول والا فلو تخصص هذا الجهاد به لما كان أغنى الله عنه . ولكن اختار الله جهاد الرسول ليكون قدوة للمسلمين على مر العصور والايام . .

فهلموا من رقادكم أيها المسلمون القاعدون .. هلموا من سقطتكم أيها المسلمون المتعثرون . . هبوا من أحلامكم أيها المسلمون النائمون ..

لم يغلبنا الغرب ولكن غلبتنا أنفسنا ورب الكعبة بتغلب شهواتنا علينا .. لم يتحكم فينا عدو أو مستعمر ولكن حكمناه في أنفسنا لكثرة مافرطنا من أمر ديننا وعقيدتنا

لم تصبح مصر والشام والعراق وتونس وطرابلس والجزائر والمغرب الاقصى حقولا للاستعمار والذل. الا لأن ابناءها قد خانوها وتهاونوا في أمرها و تقلبوا علي أنفسهم أعداء . .



بسم الله الرحمن الرحيم

اللّٰهُ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰوةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلٰى نُورٍ يَهْدِى اللّٰهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

قال كبار المفسرين ان النور الثانى في هذه الآية هو محمد صلي الله عليه وسلم : لهذا صدرنا الكتاب بها

*

٦٢٩



يقع تحت هذا العنوان ما رواه المؤرخون علي لسان الاحبار والرهبان والكهنة عن رسول الله قبل ولادته وما حدث بسبب ذلك من المعلومات الدالة على نبوته وعظمته حتي خرج فى رحلته الاولى الى الشام وتتحدث هذه الصورة عن اخبار كعب بن لؤي جد النبي السابع بقرب ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم

ووقف الكهول يرقبون الافق بعين الاسى والضراعة . والقى الرعاة هراواتهم يأسا من السعي خلف الاعشاب دون جدوى وتناثرت بعض السائمة تدرج في بطء واعياء علها تجد ما يعوضها من فضلات الطعام وانبطح بعض آخر على الارض يجتر ماعساه يكون قد بقي في الامعاء . وزحف اليأس الى قلوب الامهات خوفا على ابنائهن لنضوب اللبن وقلة الزاد وراح الشيوخ يستسقون الآلهة ويسترلمون الكهان كلما ضاقت حلقات الحياة واستشري شرها . وأخذ الشبان يروحون ويغدون كالسجين يسري عن ضيقه بالتمشي ذهبة وجيأة، والكل في النهاية لا تحيد وجوههم عن محراب السماء . ينشدون الخير ويرقبون أقصى الافق ... تداعبهم الطبيعة فتحجب عنهم عين الشمس . فيحيي في صدرهم ميت الامل في نزول الغيث . ثم تزجي نحوهم طلائع السحاب . فيشهقون في فرح . ويشع في وجههم السرور ثم يخايلهم عارض معتكر . فيتمتم الشيوخ بالحمد . وتطير الصبيان من الجذل . ويحاول النساء كتمان الغبطة . فلا يستطعن ذلك فيترجمنه احتضانا للرواضع وتقبيلا لهم ولثما ..

ثم مرت السحب تحت سماء مكة وفوق رءوس اهلها مرور البخيل الكاند ، والشحيح المعتم فاكتست وجوه الجميع بسواد الالم وانقبضت جباههم وتجعدت بالاسي . وانكمشت شفاههم عن بسمة لم تكد تتمتع بضوء الحياة حتى فارقتها ذابلة مصفرة .

فعدا هذا الي كاهنه . وذاك الى ساحره . وثالث الى ضحية يسفك

دمها للآلهة . ورابع الى الوقوف بين يدى (هبل (١)) ضارعا متوسلا أن ينزل عليهم المـاء فقد هلك الزرع وجف الضرع وماتت الاعشاب والمروج .

مر كعب بن لؤي بهذا الشتيت من البشر لا تجمعه عقيدة صحيحة ولا تربطه شريعة سليمة .. وان الفت قسوة الطبيعة بينهم . وربطت شدتها بين قلوبهم وأفئدتهم . فصعد فوق الصفا ونادى .

يامعشر قريش ..

فاستفاق الكل على صوت قوي مؤمن . يبعث الرجاء ويحيي دارس الامل. ثم يمموا صوبه يجرون اقدامهم جرا . ويسعون نحوه في ضيق وقنوط . فأخذ يدعوهم الى الله ويعظهم كعادته في كل يوم جمعة (٢) ويستسقى بهم ويبشرهم بالنبي محمد ويقول من خطبة له :

أما بعد فاسمعوا وتعلموا .. وافهمو واعلموا .. ليل ساج . ونهار ضاح . والارض مهاد . والسماء بناء والجبال أوتاد . والنجوم أعلام ــ الى أن قال ــ الدار أمامكم . والظن غير ما تقولون .. حرمكم زينوه وعظموه . فسيأتي له نبأ عظيم . وسيخرج منه نبي كريم ، ثم أنشد يقول

نهار وليل كل يوم بحادث سواء علينا ليلها ونهارها

منونان بالاحداث حين تناديا وبالنعم الضافي علينا ستورها

على غفلة يأتي النبى محمد فيخبر اخبارا صدوقا خبيرها

فبعثت خطبة كعب ماء الحياة الي هذه الاشباح اليائسة . وأمدت نفوسهم بالامل الرخى.وأنستهم أخبار النبي العربى وبشاراته، ماهم فيه من

---

(١) كبير الاصنام بمكة

(٢) يقال انه اول من جمع الناس في يوم الجمعة وأول من سماها بهذا الاسم

هم وكمد . وما لبثوا بعد ذلك قليلا حتى سحت السماء عليهم مدرارا فقامت الافراح ومشى السرور الى كل منزل وناد ، وذهبت هذه الابيات أنشودة على الشفاه . واهزوجة الذكرى العاطرة باعراف النبي المنتظر ، الشادية بذكرى غمام هذا اليوم وأمطاره الفياضة بالخير العميم بعد الجدب والامحال .

— ٢ —

واحتشد الجميع شيوخا وشبانا خارج مكة في شاطئين مستطيلين من البشر يتنابذون بالالقاب . ويتفاخرون بالانساب . وينتظرون رؤية الجواد المحجل والفارس المغوار ، ويتمنى كل قبيل ويعد من حوله أن سيكون الظافر منهم . فيكال هام قومه بتاج الفخر . ويلبس قبيلته وشاح النصر . . ثم جاس الميدان شاب فاره الجسم ناهد الشباب ايذانا بقرب ابتداء المباراة . فراحت ترمقه النظارة بعيون الاعجاب . ويشير اليه بنو قبيلته بيد الزهو والخيلاء . . ثم مال أحدهم على زميله وقال هذا حكيم بن مرة أنهد فتى في خزاعة . وقد جيء به اليوم حكما لهذه الحلبة ... وما كاد يصل الى نهايتها . حتى أشار الى الفارسين المتاهبين في الطرف المقابل بابتداء الشوط . فابتدأ الجوادان من نقطة واحدة وشالت نعامتهما من مكان واحد فتراءا عن قرب نسرين خاطفين وعن بعد فراشتين سابحتين في سحب من التراب لا ترى منهما الا طيفين طائرين في الفضاء تحملهما عيون الحاضرين . وتحف بهما قلوبهم . وان تمنى كل فريق لصاحبه النصر . ولمنافسه الهزيمة والاخفاق

دارت الحلبة دورتها . وتسابق الفرسان شوطا إثر شوط حتى تمخضت

---

(٢) تتحدث هذه الصورة عن اخبار الكاهنة (جراش) بقرب ظهور رسول الله

عن فارسين مجليين من بنى بكر و تيم . وبفوز أحدهما على الآخر تنتهي دورة السبق بالنصر والفخر لقبيلته . واذ ذاك ارهفت الحواس وحبست الانفاس . وسكنت الحلبة على احتشادها حتى كنت تسمع دقات القلوب التي في الصدور .

ابتدأ الفارسان متعادلين ثم بدأت (البكرية) تغادر زميلتها رويدا رويدا . كأن يد القدر قد ارخت عنان الفوز للاولى في تؤدة . واخذت تقبضه عن الثانية ، ثم امعنت (البكرية) في سبقها وامعنت (التميمية) في التأخر ثم زاد التقدم . وزاد التأخر ثم قاربت (البكرية) الهدف وزميلتها لاتزال تتعثر في النصف الاخير من الشوط . ثم دخلت (البكرية) الهدف وجاوزته قبل زميلتها فانطلق بنو بكر انطلاق الرعود العاصفة . يهتفون لفارسهم .. مرحى .. مرحى .. (١)

بينما تفصدت جباه بنى تميم خجلا . واستعرت صدورهم غيظا وحقدا . وكأنما أراد القدر الساخر أن يمنح بنو تميم قسطا من الفرح المؤقت والنصر المزيف . فاعتدى الفارس التميمى على صاحبه بضربة قاضية ظنها ساترة من هزيمته . مشفية من صدره . فخاص التميميون حيصة ثائرة . وهتفوا لصاحبهم بدورهم . مرحي . مرحي . فغضب بنو بكر لهذا الاعتداء المنكر وثاروا . وتألبوا وفاروا . وكادت تدور رحى معركة دامية تطيح برءوس الكثيرين من القبيلين . لولا تداخل سفيان بن مجاشع التميمى الدارمي . يعلن استعداده لتقديم الترضية ودفع الدية حقنا للدماء وحسما للنزاع

* * *

---

(١) كلمة اعجاب : ترادف في المعني كلمة برافو .. برافو الافرنكية

وخرج سفيان عند الضحي للقاء حي من تيم للتفاهم معهم على طريقة دفع الدية فالفاهم في دار (جراشع) الكاهنة يجلسون منها مجلس التلاميذ من استاذهم. تتكلم في اعتزاز وتتحدث في ثقة . والكل قد منحها سمعه ووعيه . وكف عنها شكوكه واغضي عينه . لا تجيب الا اذا سئلت . ولا تتعجل اذا اجابت وقد ترجيء الاجابة في أكثر ما تسأل فيه حتى يأتيها قرينها الجني يسترق السمع من احاديث سكان السماء. فأعجب سفيان حديثها. وراعه ائتنا دهاؤها وراقه أخبارها . فجلس اليها واستمع منها وهي تقول

(العزيز من والاه . والذليل من خالاه . والموفور من والاه . والموثور من عالاه)

سفيان — من تذكرين لله ابوك . .

جراشع — صاحب هدى وعلم . وبطش وحلم . وحرب وسلم . ورأس رءوس . ورابض شموس . وماجن بوس . وماهد زعوس . وناعس ومنعوس

سفيان — لله ابوك من هو ؟

جراشع — بني مؤيد . قد أنى حين يوجد . ودنا أوان يولد . يبعث الي الاحمر والاسود . بكتاب لا يفند . اسمه محمد

سفيان — لله ابوك — اعربي هو ام عجمي ؟

جراشع — والسماء ذات العنان . والشجر ذات الافنان . انه لمن معد بن عدنان

* * *

خرج سفيان الى ناديه عند الكعبة معتم النفس ضيق الصدر لا يقرىء أحدا تحية . ولا يرد الى نديمه جوابه . وجلساؤه حوله ينظر بعضهم الي بعض في تساؤل ودهشة . ولكنهم لا يجدون المجيب

رفع سفيان رأسه من اطراقته وشخص ببصره صوب الكعبة كأنه يستنجد بالآلهة ويدعوها الي تفريج همه . والتنفيس عن صدره . واذا بعبده (هرر) يعدو في جذل ويثب في سرور . فأدرك ما جاء لاجله فشهق سفيان شهقة النجاة . وشاع فيه سرور ساذج وبادر عبده بالسؤال عن جنس المولود . فقال له (هرر) في جنون الفرح : انه وحقك ذكر . فسجد سفيان في مكانه شكرا لنجاة زوجه وارتزاقه بولد ذكر ثم صاح :

ـ لأسمينه محمدا ياهرر ، عسى يكنه النبي المنتظر ، الذى تحدثت عن ظهوره كاهنة بني مضر

— ٣ —

وطال بهم المقام في ظلمتين من يأس وليل . وأمست منازل اليهود ودور صناعتهم علي بعد خطوات منهم كجيش من الاشباح المخيفة . أوصفوف من مردة الشياطين . لفها السكون بانقاع الظلام يرمونها بشرر الكراهية وينفثونها بزفرات الحقد . يملكون ناصية الثروة في «المدينة» فيعرضون أقمشتهم بسعر موحد . ويقرضون أموالهم بالربا الفاحش . ويشدون علي وحدتهم برباط التعاون والتضامن والاخاء . بما لا يدع لسواهم منفذا الى صفوفهم أو لقمة على موائدهم . أو منتفعا بين أيديهم . . ثم عادوا يستذكرون أولادهم وما هم عليه من نحول وضعف وعرى . وما ينتظرهم من ظلمة المستقبل وسوء المصير نتيجة لسياسة هؤلاء اليهود . وأساليبهم الاقتصادية في مضايقة من يجاورهم من الجنسيات الاخرى .. فضاقت أمامهم حلقة الفضاء . واضطرب بهم اتزان الارض . واستحال اهابهم الى مرجل يغلى بهم في دماء من الغيظ

---

(٣) تتحدث هذه الصورة عن بعض ما ذكره أحبار اليهود عن قرب ظهور رسول الله

ثم تنفس عمير بن وائل وقال :

لم يبق هناك من الوسائل في مكافحة هؤلاء اليهود الا الالتجاء الى (تبع اليمن (١) ابي كريب) . فما نحن الا أغصان من دوحته . وأفنان من أصرته (٢) ولا اخاله إلا كميا منجدا . وغياثا كريما . يحمي البيضة . ويرعى الذمار ، والا هلكنا وهلكت بين أيدينا الذراري الصغار

كعب بن فهر – ولماذا لا نعتمد على سواعدنا في مكافحتهم بمثل طرائقهم . فلنتضامن كما هم متضامنون . ولنتعاون كما هم متعاونون . ولنصم عن سلعهم التي منها يثرون وبها يمتارون . ولنستعض عنها سلع اليمن وبضاعة الشام . حتى إذا كسدت سوقهم . وبارت تجارتهم بادلونا خيرا بخير واحسانا باحسان

عمير – وانى لشتيت الأوس . وجماعات الخزرج مبعثرة هنا وهناك أن تجتمع علي قلب رجل واحد حتى تستطيع أن تؤدب اليهود وتحد من جشعهم . على أن اليهود يعرضون سلعهم بأثمان زهيدة لا تقف أمامها سلع اليمن والشام . والشراة أفقر من أن يحتملوا فرق الزيادة . بل هم كلفون دائما بالثمن الزهيد .

كعب – لعل جودة البضائع اليمنية والشاميه هي التي أغلتها . ورداءة اليهودية هي التي أرخصتها . فالشراة حينئذ لا يربحون شيئا حين يقبلون على بضائع اليهود

عمير – ليس الامر كما زعمت . فقد تكون بضائع اليهود أشد لحمة

---

(١) ملك اليمن

(٢) اصله

وأقوي سدي . ولكنه كراء (١) النقل من بلاد نائية الي (المدينة)هو الذى أغلا بضائع الشام واليمن

* * *

وقف اليهود فوق الربا والآكام ينظرون الى معسكر (تبع اليمن) تحت ضوء نيرانهم المتناثرة المترامية تتراقص أعناقها وتتلاهث ألسنتها . والحميريون والحضرميون (٢)حولها يصطلون بها وينضجون طعامهم وشرابهم عليها تارة .. ويشحذون سيوفهم لمعركة الصباح تارة أخرى . ويرتقون ثيابهم ويشدون مناطقهم ثالثة . وأقطار الابل من (الاوس والخزرج) تفد اليهم متتابعة متلاحقة تحمل الميرة والماء والذخيرة . . واليهود بين هذا كله مأخوذون بنوبة الذهول . تعبث أصابعهم بلحاهم المستطيلة وتسلكها طرائق في حركات لاشعورية . ثم ينظر بعضهم الي بعض . وعيونهم تتأرجح في محاجر الحيرة والرعب . مما يخبئه لهم القدر . بعد أن أيقنوا أنهم الهدف لهذه السهام . والطعام الاخير لهذه النيران

وما طلعت شمس الصباح حتى كان وفد من اليهود في ثيابهم المخططة ولحاهم المستطيلة وشعورهم المرسلة في طريقهم الي معسكر « تبع اليمن » وخلفهم بعض الابل تحمل اليه هدايا اليهود من أقمشة وتمر وزبد وأدم وراحوا يسيرون على قدمين من خوف ورجاء . لأنهم اما الي فناء عاجل ثمرة لغضب (تبع) عليهم من جراء سياستهم العنيدة الجشعة. واما الي شفاعة ترد هذا الجيش الزاحف دون أن يثأر منهم وينال من دمائهم وأموالهم ومنازلهم

---

(١) الاجر

(٢) نسبة لبنى حمير وحضرموت

وهناك أمام خيمة العاهل « تبع » وقف وفد اليهود ـ يضمون أطراف عباءاتهم ويربطون على قلوبهم بأيديهم لشدة ما هم فيه من فزع وهلع ـ ينتظرون الاذن لهم في الدخول عليه بين عاصفة اختلط فيها صهيل الخيل برغاء الابل وامتزجت فيها عبارات الترحيب بأهازيج التسرية . وأصوات الاستهزاء بصفير العداء . ونظرات الكراهيـة والتغامز . باشارات السخرية والتضاحك . وكلما اشتدت حوالهم هذه العاصفة نظروا خلفهم في سرعة خاطفة. ثم نظر بعضهم الي بعض نظرات الغيظ والقنوط من النجاة يرفعون أرجلا ويعتمدون أخرى كأنهم على بركان من الاضطراب واليأس . لا يخفف منه الا خيط من الامل ضئيل في مصالحة عاهل اليمن واسترضائه

ثم أذن لهم في الدخول عليه متكئا في عريشه يبض من مفرقيه بصيص المسك قد اضجع سيفه الملتوى علي فخذه التواء الافعوان . ووقف بين كتفيه شبان سمر الوجوه كالرماح قدا . والاسود مظهرا ، وجلس عن يمينه وشماله خاصته وحاشيته من القواد والرهبان .. وما كاد يراهم حتى تذكر ما روى له من خصالهم وأساليبهم القاسية في المعاملة والتجارة . فتفاعلت نفسه وغلت بالحنق عليهم وصاح فيهم :

— والله لأسوين الارض بكم . ولأخضبنها بدمائكم . ولاجعلن عالي منازلكم سافلها . ولأتركنكم مثلا للغابرين

ففزع الوفد من صوته . وارتعشت أيديهم لحدته . وطأطأوا رؤوسهم لغضبه حتى كأنهم ينتظرون سيف الجلاد في صبر واستسلام

ثم جمع الحبر (شريح) شجاعته وتقدم نحو العاهل خطوة وقال :

— حفظ الله الملك ، فانه أجل من أن يطريه فرقه . أو يستخفه غضبه

وأمره أعظم من أن يضيق حلمه ، أو يخرم صفحه . وهذه البلدة التي بيت لها ما بيت . مهاجر نبي عربي

أصوات من حاشية الملك في فرح – نبي عربي ؟ ؟ !

شريح – نعم عربي منكم يبعث بدين ابراهيم عليه السلام

رئيس الرهبان – زه (١)

فانشد شريح يقول :

شهدت على أحمـد انه نبي من الله بارى النسم
فلو مد عمري الي عمره لـكنت وزيرا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل غم
له أمة سميت في الزبور وأمته هي خـير الامم

ثم طأطأ شريح رأسه وأخـذ يغالب عبرة تجول في محاجره كادت تغلبه لولا أن بادره (تبع) بقوله وهل نشيجك هذا حنين الى هذا النبي أورعب من المستقبل الذي ينتظر أبناء جنسك من جراء مطامعهم ومضايقتهم لابناء عمومتنا من بنى الاوس والخزرج

شريح – لا . وحق الملك مانشيجى رعبا ولاخوفا . ولـكن لان في هدم يثرب – ان صح – هدم لما أعتقد في وجود هذا النبى العربي الـكريم الذى سيبعث رحمة للعالمين بها . ولقد أنشدت فيه ملحمة طويلة ضمنتها ماجاء من أوصافه في التوراة اذكر منها مايحضرني الآن لو شاء الملك ذلك

تبع – هات منها مايحضرك مادام هذا النبي عربيا

شريح – ويأتي بعدهم رجل عظيم نبى لايرخص في الحـرام
يسمي أحمد ياليت اني أعمر بعد مبعثه بعـام

---

(١) زدنا

ثم نشج بالبكاء وبكي معه رهبان تبع وجلساؤه . وأخـذ الملك ينظر اليهم في تأثر وحنين

ثم تقدم (شامول) ووقف في مكان شريح بعد أن تخلى عنه صاحبه وقال :

أيها الملك : ان هـذه البلدة مهاجر نبى من بنى اسماعيل مولده مكة واسمه أحمد وهذه دار هجرته وان منزلك الذي أنت به سيكون فيـه من القتلي من أصحابه وأعدائه أمر عظيم

تبع – ومن يقاتله وهو نبي

شامول – قومه – ينفسون عليه ويحقدون

تبع – وأين قبره

شامول – بهذه البلدة

تبع – واذا قوتل فلمن تـكون النصرة

شامول – تكون له مرة وعليه أخرى ثم تـكون العاقبة له وسيظهر حتى لاينازعه أحد

تبع – وماصفته

شامول – انه صاحب العمامة والهراوة . الجعد الرأس . الصلت الجبين بين كتفيه خاتم النبوة على شـكل بيضة الحمام نبت فيه شعرات وخيلان

ثم سكت وسكت كل من في المجلس . وطأطأ تبع رأسـه رضاء بتصاريف القدر . ثم مسح رئيس الرهبان دموعه وقال

أرجو أن يسمح لنا الملك في البقاء بهذه البلدة . فانا قد اعتزمنا أن لانبارحها حتى ندرك هذا النبي أو يدركه أبناؤنا بعدنا

فسكت تبع ثم قال

أتيح لـكم طيب الاقامـة ولـكل منكم ألف دينار وجارية. واذا ظهر

بينكم فاذكروني عنده . وابعثوا الي بشأنه حتى أوافيه وأغسل عن قدميه.

- ٤ -

في الساحة الكبرى التى تقع أمام منزل عبد المطلب بن هاشم .وقف حرب بن أمية عن قرب ينظر الى هذه السلسلة المترامية من الابل وافدة الى مكة بفواكه الشام وأقمشتها الجميلة . وقد أخذ حداتها (٥) تنيخها أمام منزل (أذينة) التاجر اليهودي المعروف . فأضحت في مباركها محملة بالبضائع. كأنها تلال منظمة أوظراب (٦) متصلة متتابعة ، لولا ارغاؤها وازبادها يملأ الجو صخبا وضجيجا يزيد فيها هتاف قائد الركب باصحابه شابا فاره الجسم عريض المنكبين حديد النظر . حاد العزيمة لا يهتف بأحد الا جاءه يسابق الرياح . ولا يأمر بأمر الا تم بأسرع من رجع الصوت

نعم وقف بن أمية ينظر الى اتساع سلطان هذا اليهودى والي ثروته الطائلة تغدو ما بين مكة والشام كالسحب المتلاحقة تحمل في تضاعيفها الماء وفي ثناياها الخير والعزة والرفاء ، ولم يكن بالامس الا ضيفا جاء الي مكة آبقا من المدينة يحمل زاد يومه . وكساء مخططا مرقوعا . يكاد أصله يختفى تحت رقاعه. فأضحي اليوم يجاور مسكنه مسكن عبد المطلب سيد بني هاشم وحاكم مكة . وأضحت له كل هذه الثروة . وهذا الصيت البعيد . حتى أزال جاهه الحواجز الجنسية . ودكت وجاهته الفوارق التقليدية . ولم يكن بينه وبين الدخول الى لحمة المصاهرة مع أشراف العرب الا حوائل الدين الذى اشتهر اليهود بالتعصب لها . كما اشتهر العرب بالعناد فيها .

---

(٤) هذه الصورة تحدث عن بعض امجاد عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٥) جمع حاد وهو الذي يغني للابل فى السفر فيخفف عنها متاعب السير

(٦) جمع ظرب وهو الجبل الصغير

فكيف يتثنى لمثل هذا اليهودي كل هذا الجاه بينما تعب الكثيرون دون الوصول اليه ؟ وكيف تأتت له كل هذه الثروة بينما قصر نشاط أكثر الشباب في قريش دونها . وهي ليست في الواقع . الا قطرات جمعها من العرب . ووجبات من ثروة قريش قد ضم بعضها الي بعض حتي كان نهر ثروته المتلاطم . في بلد ظامىء الي قطرة منه محروم من التطلع اليه

هذا ما كان يجول بخاطر حرب بن أمية وهو واقف يرمق هذه القطارات من الابل المحملة بعين تتقد غيظا . وصدر يلتهب حسداً وحقداً وكلما حاول الانصراف من مكانه اراحة لنفسه استدعاه الفضول الى الوقوف ليتبين أصناف البضائع ويعد قطارات الابل التي بلغت فوق الخمسة آلاف يروح بها الحداة خالية . ويعودون بمثلها محملة . فكان كالواقف حافيا فوق جسر من الشوك ، أو كمن تحته أرض ملساء قد شوت الشمس وجهها . يرفع رجلا ويخفض أخري

ثم استرعي نظره وقفة شاب باهر الطلعة . سامق العود . مشدوه الفكر . مبهور الانفاس . فظنه واحدا ممن يرون في اليهودى رأيه . ويحمل له مثل حسده وحقده . غير أنه لا يفلى البضاعة . ولا يتفحص الابل . ولا يجول بنظره في الركب . ولكنه منذ وقف، كالتمثال الشارد يعد كواكب السماء أو يتصفح وجه الأفق . تحتبس في عينه دمعة يدفعها الجوي الملتهب والوجد الدفين . ويمنعها عزم الرجولة . وحزم الحياء . ويتلون وجهه بين الفينة والاخري . بأصباغ الأمل المعسول وألوان الذعر من شبح الصد والهجران دون أن يدرك لهذا كله تعليل أو يفهم له شرح وتفسير الا أن يكون الشاب يستشف أمله . وينشد سعادته . ويستوحي رجاءه من شرفة اليهودي . وماذا في هذه الشرفة الا أن تكون كريعته (راشيل) التى

تغنت بجمالها الركبان . وذهبت فتنتها بعقول الشبان . ثم دار حوله ونظر صوب بصره فاذا بالامر كما زعم . واذا بالشاب الواله (عبد شمس) يدرك منه سر دورانه حوله . فاطرق في اغضاء واصطبغ وجهه بحمرة الحياء . فاشفق (حرب) على مشاعره وانصرف باسما . ولعلها بسمة جاءت في الوقت المناسب تنفس عن غيظه وتبرد من حقده وحدته . ولكنها . ما كادت تجف على شفته حتى عاوده الغليان من جديد . وراح يفكر في طريق الحصول على هذه الثروة بأي ثمن . ولا ثمن لها الا رأس (أذينة) اليهودي وليس له من أخ ولا ولد يدافع عنه أو يطالب بدمه وقد يكون عبد شمس ذلك الشاب الوامق أول من يرحب بقتله ويساهم في سفك دمه حتى يستطيع أن يظفر بحبيبته وينعم معها بثروته

وفي كهف من كهوف جبل (أبي قبيس) بالقرب من مكة اجتمع عامر بن عبد مناف وصخر بن عمرو وعبد شمس بن عبدالعزى بدعوة من حرب بن أمية للتآمر على قتل (أذينة) اليهودي والبحث حول انجاح طرق التنفيذ . ثم ابتدرهم حرب بن أمية قائلا :

تعلمون أن (أذينة) هذا يهودى جشع وافي مكة فقيرا معدما . وأضحى فيها ثريا متخما . يتاجر بالغبن . ويساوم بالربا الفاحش وينافس تجارة بنى خويلد ويضع في طريق رواجها العقبات الجسام ويتداخل في شئون العرب لصلاته القوية بأشراف مكة . ويستعمل أبناء يعرب في تجارته خولا وعبيدا . فمن دمنا تجمعت هذه الثروة الطائلة . ومن جهدنا وعنائنا هذه التجارة الواسعة . ومن صباباتنا هذا البحر الخضم من مال وعتاد . وهو بعد لا يزال ينظر الينا في زراية . ويرمقنا في هزء وسخرية . ولا يرد كل هذا علينا الا أن نضع حدا لحياة هذا

الرجل فترتد بضاعتنا الينا . ويفيء المال الى أصحابه والمال الى نصابه

عامر — ليس هذا بالأمر العسير . ولكن يجب أن نقرأ في صفحة العواقب قليلا قبل أن نخطوا الخطوات الاخيرة

حرب — ماهذه العواقب ياأخاه . والرجل عجيزة دوحة لاأصل لها ولافرع . اللهم الا هذا الشاب الفاره (جداع) رئيس قوافله ورحي تجارته .. وماذا يصنع واحد !! مهما أوتى من قوة وبأس

صخر بن عمرو — لعلكم نسيتم (راشيلا) تلك التى لها من أهدابها أثر السنان . ومن لحاظها فعل السهام في نفوس بعض الشبان

فأطرق عبد شمس حياء واحمر وجهه خجلا . وعرق جبينه من وقع ماقيل وقد ظن انه موضع التعريض بما سمع . ولم يكن صخر في الواقع يعلم من علاقة عبد شمس براشيل شيئا . غير انه كان يعلم انها في مكان التنافس بين شبان مكة والطائف . وهدف قلوب تحترق لجمالها عشقا وتذوب جوى

حرب — انا لانجد كفأ لراشيل بين الشباب الا فتى واحدا لعله بيننا وانه لايجد طريقا للوصول اليها الا جثة أبيها العنيد الذى يريدها لابن عمه (جداع) لتظل ثروته في أهله بعد وفاته . وانه ليشاركنا الرأى ويقاسمنا الرغبة في القضاء على هذا الرجل . وسوف تسمعون رأيه بالموافقة الآن قبل أن ينفرط عقد الاجماع

عبد شمس ـ حسبكم منى أن أكون على وفاء لكم . دون أن أغمس يدى في دم الرجل

صخر ـ اننا لا نخشى (راشيلا) ولا « جداعا » ولكنا نخشى عبد المطلب بن هاشم وهو على وفاق مع الرجل تربطهما أواصر الجوار

ولحمة الصداقة والجاه والثراء . ومثل أبي طالب لا يفترع حماه ولا يهاجم كنفه . فكيف المصير لو كشف أمرنا واستغاث أهل الرجل به ؟

حرب ـ ها هو شهر رمضان قد وافانا ومن عادة عبدالمطلب أن يعتكف فيه بغار حراء يصوم فيه أياما ويدر منه على المعوزين والفقراء الكثير من طعامه وماله . فاذا ذهب اليه واعتكف فيه لا يعود الى داره حتى ينصرم حبل الشهر ، فليكن القضاء علي الرجل في شهر رمضان حتى اذا ما جفت دماء الجريمة وفر المتآمرون فانه لن تصل يد عبد المطلب إليهم بعد ذلك ..

* * *

جلست راشيل في جوف الليل يضيء وجهها تحت طيلسان الحداد ويزوى نورها بنور ذلك المصباح المترنح في زاوية المكان يحاكي أنفاسها المحترقة ويمثل عيونها المعتركة من آثار البكاء ويشبه نفسها الآسية وقد اعتمدت رأسها وراحت تفكر فيما عساه يصيبها من صروف وينتظرها من احداث بعد قتل أبيها وكراهتها لابن عمها الذى يريد زواجها ، وبينا هى جاثمة كالشبح الهاديء صافح أذنها حفيف ملابس وشهيق أنفاس تتردد في هجعة المنزل وسكون الليل فانتابتها رعدة قوة وعرتها هزات عنيفة ظنا منها ان قتلة أبيها جاءوا يطلبون دمها بدورها فحاولت أن تصيح لايقاظ من في المنزل ولكن رعدتها كانت بحيث لاتستطيع معها أن تفتح فمها كأنها في رؤيا كريهة أو حلم ثقيل لا تستطيع منه فرارا ولا تخلصا . لم تستفق منه الا على آثار يدين يحملان وجهها وعينين صوب عينها . ولم تكن هاتان اليدان الا يدي عبد شمس وقد كان قلبه يدور في صدره من روعة الشحوب الفاتن ويتبخر فؤاده نفثات ملتهبة تحت لؤلؤ العبرات الحزينة فلم

تقو يده طويلا على ما تحمل فتراخت به فهوت رأسها على صدره ودفنت بين ثيابه وتيبست أصابعها على منكبه وراحت تبكي و تنتحب، لا يدري عبد شمس أبخار الخوف المحتبس اساله برد الاطمئنان ؟ أم دموع الذكريات الاليمة لفراق الوالد الحنون. أم عبرات الجوى برح به طول الشوق وأضناه الانتظار أم شجون العجز عن نيل المنى وبلوغ الوطر تستثير بها عبد شمس وتحفزه للثأر والانتقام

فمسح عبد شمس على شعرها الذهبي يتألق في نورين من وجهها والمصباح ثم مسح على ساعدها الدقيق يمزق نوره سواد الحرير كضوء القمر خلف الغمام . وربت على كتفها وهو يهتز تحت يده لدفع الزفير وجذب الشهيق ثم أخذ يتحدث اليها وكأنما يحدث نفسه قائلا :

ـ أيظمأ الانسان وهو على ورد نمير ، أو يصيبه الحرور في ظل الخمائل؟ أو يشقى المحب في كنف الحبيب ... فردت عليه «راشيل» ووجها غارق في صدره العريض

ـ نعم هو ورد ولكنه معتكر ، وظلال وارفة ولكنها في مهب السموم ، وحبيب ولكنه لم يبرهن على وفائه لمحبوبته

وما كادت (راشيل) تلفظ آخر حرف مما قالت حتى كان وجهها ثانية بين يديه . وعيناها صوب عينيه . تتقدان حمية . وتتلظيان غيظا فأدركت (راشيل) في الحال حدة ألفاظها . وقرأت في عينيه مدى عباراتها وشاهدت في تفاعيل وجهه وقع كلماتها . فلم تر ما تدرأ به عن نفسها الا غزير دموعها التي راحت ترسلها لؤلؤاً رطبا ، فصاح بها عبد شمس بصوت هادىء أجش :

ـ ما الذي يجعل الورد معتكرا والظل مسموما :

راشيل ـ ذلك ما أنت أدرى به . وما تستطيع أن تجعله رحمة وبردا وسلاما ...

عبد شمس ـ وما فائدة كل هذا الحزن . وقد وقع المقدور . وجف الكتاب بما هو كائن ..

راشيل تنتفض كاللبؤة الغاضبة وتحملق في وجهه وتقول :

ـ جف الكتاب بما هو كائن ؟ ؟ ! . وكيف يجف ولم نعرف بعد قتلة أبى ؟؟! انه لم يجف بعد .. ولن يجف حتى نثأر له بل لن تكون يوما لي محبا وزوجا حتى تضع يدى على أعناق هؤلاء المجرمين

عبد شمس ـ وماذا تصنع يدك الدقيقة الناحلة على عنق ثلة من الجبابرة وأخذ يدها وراح ينظر اليها ويقلبها كأنه ينقد اللئالىء . ثم هوى عليها وقبل أطرافها .. فنضت يدها من يده بسرعة يمازجها الحياء المشوب بنزعة الجد ... ثم قالت له :

ـ دع عنك المزاح يا عبد شمس فان هذه الاظافر أحد من مخالب الاسد ..

فابتسم عبد شمس وقال :

ـ واين موضع المخالب من أعناق المعتدين ؟؟

راشيل ـ ذلك ما تعرفه أنت .. وأنت وحدك . فان لم تحدثنى عنهم كان هذا آخر لقاء .

فغاب عن الوجود في مكانه فترة كانت تتعارك زهاءها في خلده عاطفتان وتصيخ مشاعره الى ندائين عاصفين . الاول نداء الوفاء لعقله . والثانى نداء الوفاء لعاطفته . ثم ذكر عهده لجلسائه بالكتمان . وعهده لمحبوبته بالتضحية . ولكنه ذكر في النهاية أن بيت « أذنية » لا أحول له ولا

فروع . اللهم الا هذه الام العجوز والفتاة الناحلة وابن عمها الذي يزعم القوافل الى الشام والذى يراه منافسا له في (راشيل) ومن يستطيع من كل هؤلاء أن يمد أظافره الي عنق واحد من هؤلاء القتلة الذين يكونون مع أصولهم وفروعهم سلسلة بعيدة الاطراف من رجال أقوياء . وكماة بهاليل . فما يضرنى لو بحت لها بأسمائهم ؟ ثمنا زهيدا لبضاعة غالية رفيعة هى (راشيل) التى ملكت على منافذ الحياة . وأبواب الرفاء والهناءة

هذا ما كان يدور بخلد عبد شمس وهو واقف أمامها مطرق الرأس كالتمثال الحانى لمظهر من مظاهر الوجود الفاتنة ، الخاضع لأثر من آثار عظمة الله الرهيبة . بينما راحت (راشيل) تمعن في بكائها وتحيبها بعد أن رأت آثار دموعها وتحن نحيبها يرتفع مستواه . ويفعل في نفس حبيبها فعل السحر الذريع

ثم غالب عبد شمس نفسه الوفية وقال

وهل تظنين ياراشيل أن قاتلى أبوك من يهود أو من بنى يعرب

راشيل — من أبناء عمومتك بلا شك . ولولا ذلك ما ألحفت عليك

عبد شمس — وماذا يكون مصيرهم بعد أن تعرفيهم . وأنت تعلمين أنهم قد يكونون من دوحات كبيرة لا يثني لها عنان ولا ترد لها شكيمة

فسكتت راشيل كأنها تدبر شيئا او تخفى امرا ثم قالت

— لاشيء أكثر من أن أعرفهم ، احقاقا للحق وتبرأة للبريء فانهم يشيعون انك قد أكريت على قتل أبي ليخلو لك الجو فى ثروته وبنيته

عبد شمس — وهل رابك منى ذلك

راشيل — حتى تقول الكلمة الحقة

عبد شمس — فى الحق ان حرب بن أمية قد أغرى على أبيك عامر ابن عبد مناف وصخر بن عمر فقتلاه

فهزت راشيل رأسها هزات هادئة ثم ثارت وقالت

— الويل لهما من عبد المطلب

عبد شمس — صائحا — عبد المطلب ماخطبه ؟ !

راشيل ـ محتدة ـ اذا كان بنو عمومتك قد استضعفوا جاهنا واستصغروا شأننا . واستخفوا عددنا . فان وراءنا هذا السيد المطاع والحاكم العادل والجار الوفى الامين . وقد آلى الا يطأ جنبه المضجع ولا يزور عينه الكري حتى يعرف قاتلى والدى

فدارت الارض بعبد شمس . وأيقن أن تدبيرا فوق تدبيره . وأن حسابا فوق حسابه . قد أعد لاخوانه السيف والنطع بينما كان هائما فى جمال (راشيل) !! ولكنه تظاهر أمامها بالفرح لقرب القصاص العادل من المعتدين بينما اشتعلت نفسه بحرارة التأنيب والوخز على هذه الفعلة التى أطاحت برأس شابين من خيرة الشباب فى مكة من أجل يهودي

* * *

جلس نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب مجلس الحكم بين حرب ابن أمية: المجير لقتلة « أذينة » وبين عبد المطلب بن هاشم ثم قال:

ياابن أمية لقد انتهي الى أنك تغالظت فى القول مع صديقك القديم ونديمك الحميم عبد المطلب من أجل هؤلاء الذين قتلوا « أذينة » وقد انتدبنى نجاشي الحبشة حكما بينكما . فعجبت لامرك تنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأوسم وسامة ، وأعظم منك هامة . وأقل منك ملامة . وأكثر منك ولدا . وأجزل منك صفدا . وأطول منك مددا . وانى لا أقول هذا وانك لبعيد الغضب . رفيع الصوت عند العرب . جلد المريرة . لحبل العشيرة . ولكنك نافرت منفرا

حرب بن أمية ـ من انتكاس الزمان ان جعلت حكما

نفيل ـ ولكني وأبيك حكم برغمك وعترتك . فحسبك اغراء فتيان بقتل رجل حل بيننا ضيفا . فقابل الصنيع بخير منه . وقدر فينا حسن الجوار . ووالله لانتركك حتي تدفع لابن اخى الرجل مائة ناقة وأن ترد عليه مال «أذينة» الذى أخذت . والا قاتلناك برمتنا عليه

حرب ـ أتقاتل ابن عمك من أجل يهودى .. ؟ :

نفيل ـ ان وفاء العرب أوسع من ذلك وان كرمها أفسح من أن يضيق بضيف ذرعا

ثم دفع حرب بن أمية ما فرض عليه من النياق ورد بعض مال اليهودي الى ابن عمه « جداع » . ودفع عبد المطلب ما فقد من ثروة الرجل من ماله الخاص . وجافا صديقه القديم حرب وامتنع عن منادمته حتى مات وسنه مائة وعشرون سنة

ـ ٥ ـ

... وبكر عبد المطلب بن هاشم في الذهاب صوب (نائلة وأساف)(٦) وخلفه وحيده الحرث . وقد كشف كل منهما عن ساقه وشمر عن ساعده وحملا معولا ومكتلين ، ثم توقف عبد المطلب عن السير فجأة بالقرب من (نائله واساف) فتوقف الحرث بن عبد المطلب بتوقف أبيه وحط ما بيده علي الارض كما فعل والده وان لم يكن يعلم سر ذلك التوقف

ثم دار حول أبيه يطالع وجهه وقد قبض على لحيته بيده . وأودع الاخري ابطه وحدق بنظره حول هذه البقعة الواقعة بين الصنمين . كأنه

---

(٥) هذه الصورة تتحدث عن حفر زمزم وما وقع لابى طالب بسببها
(٦) صنمان بمكة

يقدر مساحتها أو يتبين تربتها . أو ينتظر حدثا فوق رقعتها .
ولم يكن الحدث الا انتظار ذلك الغراب الذى جاء ذكره على لسان ملك الرؤيا الذى قال لعبد المطلب (احفر زمزم . انك ان حفرتها لا تندم تراث من أبيك الاعظم. لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقي الحجيج الاعظم مثل نعام جافل لم يقسم . ينذر فيها ناذر لمنعم . يكون ميراثا وعقدا محكم ليس كبعض ما قد تعلم . وهي بين الفرث والدم . عند نقرة (الغراب) الاعصم ..)

وما هي الا لحظات حتى هبط الغراب الاعصم وأخذ يبحث في الارض ليريه مكان زمزم . فشهق عبد المطلب شهقة الفرح بوقوع ماسمعت أذناه . وتحقيق جميل رؤياه . ومد يده الى معوله ومكتله فحملهما . وفعل ولده مثل ما فعل . وفرح بما فرح به أبوه . دون أن يعلم من أمره شيئا ولكنها الابوه الحانيه . والرجولة الحازمة والنفس الكبيرة . توحي بالقوة . وتبعث بالمحاكاة دون تفكير أو تدبير . أومراجعة وتأمل . ومن أجدر بقوة النفس وحزم الرجولة وحنان الابوة من جد رسول الله قبل رسول الله .؟

وحيث بحث الغراب الاعصم بمنقاره هوي عبد المطلب بمعوله وأخذ يملأ مكتله بالرمل والاتربة ليرفعها عن مكانها بمعونة ولده الحرث. وظلا يعملان كذلك في الشمس المحرقة . والجو القائظ . دون أن يدركهما كلل أوملالة .. فالوالد يرى في كل ضربة بمعوله فتلا للظمأ عن آلاف البشر . وفي كل وجبة مما يرفع من أتربة . تحقيقا لامر الذى هتف به في المنام ثلاثا يشوقه بالفاظ لم يفهمها حتى فسرها له . وأخبره عن مكان زمزم ... وفي كل شبر يصل اليه وصلة وقربي الى الاله الذى يحبه ويقدسه ثم دع عنك

لذة النجاح في عمل قد يكون في نظر الناس ضربا من الخيال . بل دع عنك نشوة التغلب على الصعاب . والفوز باستخراج الماء في بلد هي أشد ما تكون حاجة اليه ..

أما الحرث فلم يكن له من ضروب السعادة . الا ارضاء عاطفة حبه لابيه رسول الالهام الالهي . في حفر زمزم المباركة الخالدة خلود الزمن الى يوم القيامة

وبينما كان عبد المطلب يركع بمعوله ويستصب بمكتله وولده خلفه يحاكيه. كانت جموع قريش تمر بهما ثم ينظر بعضهم الي بعض نظرة ابهام وغموض واستخفاف بهذا العمل المقطوع السبب . المجهول النتائج

لقد كانوا يعلمون بالتواتر عن بئر لابيهم اسماعيل قد طمرتها قبائل جرهم في مكة ولكنهم يجهلون مكانها وأهميتها العظمي

فليت شعري هل هذه هى البئر التي يكشف عنها عبد المطلب . أم غيرها . واذا كانت هى . فمن عساه يكون قد أنبأه بها . وقد ولد يتيما ودرج في (يثرب) يافعا بعيدا عن هذه الديار فلم تكتحل عينه بأبيه الذى توفي (بغزه) . ولم يستمع الى لحن الابوة . أو سمر البيئة حتى يعلم من أمر هذه البئر شيئا

هذا ما كان يدور في رأس كل عربي يمر بعبد المطلب وولده أو يختلف اليهما . حتى اذا لم يحظ واحد منهم بجواب علي ما يعتلج في نفسه من اسئله . مضى الى عمله يائسا أو وقف بالقرب من أحد الصنمين متعبدا أو متطفلا . .

وما راع الجميع وهم على مثل حالهم كالنحل حول خليتها غدوا ورواحا الا صيحة داوية من أعماق حفرة غير عميقة تقول « الله اكبر ».فكانت

أ ول ماهزت أعصاب الحرث بن عبد المطلب الذى راح يدور حول الحفرة في جذل وسرور بحركات لاشعورية وهو يردد تكبيرة أبيه كلما نظر الي الماء وهو يفور ويرتفع في بطء . يشرح له فضل الجهد . ويفسر له ماغمض عنه ولم يستطع مكاشفة أبيه به .

وجاءت قريش من كل ناحية مثنى وفرادي وجماعات وتزاحموا حول البئر حتى كاد زحامهم يصيب عمل يوم كامل بالتلف

ووقف عبد المطلب وولده يذودان عن جهدهما بيدين مكسوتين بالطين والرمال ويتلقيان التهاني من أقاربها الادنين بينما أخذت وفود أخرى تنظر الى الماء ثم تنسحب واجمة ثم تجتمع زمرا خلف زمر حتى ألفوا جماعة واحدة . تتلاقي شفاهها وتتقابل أحاديثها . بينما عيونهم صوب البئر وحافريه . تتقد غيظا . وتقدح شررا . وإن تظاهر البعض بالاغضاء والاتئاد . ونصح بالتريث والحكمة . ولكن هذا النصح لم يكن كافيا لاطفاء هذا الحقد دفعة واحدة فذهبوا الى حيث وقفوا أمام عبد المطلب وابتدره اكبرهم سنا وقال

نراك ذوادا عن هذه البئر في حرارة المستحمس ياعبد المطلب ؟ !

فأدرك عبدالمطلب غرضهم . واحس سر حقدهم . وقرأ في عيونهم غيظهم . فالتفت حوله ليرى كم من أهله يمنعه ويشد أزره اذا التحم بشانئيه فلم يجد غير ولده الحرث وبعض المتخاذلين فادرك ضعفه . وأحس حاجته الى السند والمعين فتوجه صوب الكعبة وتمنى على الله أمنية لم يبح بها أمام أحد ثم التفت لمن حوله ورد على تساؤلهم وتهكمهم بقوله :

— لأنى ربها ومالكها .

— ربها ومالكها ؟!! كأنك نسيت أنها بئر أبينا اسماعيل !

— ولكن كما أن البيت لمن يبنيه فالبئر لمن يطويه (١)

— هذا اذا لم يكن للبيت مالك أو للبئر وارث . ولكنها ميراث الوالد الاول فهي لجميع أولاده فلك فيها كسهم غيرك وحسبك فضل الايثار (٢)

— هذا أمر خصصت به دونكم

— وإنا غير تاركيك حتى نخاصمك عليه عند حكم .

— اجعلوا بيني وبينكم من شئتم .

— إلي كاهنة بني سعد فلنحتكم

— انها في مشارف الشام. وان بيننا وبينها أمداً بعيدا. وانها لسفرة تكلفنا غاليا .

— ان حقن الدماء وسيادة الصفاء أغلى مما ترى وأعز .

* * *

هاهو عبد المطلب بن هاشم يتقدم الركب في وسامة البطل وطلعة الزعيم الصنديد رغم ما بينهم من تلاح وتشاد كأنه الحلقة الكبرى في سلسلة من الابل تتأرجح براكبيها علي وقع واحد أو مجموعة من الدمي الكبيرة متصلة بسلك كهربائي يعمل بتيار موحد

وقديكون ركوبها أروح للجسم في تأرجحها وهزتها من زلزلة الخيل لولا خفتها وسرعتها ، فلا تسمع لخفافها وقعا فوق بساط الرمل . حتى يخيل لك أنك فوق سفينة في بحر هادىء الامواج لا يزعجك تمزق شراعها بين أيدى الرياح ولا يثير معويتك اضطرابها فوق أعناق اللجج . وان كلفتك القليل من نوى التمر وأشواك السعدان .. تتلوي مع المفاوز أحيانا كحية

---

(١) يحفره
(٢) العثور

رقطاء . وتستقيم أخري حتى تصير كالرمح . ثم تنخفض كرة كسيول مجتاحة سابقة ، ثم ترتفع أخرى بقوة انخفاضها هادئة لاحقة . فتراها هكذا عن قرب ثم تراها عن بعد كقطع الشفق الاحمر في ذيل السماء عند الاصيل أو كسلسلة من الجبال أصابها زلزال عنيف فهز منها أعناق القمم

ولما واقع الركب (يثرب) طافت برأس عبد المطلب ذكريات الصبا ومدارج اللهو وجولات الكرة ومطارح الرماية التى طالما عقد له فيها على أصحابه لواء النصر ثم رفرفت على رأسه ذكريات خاله (أبي سعيد النجارى) يوم خرج في ثمانين راكبا الي مكة لينتصف له من عمه (نوفل) ويحمله علي تسليم منزل أبيه له . وكأن هذه الذكريات قد أثقلت رأسه. فطأطأها بعدأن أسلم مشاعره وأحاسيسه لاطيافها تتنازعه وتتناهبه وتزيده ايمانا بالحاجة الى كثرة الولد وتعدد النصير . فيكرر نذره الذى نذر تقربا الي الله لايتحدث به الي أحـد . ولايهجس به الا لنفسه الحبيسة التي لاتجد سلوة ولا عزاء الا في هذا الامل الذي نذر لتحقيقه نذراً غاليـا وضحية كريمة . دونها كل نذر وتضحية

وما ان فارق عبد المطلب ومن معه أرض يثرب صاعداً نحو الشآم حتى تفقد ماءه وماءهم فافتقدوه ولم يكونوا يعلمون أكان افتقادهم اياه لاستهلاكه ونفاده أو ثمرة لمؤامرة مندوبي القبائل الاخري عليهم . غير انهلم يحفل بهذا كثيرا . وراح يستحث راحلته. يصاول الصحاري ويطوي القفار حي يبلغ ومن معه الغاية قبل الحاح الظمأ واشتداد الحاجـة الي الماء ولـكن الطريق كان أطول من أن يطوى بهذه السرعة المفتعلة وكانت الحاجة الى الماء أقرب من الوصول الىدار كاهنة بنىسعد بمشارف الشام فذوي بهم الظمأ وأضناهم التعب فحطوا رحالهم . ثم انتشروا فوق

الجبال والربي . يرقبون طيرا حائما هنا أو هناك فوق عين ثرة . أوشجر باسقا في هذا الجانب أو ذاك دليل الحيا (١) والحياة ، ولكن بصرهم قد ارتد خاسئا وهو حسير فعادوا الى رحالهم كاسفى البال يراودون الموت ويراودهم ويساجلونه ويساجلهم . بينما أخذمندوبو القبائل الذين معهم ينظرون اليهم نظرة الفرح والشماتة ويرقبون دنو الساعة الاخيرة فيهم حتى يعودوا الى أوطانهم وقد أصبحت زمزم لهم وحدهم دون معاند أو معارض أو مزاحم

ثم طلب عبد المطلب منهم أن يتكرموا بقليل من الماء . لاسعاف أحد أتباعه به وقد كاد يشرف على الموت . ولكنهم رفضوا بين اصرار وفرح بقرب انزال الستار على أول فصل في هذه الرواية ، فأيقن بعضهم أنهم هالكون لامحالة في هذه البقعة الموحشه . وراح يقترح شق المقابر لمواراة من يموت أولا فأولا .. لان الذين ضنوا عليهم بقليل من الماء سوف يضنون بمواراتهم التراب قبل أن تمزقهم انياب الوحوش

فثارت نفس عبد المطلب القوية على الاستكانة والرضوخ لمقدمات الموت وصاح فيمن معه صيحة بعثت اليهم دبيب الحياة . وأهاب بهم الي مواصلة السير . حتى اذا كان لابد من الموت فليكن في الطريق الي من قصدوا مجالدين مستميتين

وما سار عبدالمطلب ومن معه خطوات معدودة . وخلفهم مندوبو القبائل يفسرون حركاتهم بالاحتضار واهتزازاتهم ببلوغ الروح الحلقوم . وسكوتهم بسكرات الموت .

... ثم يعودون الي البحث في توزيع مامعهم ونصيب كل واحد

---

(١) المطر

فيه بعد أن اطمأنوا على ملكية زمزم ودخولها في حوزتهم - حتى راعهم تكبيرة عاصفة . تحفت بجوارها تلك التي سمعوها يوم نبع الماء من بئر زمزم . فبهت المندوبون . وفغروا أفواههم . كأنهم فوج من البله . ووقفوا ينظرون الى ماء يفور تحت حافر ناقة عبد المطلب . جامدين في أماكنهم كالتماثيل . ثم ذاب جمودهم وتحطمت تعويذتهم حينما وافي عبد المطلب باقداح الماء لمن منعوه إياه في اصرار وعنت رغم وجوده ووفرته. فأكبروا منه ذلك وصاحوا به..والله لانخاصمك على زمزم ابدا . ون لك لشأنا ياعبدالمطلب . فاثن عنان نياقك وعد بنا الي مكة .وحسبنا هذا غنية عن الذهاب الي كاهنة بنى سعد

* * *

امتلأت نوادى قريش بأحاديث عبد المطلب وفاضت. وسارت قصته مع من نازعه على ماء زمزم وفورة الماء له في الصحراء — مسرى الدهشة والعجب . وزاد اكبار الناس لجد الرسول ونما . فكان لايمر بحى الا حيوه تحية ملؤها الاعظام . ولا يسير في افنية مكة الا محاطا بهالات الاكبار . ومهبطا للقلوب والابصار، مماضاعف من مقام بنى عبد مناف . واذوي بنى أمية وقدبدأوا ينفسون على بنى عبد مناف رئاستهم ومنزلتهم في قريش سيما بعد حادث زمزم العجيب وذيوله .

ولم يكن تفجر الماء تحت خف ناقة عبد المطلب في الصحراء بعد اكتشاف زمزم في بلد كمكة تعيش في عالم من الخرافات والاوهام . ويغلو الماء فيها كأعز مافي الوجود

نعم لم يكن هذا التفجر يمر في قريش سريعا ويزول أثره خاطفا دون أن يترك في نفوس الشانئين رواسب الكراهة والحقد . تتجمع عناصره وتتفاعل

آثاره . كما كان لاحديث للناس في مكة وضواحيها الا قصة زمزم وما تبعها . محوطة بالتجله والاحترام كلما مروا على أبي طالب يمعن في الحفر ويرفع وولده الرمال والاتربة . تمكينا لملكيته لزمزم . وتسجيلا لمفاخرها المستقبلة يرثها عنه أولاده طبقا بعد طبق

فكنت لا تمر حول اساف ونائلة (١) حتى تجد تلالا من الاتربة الرطبة المستخرجة من زمزم وبجوارها تلالا من الكتل البشرية يرمق بعضها عبدالمطلب بالتقدير والحنو . ويرميه بعضها بنظرات الحسد والحقد تتابع انحناءه واعتداله . وحفره وطيه . وعمله وراحته . وحديثه وصمته حتى لتكاد تعد عليه زفيره وشهيقه . وهم بين الفينة والفينة لا ينقطون عن التحدث بعضهم مع بعض حول ما اجتمعوا من أجله ثم استرعى انتباههم فجأة صوت اصطكاك الفأس بجسم صلب ذى رنين ساحر فالتفتوا فجأة نحو مبعثه : فالفوا أبا طالب قد وقف ينظر الى ما تحت قدمه مبهوتا والمعول في يده . وولده الحارث ينظر من فوق كتفه بينما أبوه في الحفرة ثم رفع عبد المطلب فأسه وهوي به في رفق وهوادة فأحدثت نفس ذلك الصوت فادرك وادرك من حوله ان هناك سرا قد يكون مفرحا . سيما لمن علم من تواتر الماضى ان (جرهم) (٢) قد دفنت كنزا حول هذا المكان. ثم أقعى عبد المطلب وجلس على مقدم قدمه . وأخذ يزيل بيده طبقة من الرمل غير كثيفه تكسو صفائح صفراء ليست لامعة ولكن لونها يدل على أنها من معدن ثمين .

وما أقعى عبد المطلب كذلك حتى دفع الفضول بمن حوله الى التجمع

---

(١) صنمان بالقرب من الكعبة .
(٢) اسم قبيلة

حول البئر يستطلعون سر هذا الصوت الذي أجلس عبد المطلب على هذه الصورة .. حتى اصبحوا كدائرة رحاة محورها عبدالمطلب . يدلون برءوسهم ويتدافعون بمناكبهم ويتطاول من خلفهم فوق اكتافهم ليأخذوا بنصيبهم من المشاهدة .

كل هذا وعبد المطلب يدور بيده حول هذه الاجسام تشبه أن تكون حيوانا ويتحسس بدايتها ونهايتها . وشكلها وهيولتها واذا به يصيح بأعلى صوته .. الله أكبر ..

فعادت بهم الصيحة الى ذكري صيحته الاولى يوم كبر عند ظهور ماء زمزم . فهبوا اليه سراعا . وتكتبوا حوله في مثل بنيان ضخم علي شفير من الرمل تتهاوي اجزاؤه ثم ترجع فتعلو ، وتتداعى اطرافه ثم تعود فتتماسك ..

ولم يتمالك عبد المطلب نفسه من شدة الفرح . فرفع شكلا لحيوان في يده قد تداخلت الرمال الى بعض أجزائه حتى شوهت معالمه قليلا . وأخذ يقلبه مأخوذا بجماله ومعدنه . حتى لمحه المران بن سيف .. وكان ذا شأن في العلم بمتواتر الاخبار لشهرته ومجالسته الاحبار والرهبان والاستماع اليهم فهتف بالقوم وقال :

ـ يا لقريش .. هذي كنوز (جرهم) يستأثر بها بن هاشم دونكم !!

فتدافع القوم حول البئر وتزاحموا على حافته حتى كادوا يطمرون ماءه ويفسدون حفره أو يتداعون على من فيه .. لو لا أن أخذ الحرث بن عبد المطلب يذود عن جهد أبيه ومجده والكل يطالب بحظه في الكنز أو يريد ان يتمتع برؤيته ليتعرف الي شكله ومعدنه الذي طرق منه .. وأبو

طالب ينظر اليهم في قلق وذعر أنسياه الفرح بما عثر عليه. ثم تركهم يتصايحون ويتزاحمون حتى كلت حناجرهم وتعبت ألسنتهم . ثم قال لهم :

ـ دعوني أعرف بقية الكنز ثم لنا بعد ذلك أن نحتكم في شأنه الى القداح على أن يكون للكعبة قدحان ولي قدحان ولكم قدحان فمن خرجت قداحه على شيء أخذه . ومن تخلفت قداحه فلا شيء له

فشهقوا جميعا شهقة الفرح وزفروا زفرة السرور وقالوا :

ـ أنصفت ..

ثم راح عبد المطلب يبحث بيده الي ما وراء ذلك والكل يكادون يأكلونه بعيونهم . خصوصا بعد أن عرفوا ان سيكون لهم حظ في كل هذه المكتشفات . وراحوا يحيصون ويهللون . كلما استخرج عبدالمطلب شيئا جديدا . ثم غسل يده من حمأة البئر . وجمع مستخرجاته فاذا بها غزالان وأسياف وأدرع من ذهب . وكادت تقوم الحرب طاحنة بين الحاضرين اختلافا على من يحمل الكنز الى منزل عبد المطلب . ثم ذهبوا الي الكاهن الاكبر . وأخذ كل يمني نفسه بجزء من هذه الثروة المفاجئة ويطوف بالالهة وينذر لها النذور ويتعهد بالضحايا . ثم دارت الاقداح بين دقات القلوب الوالهة بالذهب. الخافقة بالثروة المنتظرة .. فقضت بأن تكون الغزالان للكعبة .. فتهدم نصف املهم .. ثم دارت وقضت ان تكون الاسياف والادرع لعبد المطلب فانماع وتبخر كل ما كان في صدورهم من الامل الباقي . ثم أخذوا يرمقونها بعين التشهي . ويرمون عبد المطلب باحداق الحسد والكراهية وان تظاهر بعضهم بالنبالة والفرح له . ثم انصرفوا الى نواديهم ومنازلهم كما ينصرف المشيعون بعد أن يواروا فقيدهم التراب ..

ولم يبرد حقدهم وحسدهم على عبد المطلب الا بعد أن رأوا الغزالين والاسياف قد ضربت صفائح وسمرت على أبواب الكعبة شعار الاجلال والاحترام بهاءا لهاوزينة

- ٦ -

هرعت قريش من أنديتها على نشيج حزين وبكاء مفزع . فالفوا عن بعد رجلاطويل القامة عريض المنكبين . رحيب الصدر وقف بين (أساف ونائلة) حيث تنحر الضحايا وتقدم القرابين . وفي احدى يديه مدية طويلة . وفي اليد الاخرى معصم شاب جميل الطلعة مشرق المحيا هادىء النفس . لاخطام ناقة ولامقود شاه . فهالهم بكاء الشباب حوله وراعهم أمر الضحية الجديدة التي لم يألفوا مثلها في مثل هذا المكان . ولم يسمعوا بأمرها في الاقاصيص الاولي .. اللهم الا ماعساه يكون قد وصلهم من أطراف قصة اسماعيل بن ابراهيم . وافتدائه بذبح عظيم . فنفروا نحوه مثنى وجماعات وما اقتربوا منه حتي عرفوا فيه سمة عبد المطلب بن هاشم ولمحوا في وجه الضحية إشراق ولده عبدالله أجمل أولاده وأصغرهم سنا . وأسمقهم عودا وأحفلهم بالصحة والقوة والشباب . وقرأوا على وجوه الباكين اسماء بقية أولاده وأخوة عبد الله الكبار ولم يكن بكاؤهم خوفا من الموت ولكن عطفا وحنانا على أخيهم الصغير . فابتدره المغيرة بن مخزوم وقال :

— ماهذا الذى تصنع يا ابن هاشم

---

(٦) تتحدث هذه الصورة عن قصة الفداء وزواج عبد الله والد النبي ووله نساء مكة بجماله ، ثم سفره بالتجارة ووفاته بالمدينة

— اضحى بولدي عبد الله قربانا اليه ووفاء بنذرى له

— ولم ذلك؟؟

— لقد وقفت يوم زمزم بين عناد قريش ومساومتها فيما أمرت به في حفرها فشممت من معاطسهم روح الاستخفاف بقوتى والاستهتار بقلة أنصارى وكادوا يحولون بينى وبين زمزم بل بينى وبين الحياة من أجلها حتي كانت قدرة الاله العجيبة وارادته. فتمنيت على الله الامانى ونذرت له ضحية لا من الابل ولا من النعم أو الغنم . ولكن من أبنائى اذا هم بلغوا عشرة ذكور وشارفوا سنا يمنعونى عندها من الناس وها هو يبلغنى بغيتى وينيلنى بلغتي وها أنذا أفي اليوم بوعدى بعد أن أوقفتهم جميعا بين يدى (هبل) ودارت القداح باسمائهم وأنبأت عن فدائهم ونطقت باسم عبدالله أعز أبنائي عندى وأحبهم الي نفسي ، ولكن محبة الاله غالبة ورضاءه فوق رضاء العاطفة

— والله لا تذبحه حتى تعذر فيه . والا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه فان كان فداؤه بأموالنا فديناه

— ولكن الاله قد اختاره فدية وضحية ولا أرضى برضائه بديلا

— سيكون قبول البدل برضاء الاله أيضا . ولنذهب به الي كاهنة (خيبر) لتري رأيها في ذلك

ثم عاد عبد المطلب ومن معه من لدن الكاهنة ، ونفسه لا تزال تجيش بعاطفتين عاطفة الواجب وعاطفة الحنان ولكن حزم الرجولة وقوة الايمان بالوفاء تأبي الا أن يمضي في نذره وأن يدير الاقداح من جديد بين ولده وفدائه بعشرة من الابل تزيد الي مثلها وأضعافها حتي يرضي الاله كما أشارت الكاهنة . وبينا يقوم كاهن (هبل) بعملية القرعة كان عبدالمطلب

متوجها الى الله بسر لا يستطيع أن يبوح به الا له، ولعل ذلك السر لم يكن الا رجاءه الاله بقبول البدل عن ولده الحبيب . ولا يزال الكاهن يبدى ويعيد حتى كانت فديته مائة من الابل . فعاد ايمان عبد المطلب يغالبه على ذلك ويشككه في حسن النتيجة ويبعث فيه روح الاعتقاد بأن رفض البدل في عشر قرعات لا يغني فيه الرضا مرة واحدة فلعلها تكون ثمرة لخطأ . أو نتيجة لصدفة ، فأمر باجراء القرعة من جديد ثلاث مرات حتى يستيقن حسن القبول . فكانت الثلاث في صف الابل فسجد شكرا وعيناه تنهمر بدموع الفرح ثم أمر بنحر الضحايا لا يصدعنها انسان ولا يمنع عنها حيوان فشاع السرور في كل مكان وراح بنو عبد مناف يهنىء بعضهم بعضا ، وأخذ أبناء عبد المطلب ينظرون الي أخيهم نظرتهم الى ملك هابط من السماء وفرحتهم بايثار ضالة طال افتقادها . وسرورهم بمولود جديد كان في عالم المجهول منذ ثوان معدودة .

وشاء عبد المطلب أن يزيد في أفراح بني عبد مناف . وفي سرور بيته وأولاده ويرجع الى نفس ولده ما عساه يكون قد فارقه من طمأنينة وهدوء . فتقدمه الي دار وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة وسار ولده عبد الله خلفه مشكاة المهابة ومصباح المجد وكوكب الشباب . فبهر نوره أنظار النساء وأطاح بهاؤه بقلوبهن ، فرحن يرمقنه بجفون ناعسة وعيون مريضة ويختلسن الحديث معه من خلف أبيه اختلاسا وهو يشير بسبابته فوق شفته رهبة من أبيه وحصانة لنفسه

ثم وقفن دون الحي يشيعنه بعيون سخينة وقلوب خفاقة وصدور مشبوبة . وأنفاس لاهثة . حتى دخل دار وهب سيد بني زهرة فكأن شمس النهار قد احتجبت فجأة وخلفت السكون بعدها في ثياب الوحشة

والحداد فجمدن في مكانهن . وغرقن في بحر من الاحزان ترامت شواطئه لم ينقذهن من بين أمواجه إلا جمهرة من الشبان حولهن يتهامسون ويتغامزون فعدن الي منزل فاطمة بنت مشهور وقد أدركن أنه لابد وأن يكون حضور عبد المطلب مع ولده الحبيب الى منزل وهب لخطبة آمنة

كان الوقت حرورا يزيد في حرارته والنفارمنه.لواعج الحب وتباريح الهوى والكلف بجمال عبد الله وبهائه

لقد شغف به طفلا يدرج في أفنية مكة كالحمامة الوديعة ،ثم يافعا تشع من اهابه نضرة النعيم . وطلائع الفتوة ، ثم شابا تلتقى فيه مخايل الجمال بسمات الجلال. ثم سمت منزلته ونما حبه عند فاطمة بنت مشهور حين رأته بين الموت والحياة عند (اساف ونائلة) لم تأخذه فزعة الموت ولم تغير منه رهبته تقطر من شفرة مرهفة أشهرها أبوه على عنقه وفاء بنذره الذي نذر . كما لم يبهجه الخلاص من بين أنيابه بالفداء . ثم جن جنونها به حين رأته شمسا وهاجة. وجاذبية أخاذة في الطريق الي بيت وهب بن زهرة والد آمنة يخطبها أبوه له حتى لقد انقلب حبها له الي غيرة جائحة وحفيظة دفينة . وكراهية لكل ماحولها . فما حدثتها جارية من جواريها إلا نهرتها ولا سألتها خادمة من خادماتها إلا أغلظت القول لها . ولا حاولت احدي صويحباتها الترفيه عنها إلا أعرضت عنها ووجمت لها مشدوهة مأخوذة . ولا قدم لها طعام أوشراب إلا رفع كما وضع. لم تطف به عين ولم تلمسه يد

وباتت فاطمة ليلتها كما بات السليم المسهد ، واذا كانت أم قتال وعاتكة شركاء فاطمة في حب عبد الله قد زار السكرى جفنهن سريعا خاطفا . فان فاطمة بنت مشهور لم يفارق خيالها وجه عبد الله كالرمح قواما . والشمس اشراقا . والنسيم شفافية وانسيابا . حتى اذا أضنتها عوامل التفكير

وبرحت بها وطأة الشوق . نهضت من مخدعها الي نافذتها تطالع وجه السماء وتطيل. كأنها تعد نجومها . ثم تسرح نظرها في الفضاء كأنها تتفقده أو تتابع خطاه ، ثم تعود الي سهومها . كأنها تتخيله نائما فتتمنى أن لو كانت حجرتها أفق شمسه ومطالع أنواره . وذراعها وسادته التي يضع عليها خده الاثيل . . وأهدابه المستطيلة . أعمدها (١) التي تكتحل عيناها به ثم تعود الي مخدعها يعالجها النوم وتعالجه ويناوشها وتناوشه . ولكن هيهات أن يغادر خيالها شبح عبد الله

* * *

طلع النهار على فاطمة كأسوأ ماتطلع شمس علي محبة والهة . ووافتها الى بيتها شريكاتها في التوله بعبد الله وان حاولت كل منهن أن تكتم سرها عن الاخرى وتمنت لو يخلو الطريق لها دون صويحباتها . وان كان لابد لعاتكة وأم قتال من أن تتخذا من دار فاطمة منتدي لهما ومطرحا لهواها لوقوع منزلها في طريق عبد الله الي بيت أصهاره وجاءت (بره) أمة فاطمة من الخارج تطير في ثيابها الفضفاضة لتنبيء سيدتها أن عبد الله مع أبيه وأخوته في المسجد وأنه لابد وأن يمر أمام الدار في طريقه الى بيب وهب والد آمنة . تخفقت لهذا النبأ قلوب ثلاثة . وطغت على الوجوه سحائب اللوعة تتغير بتغير نبضات القلب وخفقات الفؤاد . وتظاهرت كل منهن بعدم الاكتراث للنبأ . وان أخذن يطفئن ظمأهن المفاجيء بأقداح الزبيب وهن على شفا النوافذ يراقبن الطريق . وينتظرن الحبيب القادم في قلق واضطراب

أخذت تمر الثواني دقائق . والدقائق ساعات والساعات أياما وأشهرا ،

---

(١) كحلها

وهن لا يستقررن على حال من القلق .. حتى لمحت احداهن عبد الله مقبلا في سرعة شابه واذا بصوت ساحر يفيقه مما أخذ عليه تفكيره ولبه يقول:

يامسرعا والناس من حوله * لم يأن لغاد رواح

فالتفت يتبين مصدر الصوت ومبعثه . فأنشدته الثانية من خلفه في لحن الهزار وصوت الكيروان وقالت :

يامطرقا والارض من حوله * يزينها حسن الوجوه الصباح

فالتفت عبدالله نحوها . فاذا بالثالثة : تشدو على مسمعه كالمزاهر وقعا والحمام هديلا وقالت :

عرج علينا ساعة فعند * دنا ان شئت روح وراح

فوقف عبد الله محاصرا بين الحسان يشرقن بوجوههن . ويصدن بأهدابهن وهو لا يدرى من أمرهن شيئا الا ان تكون مؤامرة دبرت له بليل ويأبي الا ان يعرف سرها ونجواها فهتف بهن قائلا .

ماخطبكن ؟؟

فنظرت اليه عاتكة نظرة مغرية وقالت :

حيهل (١) فستعرف خطبنا عند اللقاء . ثم قفت عليها أم قتال وقالت ومتى رخصت الاسرار حتى تنثر في الطرقات علي كل طالب . . الينا الينا ننبئك بنبأ عظيم

فوقف عبدالله حائرا بين المضي الى أهله ومطاوعة غريزته في التطلع الي ماوراء هذه الانباء فأدركن منه هذا التردد . فأخذت فاطمة تردد على مسمعه في صوت مسه الحب ونبرة شواها الحنان

عرج علينا ساعة فعند * دنا ان شئت روح وراح

---

(١) أقبل

فاستجاب عبدالله الي صوتها تطلعا الى ماوراء ذلك الاغراء ودخل الي منزل فاطمة . فهوين عليه وغلقت الجوارى الابواب خلفه ثم التففن حوله هذه تمسح على شعره في رفق وانسياب. وهذه تمس بيدها على وجهه نضرة النعيم . والثالثة تسرح عينها في قوامه من أخمص قدمه الي مفرق رأسه وعبدالله يذود عن نفسه في دعابة ورفق ويجاهدها ازاء عوامل التشهى والاغراء حتى يسمع نبأهن الذي صدنه بأحبولته من عرض الطريق

ثم اختلت فاطمة وصاحبتها هنيهة كانت الجواري خلالها قائمات بتقديم أقداح الزبيب الى عبدالله . ولم تكن خلوتها بها الا رجاء دامعا. وتوسلا ضارعا في أن يدعها وحدها مع عبد الله ارواء لظمئها واطفاء لشوقها ولها بعد ذلك ماشئن منه . ولم يلبث عبدالله أن رأي أمامه فاطمة وحدها في أجمل حلة وأبهر زينة . تتمشى أمامه متشاغلة بشأن ما . وتتبختر بالقرب منه علها تستطيع أن تثير فيه جنسيته . ولكنها لم تصب منه إلا الجد المتجهم . والحزم الصارم . ولما لم ينفع معه هذا الاسلوب من الاغراء . جلست بين حاجبيه وأخذت تحدثه متجاهلة ماتعرفه من أخباره تمهيدا لما تريد أن تجره اليه . وقالت له :

— من أين والى أين ؟؟

— من الحرم الي منزل الاصهار

— أصهار ؟! وهل صاهرت ؟ ومن هؤلاء الاصهار ..وبمن بنيت.

— وهب بن زهرة..من آمنة بنيته

— آمنة .. يالها من مجدودة سعيدة

— ولكن أما وقد دخلت يافتى دارنا فلا بد أن نصيب منك وتصيب منا شيئا . .

— عبدالله ـ محتدا ـ شيئا؟؟ وماهذا الشيء

فاطمة ـ تتراجع ـ شيئا من قري

— عبد الله ـ لست ضيفا على هـذه الديار . وماأنا إلا وليدها وابن بجدتها . .

فاطمة ـ ثم ماذا أنت صانع بعد الاعراس بآمنة ؟ ؟

عبد الله ـ لعلي راحل الى الشام على رأس قافلة بني عبد المطلب

فاطمة ـ لست يا فتى أهلا لمرارة الاسفار وذل الاغتراب أقم عندنا ولك من مالي ما تهوي وتحب . من فضة أو ذهب .

عبد الله ـ في مقابل ماذا استولي على هذا المال

فاطمة ـ في مقابل التمتع بوجهك الوضيء وشعرك الفاحم وقوامك السمهري . ثم زفرت وقالت : نادمني يافتى وتحدث الى . فان في وضاءتك ما يشعل صدرى بنار الهوى وفي سواد جفونك . ما يحز في نفسي حز المدى . وفي بسمة محياك ما أطاح بالسكرى . وقرح مني الجفون

عبد الله ـ لقد أعرست وكفي . .

فاطمة ـ وما ضرك لو أعرست مرة أخرى ؟ . .

عبد الله ـ وكيف أفجع آمنة ولما تذنب؟!

فاطمة ـ ولـكني أحبك وسوف لا أدعك دون أن تنال مني وأنال منك . سيما وقد تهيأ المخدع وصفا الجو . وبلغ السيل الزبى

عبد الله : ـ

أما الحرام فالممات دونه   والحل لاحل فأستبينه

فكيف بالامر الذى تبغينه   يحمي الكريم عرضه ودينه

فاطمه ـ ولـكنه الحب!! شريعة قاسية جامحة.. وان كنت أعرف في بني هاشم الطهارة والنسك .

عبد الله ـ لا نسك ولا سواه .. دعيني الى أهلي وسأعود اليك غدا

فاطمة ـ على أن لا تنسي يا فتى ان وعد الحر دين عليه

عبد الله ـ ومثلى حر وابن حر

ثم يمم عبد الله سريعا صوب آمنة فتلقته بالبشاشة والبشر . وراحا يتحدثان حديث زمزم والفداء . ثم انتقلا منه الى حديث أرق وأشف هو حديث المنى والاماني العذاب .. حتى نسي موقف فاطمة وصاحبتيها . وما صنعنه معه من وسائل الاغراء وشدة ما هم فيه من جوي به وهيام

وشالت نعامة الليل وتبلج الصباح عن عبد الله مطرقا مفكرا فيما ارتبط به مع فاطمة للعودة اليها . وهل يستطيع أن يتحلل من وعده معها أم لا . وما لبث أن ألفى نفسه يتقمص ثيابه مأخوذا بحبل وعده لها حتى دخل منزلها . وما ألقت عينها عليه حتى فترت نظرتها الحادة . وهدأت ثورتها الجامحة . ونام صوتها العذب الساحر ينشد ألحان الهوى والغرام . فظن عبد الله أن فورة الحب قد عقدت لسانها . وطول السهر قد أرخى جوارحها ثم رأي أن يختبر ظنه الذى زعم فقال لها :

ـ أرأيت يا فاطمة كيف ينجز حر ما وعد ؟ .

فاطمة ـ نعم رأيت . ولـكن لعله لم ينجز وعده . لقد شمت(١) فيك بالامس يافتى وضاءة لم أرها على وجه أحد . وبهاءا لم يخالط صفحة انسان أما اليوم فلا أدري بعد. أن قضيت ليلك مع آمنة أين ذهب . ثم أنشدت تقول :

اني رأيت مخيلة لمعت فتلألأت بحناتم(٢) القطر

(١) رأيت (٢) السحائب السود

فسماتها نور يضيء به ما حوله كاضاءة البدر
ورأيت سقياها حيا(١) بلد وقعت به وعمارة القفر
فرجوته فخرا يؤوب به ما كل قادح زنده يوري
لله ما (زهرية) (٢) سلبت منك الذي سلبت وما تدري

-٧-

عبد المطلب في المسجد وحوله بنوه يحفون به ، وكأنهم هالته المنيرة التي استمدت اشراقها من أضوائه ، وجمالها من لمعانه ، وسحرها من التفافها به ، واقترابها منه.

وهو في جلسته تبدو عليه طيبة نفس ، تمازجها قوة شكيمة ، وابتسامة في العينين ، تخالطها امارات حزم في تقوس الحاجبين ، على أنه اليوم كان أرضى ما يكون نفسا ، فتبسط مع بنيه وقال:

— ويكم !! لقد اجتمعتم جميعا الا عبد الله . ألا سألتم عنه ؟ . وعرفتم ما خطبه :

فتضاحك الابناء في احتشام، فنظر اليهم أبوهم، وحدق طويلا في حمزة وقال:

— ما بالك تحاول أن تكتم في صدرك كلاما . وعلى شفتيك ابتساما هل تعرف عن أخيك ما يضحك ؟ .

فعلا ضحك الاخوة ، وتردد لقهقهتهم في بهو المسجد صدى يبعث السرور . وهل في الدنيا كلها منظر أكثر ابهاجا للقلب ولا انعاشا للنفس من الوالد وبنيه وقد تضاحكوا وتباسطوا وأحسوا بالحنان يغدقه الوالد، والحب يعبر عنه الولد بضحكه أو اعانه بالانصات والتأدب

---

(١) مطر (٢) تقصد آمنة
(٧) تشرح هذه الصورة سفر عبد الله بتجارته الي الشام ، ثم وفاته بالمدينة

مرت على حمزة خلجة حيرة ولكن رأى في عيني أبيه ما ييسر له الكلام فقال :

— ألست تسأل يا أبتاه عن أخي عبد الله ؟ .

فقال أبو طالب :

— نعم ! وما في سؤالي هذا من غريب .

فانفرجت شفتا حمزة عن ابتسامة عذبة وقال :

— لا غريب ! وانما أخي عبد الله نؤوم الضحى لا يبرح فراشه حتى تعلو الشمس في سمائها . وتخرج الناس الي أعمالها .

فضحك أبو طالب لانه لم ير في كلام حمزة نغمة الحقد علي أخيه أو الغيرة منه . ثم قال وقد حمل قضيبا في يده أخذ ينكث به الارض لا تأملا ولكن ليفرج بهذه الحركة من يده، عن شدة مايحسه من بهجة :

— ومن منكم لا يطيل الراحة ولا يسرف في الاخلاد الى أهله و بيته كلكم نؤوم الضحى . وما عبد الله بأسوأ منكم حالا

وفيم هم يتكلمون علي هذا المنوال بان عبد الله على باب المسجد فاتجهت اليه الانظار وهو مقدم نحوهم في مشية تجمع بين جد الرجولة وميعة الشباب وقد لمعت جبهته ببريق الفتوة فأحس كل من اخوته بجمال وجهه وصباحته وحلاوة تقاسيمه وفتنته ومرت بقلوبهم جميعا عاطفة الاعجاب به ولو تكاشفوا لرأي كل منهم في قلب أخيه ما في قلبه . ولو نطقت ألسنتهم لقالوا : ما أبدعه ! . ما أروعه ! . ما أفتن رجولته ! . ما أوضح قوته ! .

وما كاد يمثل بين يدي أبيه حتى حياه تحية التأدب والاحترام . ثم نظر حواليه الي اخوته فألقي سلام الصباح وفي عينه ابتسامة الحب

الاخوى . فردوا عليه . ثم أخذ مكانه بينهم فوجه أبوه اليه الحديث وقال :
— أتدرى يا عبد الله ماذا كان يقول عنك هؤلاء ؟ .. وقال هؤلا برنة المزاح والدعابة فتلفت عبد الله حواليه وقال :
— ومن هؤلاء يا أبتاه ؟
فعلت لعبد المطلب قهقهة . افصحت عن عمق رجولته وسمو أبوته وقال :
— هؤلاء هم هؤلاء .. أخوتك الذين يشنأونك وينفسون عليك انك تنام فتسرف فيه وتستريح فلا تبارح الفراش حتى تصلى شمس السماء أهل الارض بنارها.
فمرت بعبد الله فترة حرج وكأنه قد ضبط يقارف ذنبا يشينه وينقصه فصفق أخوته بأيديهم تصفيقة الارتياح والابتهاج أن يداعبهم أبوهم هكذا وقالوا معا فيما يشبه الصوت الواحد :
— هذا حق ... هذا صحيح .
فنظر أبوهم اليهم متكلفا الغضب مصطنعا الازورار . وقال في لهجة تشبه لهجة الآمر الساخط
— على رسلكم أيها اليوافع الماجنون . فما عبد الله بخليق بهذا المزاح. يا عبد الله أريد أن أكلمك في أمر فانصت الي
فقال عبد الله :
— اني أسمعك يا أبتاه فعسي ألا يكون ما بدا لي من ضحك اخوتى ذا صلة بعيدة أو قريبة بما ستفضى به الي
فعاد الي وجه عبد المطلب الجد واكتست تقاطيعه بوقارها الذى لا يفارقها وان اختفي الحين بعد الحين ، تحت ابتسامة تزينه وتقربه الي القلوب ثم قال :

- ياعبد الله ! أنت تعرف أنك من قريش وأن أهل قريش خاصة قوم لا تغلبهم عواطفهم علي أنفسهم ولا تذهب بهم نوازع قلوبهم الى حيث التلف أو البوار . وانك لتدري أن الواحد يخرج من بيته منتضيا رمحه ممتشقا سيفه ساعيا الى الموت وكأنه يسعي الى حبيبة القلب وطلبة الفؤاد وان كان قلبه ينتفض بحرارة الشوق الي الزوجة التى خلفها وراءه وتركها في دارها ينوشها الهلع عليه ثم تتجمل فلا تبكي ولا تولول. بل تدعو الله أن يكتب له التوفيق والسلامة وأن ينزل على قلبها العزاء والسكينه .

فلمعت في عينى عبد الله أضواء قلق لانه لم يفهم ما يعنيه أبوه حتى لقد حسب أن خلافا دب الى قريش وغيرها من القبائل وأن أباه يستحثه الى أن يقف في صفوف المقاتلين مهونا عليه فراق زوجته آمنة بنت وهب التى زف اليها منذ عهد غير بعيد فساءه أن يكون من فتيان قريش ولا يعرف شيئا من أنبائها وآلمه أن يكون جهله بما يقع في حيه ومايصيب أهله وذوى قرباه. هو السبب الذى أغرى اشقاءه بالضحك عليه أو الهزء به . ثم ظنهم يأولون هذا التخلف في الدفاع عن حمى القبيلة وذمار شرفها ثم زواجه الجديد بآمنة بنت وهب فاختفت في التو من عينه بوارق القلق ولمعت فيها أضواء العزيمة والكرامة الجريحة وكاد يقول:

— أين هو هذا العدد الذي تستحثونى للقياه ، وكأنه شيء مخوف .. والله لو كان يصرع، لصرعته ولو كان يتحطم لحطمته .. يذهب فتيان قريش الي الموت في سلاحهم وانى لأقاتله بيدى .. أنا عبد الله ابن عبد المطلب . وزوجتى من بنى زهرة .. فليست هي من الاماء اللواتى يخفن على بعولتهن الموت .. وان خفن عليهم تلف الرخاوة والضعة .

نظر عبد المطلب الي ابنه ورأى في وجهه هذا القلق ثم رآه

يتقلص ويغيب ليحل محـله غضب ثائر فائر، فعرف كل مافي نفس ابنه وكأنه يسمع حديثا واضحا يلقيه لسان فصيح . ولـكنه تجاهل هذا كله ليري اخوة عبـد المطلب أخاهم مثلهم، شجاعة واقداما وميلا عن اللهو وأخذا بالصالح من الأمور .. فقال :.

وأنت تدرى ياعبد الله أن قريشا وأغلب أهل الصحراء من حضر وبدو لايعيشون وهم في بيوتهم وانما لابد لهم . .

فانفجر غضب عبد الله المـكتوم . بعد أن غالب نفسه طويلاوصاح:

— من قتال .. ! .

فدوى المـكان بالضحك ونظر عبـد المطلب الى ابنه نظرة العطف والاعجاب وعاد الى كلامه بنبرة هادئة وقد زجر أبناءه بمؤخر عينيه أن اصمتوا ولا تضحكوا . فعادوا الي أدبهم وانصاتهم .

— لسنا بحمد الله على أبواب حرب مع أحد . ولـكنك لابد أن تشن الحرب على هذه الدنيا . فالحياة عدونا ان لم نغزها بالسهر والسعى غلبتنا وانى لأراك جديرا بالفوز فيها والانتصار عليها .

فقال بعض اشقائه :

— هو ذاك !

فقال عبد الله بعد أن استراحت نفسه ولانت غضبته ثم زالت .

— وهل كنت تحسبنى يا أبتاه مخلدا الى بيتى أبد الآبدين. مستريحا الي حنان زوجتى الي غير حين . بل انى منك وفي عروقي دمك . والرحلة والتجارة وهما ما تعنيه لست أكرههما بل اني منطلق من قومى الي أصهاري بنى زهرة لأفصل على القـافلة المسافرة الي الشام وأعود معها بما يجعل لي مالا ، أشرف به وتشرف به زوجتي وذريتي ..

فقال أخوه حمزة . !

— ونحن نعطيك عروضنا وسلعنا لتبيعها فيما تبيع وتعطنا جزءاً مما تفيء به تجارتك من ربح وتستبقى لنفسك جزءاً .

وأضاف العباس :

مر علي ياعبـد الله لأعطيك بعض أبراد عدنية ثمينة تروج تجارتها في الشام رواجا عظيما ..

فقال عبد المطلب :

— مر عليهم جميعا وانظر ماذا لديهم ، يدعونه لديك تتجر فيه وكلم أصهارك . ثم أعد نفسك للرحلة ..

فوقف عبد الله وكأنه الرمح الممشوق وانطلق كالسهم المارق ، وفي خطوته ما يصيح : لقد عزمت .! لقد عزمت .! لقد عزمت .!

وفيم هو يختفي صاح به أحد اخوته

— مر علي داري وخذ منها شيئا من زبيب الطائف . فلم يجب عبد الله ، وكأنه لم يسمع شيئا . أوكأن الرياح أخذت هذه الصيحة فبددتها

* * *

جلست آمنة بنت وهب ، زوج عبـد الله في بيتها ، وحولها نساء كثيرات ، جئن جميعا وقد لاحت في وجوهن ، علائم الفرح والارتياح فتكلمن كثيرا وقصصن على عادة النساء كل ما يحضرهن من أقاصيص . توحيها المناسبة . أو لا يدعو اليها الاقتضاء على السواء بلا تفريق أو تمييز .

وكان من بين النساء ، امرأة هادئة ، لا تدري سر سكونها وسط هذا الفرح ، ولا علة صمتها ، والناس فرحون مرحون . إلا أن يكون أصابها شيء .

ولسْت تستطيع أن تعرف ما يدور بنفسها ، إلا أن تعرف أنها « سمراء » زوجة عبد المطلب ، وانها ام الحرث ، وان ابنها الحرث قد مات ، وانها لذلك ثكلي خف حزنها على مر الايام وبقي منه صمت واطراق . وهدوء واستسلام لقضاء الله .

ولقد رأت سمراء ـ في يومنا الذي احدثك عنه ـ النساء فرحات مغتبطات . لان قافلة الشام عادت ولهؤلاء النسوة ابناء في هذه الرحلة . وأزواج وأقارب . فذكرها ذلك بابنها الحرث ، الذي لو كان حيا . لكان من بين العائدين اليوم ولكانت هي من بين الفرحات المغتبطات

وقد كان أشد النساء فرحا واغتباطا « هالة » أم عبد الله ، وزوج عبد المطلب لانها تعلم ان ابنها سيعود اليها وكفى بهذه فرحة لقلب الام ولانها تعلم فوق ذلك أن ابنها سيعود ومعه ما جناه من رحلته هذه من مال ييسر له العيش . ويجعل حياة زوجته اكثر متاعا ونعيما . ثم لانها تعلم أن ابنها سيعود الي زوجته الجميلة الفياضة بالحنان والرحمة . وانه سيجد في ظلها . ما ينسيه وعثاء السفر . ومالقيه في الفيافي الطويلة الموحشة من تعب وعطش وجوع وخوف فيلقي بين يديها بكل الذى جمع وتلقى في فؤاده بكل ما انبثق فيه . من حبله وعطف عليه . .

تصورت هالة ابنها وقد خلا الي زوجته . فأخذ يقص عليها ما رأى في الشام من أنهار وحدائق وبيوت ومدائن . ويصف لها الليل في الفدافد وتصف له ما ستطير له فرحا

نعم ستقول له اذ يعود في خفر وحياء . . إن عندها له هدية عظيمة فيسألها وماذا تكون ؟ فلا تجيب . فلا يزال بها حتى يذهب عنها حياؤها فتقول له ان في بطنها حياة جديدة تتحرك . ان في بطنها جنينا . فيمسك

برأسها بين يديه ثم يقبلها. ويقبلها . ويتمنى لو استطاع أن يجمع لهذا الولد الجديد الوفا والوفا من الدنانير وغوالى السلع ونفائسها .

مرت هذه الصور جميعا برأس (هالة) فانتفضت فرحا وقفزت سرورا وصعدت الي ظاهر البيت لترى القافلة في أوبتها فرأت على بعد أشباحا تروح وتغدو .لم تكن القافلة .واذا كانت شباب قريش الذى خرج يستقبل القافلة ويسأل عنها قبل أن تصل الي مكة . .

أما سمراء فجلست الي جانب آمنة . تقول لها (لا تكثري من الحركة فان في بطنك جنينا) فتطيعها آمنة وتقول لها (واعجبي !! من هذا الجنين . النساء يحملن فيتعبن . وأنا أحمل . فلا أحس بشيء . هل أكون واهمة يا أماه ؟!) فتطمئنها سمراء وتقول : (أمرك عجب ولكن لا ريبة في انك حامل) استمر فرح النساء وصخبهن ولكنهن لم يلبثن حتى هدأن وكأن مرحهن كان نورا . فانطفأ بهبة من ريح عابرة . . ولم تكن النسوة عالمات بسر وجومهن المفاجيء . ولكن شيئا ما، عقد السنتهن . فذهب كل منهن الى ناحية في الغرفة وكأنها تحمل معها حزنها بعيدا بعيدا

ولكن سمراء لم تلبث ان اقتربت من هالة أم عبد الله . وسألتها ما الخطب ؟

فاجابت هالة . وقد ابيضت شفتاها وارتجفت يداها واربض جبينها فاصبح كالبحر الذي ثارت غضبته بعد صفاء وسكون . فأمسكت سمراء بيدها وقالت :

— هدئي نفسك وقولي ما الخطب . . !

فتململت هالة وكأنما تجالد وقالت : عبد الله . . .

فصرخت سمراء : كيف ؟ تقولين عبد الله . ؟

فاختنقت هالة بالدموع وقالت : مريض .

فاستراحت سمراء قليلا وقد كانت نفسا صافية لا تحقد ولا تغار . فلو كان غيرها في مكانها لافرحتها هذه النكبة . ولكنها كانت قد نفضت يدها من الدنيا منذ مات ابنها الحرث فما عادت تفعل كما تفعل النساء الاخريات . يكدن لضرتهن ويشمتن في مصائبها . صحيح ان هالة هي ضرة سمراء . ولكن سمراء كانت فوق طيبتها أشد ما تكون عطفا على آمنة . ومن هنا كان هلعها عظيما أول الامر حتى أدركت أن تخلف عبدالله عن الرحلة كان بسبب المرض لا الموت . ذهبت الي آمنة وانتحت بها جانبا . وكلمتها طويلا ..

وكانت آذان آمنة منصتة لما تقول سمراء . ولكن عقلها كان بعيدا عن مكة وعن سمراء وعن النسوة اللواتي أخذن ينصرفن الى بيوتهن وكأنهن يحملن معهن سرور آمنة حتى اذا خرجت أخراهن شعرت آمنة بأن الدنيا ضاقت في وجهها حتى كادت تنطبق عليها . وانها وحيدة لا مؤنس لها ضعيفة لا عائل ولا حامي ... فانفجرت باكية وأسلمت رأسها ليدي سمراء التي طوقتها وقبلتها وهي تقول :

— لا عليك يا ابنتي .. ! لا عليك .. فعبد الله سليم معافي . . . وعبد الله سيعود اليك . ولكنه الحب والشوق الذى يعظم لك الامر ويسبب لك الخوف ... »

وفي هذه الدقيقة اضطربت أحشاء آمنة . فتذكرت أن في بطنها جنينا وأنها نفسان لا نفس واحدة . فاذا الحزن قد زال والألم قد انتهى واذا أمل جديد ينبثق في قلبها فترى عبد الله ـ على حداثته ـ يعود اليها . فيقص عليها أنباء رحلته . وتقص عليه أنباء شوقها

خرجت سمراء من بيت آمنة وقلبها يتقطع لحزنها و نفسها تذهب عليها حسرات . وقد كان حزن سمراء يتضاعف كلما ذكرت أن آمنة يتيمة وأن عمها كان هو الذي يكللؤها قبل زواجها . وأن اليتم والترمل اذا اجتمعا كانا أقسى من أن تحتملهما نفس فتاة لا تزال في مطالع حياتها وان زفت الى زوجها وحملت منه ولم تكد سمراء تخطو خطوات قليلة حتى رأت « مربد بن خزيمة » وقد كان ممن عادوا مع القافلة . فنادته وكان من ذوي قرباها .

فتوقف ثم نظر خلفه فرأى سمراء فعاد اليها ..

فحيته وسألته كيف كانت القافلة . وكيف كان عبد الله فيها . وكيف صحته حين تركوه فاطرق مربد قليلا وقال :

— ياعمة ! أيهمك أمره ؟

فاجابت :

— وكيف لا ! أليس هو زوج آمنة :

فجرت في عين مربد سحابة شك وقال :

— ولكنه ابن ضرتك .. وما أعرف ماذا تكون آمنة منك

— أما آمنة فهى كالابنة منى ، أما هالة أم عبد الله فلقد أذهب الله غضبي عليها منذ علمت انى في أخريات أيامى.

— اسمعى ياعمة ! ان عبد الله لن يعيش طويلا . لقد تركناه في يثرب عند اخواله من بنى النجار . وإني لاري قبره بعينى وانا احدثك.!

— فلطمت سمراء خدها وصاحت :

— قبره ... أهومات ..؟

فأجاب مربد :

— لم يمت .. ولكن حاله لا يبشر بخير . فقد حملناه الى دار أخواله وهو بين أيدينا كالجمرة .. كانت الحمى تهزه من منبت الشعر الى أخمص القدم واني لاذكره الآن . واذكر عيونه الجميلة الكحلاء . وهما يدوران في وجوهنا . وكأنهما تودعان الصحب والحياة ... ياجمال وجهه . وجمال نفسه اخلق بالعذاري أن يقبلن تراب قبره . فقد كان جماله يسرى الى كل ما يمسكه .. أو يمسه ..

ولم يكن مربد كاذبا في شيء مما يقول .. فلقد حمل الناس عبد الله الي مقره الاخير في بيت النابغة الجعدى وانطفأت أنوار هذه العيون التي كانت تودع الصحب والحياة حينما اشتدت وطأة الحمى وزاد لهيبها .. ؟

- ٨ -

« خرجت من نكاح . ولم أخرج من »
« سفاح من لدن آدم الى أن ولدتني أمي »
« لم يصبني من سفاح في الجاهلية شيء »
محمد رسول الله

استيقظ عبد المطلب بن هاشم على قرع بابه الكبير يدوي صداه في هجعة الليل وسكونه فظنه أول ما استفاق طنين حلم أو وقع رؤيا طارت معالمها عن خلده ولما تتم فصولا، غير أن الطارق عاد الى قرع الباب من جديد في شيء من العنف حتى بلغها آذان الناعين قوة داوية . فأدرك عبد المطلب انه صوت الحقيقة لا طنين الرؤيا ولا همس الخيال . فنهض من فراشه وأطل من نافذته المشرفة على الباب دون أن يوقظ أحدا من العبيد أو الخدم . ثم علم أن الطارق هو (فاره) خادم بني وهب سيد بني

النجار وان نبأ خطيرا وحادثا مفاجئا هو الذى جاء به (فاره) في مثل هذه الساعة ، أو لعلها بشرى مولود جديد لولده الحبيب عبد الله يحمل ذكراه ، ويملأ فراغه ويبرد جواه . سيما وهذا شهر ولادته . غير انى كنت في بيت وهب منذ أيام وجالست آمنة زوجة ولدى العزيز البعيد الغريب ، وحادثتها طويلا . فلم تنبئني بشيء من آلام الحمل . أو اعراض الوضع القريب . بل لم يظهر عليها ما أحس معه شعورها بتوعك الصحة أو الضجر من قرب النفاس ؟ ! ولكن لعلها فتاة صبور قوية جلدة أو لعلها تكافح اباءا . وتنافح استحياءا . . والا فما هذا الذي يدعو الي ازعاجى وايقاظى في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل . الا أن يكون خطبا جللا ورزءا جسيما أرجو بحق البيت وصاحبه ان اجنب شره . وأتنكب رداه

هذا ما كان يحدث عبد المطلب به نفسه وهو يستعد للذهاب الى بيت وهب تلبية لرغبة آمنة حين وضعت محمدا صلى الله عليه وسلم ...

ثم سار عبد المطلب الى بيت وهب وخلفه الخادم (فاره) على قدمين من خوف الخطوب . ورجاء في أن يبشر بمولود . مطأطيء الرأس مأخوذ الفكر وكان يمكن أن يريح نفسه من الوساوس ووطأة الهواجس بسؤال الخادم عن سر حضوره ، ولكنه رأى أن لا يتعجل الحوادث وهو لا محالة ملاقيها شأن كل صنديد قوي النفس . ثبت الفؤاد

وما أن عم حتى كان أمام منزل أصهاره فاستقبلته أعراف هي فوق العنبر والمسك جمالا ، وأنعشته اشذاء لم تتفتح خياشيمه على مثلها طيبا . وغالبته أنوار لم تقو عينه على سناها . وبهرته أضواء لا يدري من أين منبعثها ولا أين منتهاها

فأدرك انها آيات مولود ورجاء موعود وخليفة ولده المفقود . فصاح كعادته وهتف وبشر ، ودخل على آمنة يحبوها بسروره . ويبارك وليدها السعيد . فألفاها كعادتها هدوءا ورضاء . وبسمة واشراقا . فلم تقع عينه على آثار الوضع أو ضروريات الولادة ولم ير أمامه المرأة النفساء التي كان يتخيلها منهوكة القوى مبهورة الانفاس تصيح بالشكوى وتجأر بالانين وترتفع من أنفاسها وتنخفض، أغطية ثقيلة، يروحون حولها ويغدون بأباريق الشيح والقيصوم يحيط بها من كل النواحي المشفقين والمشفقات والدامعين والدامعات وهي بين هذا كله كالجثة المحنطة لولا أصوات الانين وترجيع الزفير والشهيق

ثم هاله نور قوى يشع في زاوية المكان ينبعث من خلف غلالة رقيقة كما ينبعث نور القمر من خلف سحاب شفاف النسيج رقيق الهيولة يفيض المكان بأشعته ويضفي على من فيه نورا وهاجا فتنظر اليه آمنة الشابة وتبتسم كما يبتسم مخترع الكهرباء الي أضوائه كلما تكللت بحوثه بالفوز وصادفت تجاريبه التوفيق والنجاح وقد زادت ابتساماتها المشرقة الى ضحك عند ما رأت عوامل الدهشة والحيرة تتردد على وجه جد المولود . دون أن تنفد حيرته أو يرى حلا أو تفسيرا يخرجه مما هو فيه

ثم خرج عن صمته المعهود واتزانه المألوف وقال لآمنة :

ـ حدثيني يا بنتاه ما هذا الذي أرى ؟؟ . أفي يقظة أنا أم في منام ؟

آمنة ـ لقد فاتني أن أحدثك يا أبتاه اني حين حملت بولدي هذا هتف بي هاتف في منامي (بأنك قد حملت بسيد هذه الامة . فاذا وقع على الارض فقولي : أعيذك بالواحد من شر كل شيطان مارد . وعين كل انسان حاسد، ثم سميه محمدا) . ولقد حملته والله . فرأيت بعد ذلك في منامي ان نورا

خرج مني فرأيت به قصور بصرى بالشام وأضاء علينا ما بين المشرق والمغرب . ثم وقع حين وضعته وانه لواضع يديه بالارض ورافع رأسه الي السماء واني لأرجو لابني هذا شأنا

عبد المطلب ـ وما هذه الاعراف الشذيةوالانوارالبهية والطنين الذي يملأ الجو علينا بألحان لا يعرفها بنو الانسان

آمنة ـ لعلك لم تر بعد حفاوة السماء بهذا الذكاء ... خذيه يا عاتكة واطلعيه علي ما حولنا من سهام الضياء . فنادته عاتكة الىفناء الدارفألفاه في مثل ضحوة الشمس ثم قادته الى أعلاها وهو لا يدرى ما يقول من فيض السرور فشاهد نجوم السماء وقد تدلت في حبال من الضيــاء تهبط فيدورانها وتدليهاحتى تكاد ان تلامسرءوسالواقفين ثم ترتفع كرة أخرى عنرءوسهم حتى اذا شاقتهم رؤيتها في مثل حالتها عادت الى ما كانت عليه كأن قبة السماء راحت تدور حول محور المنزل المعمور وتتأرجح في تيه وخيلاء وقد تدلت منها أحبال الثريات تنأى ثم تدنو حتى تشارف رءوس الجبال وشرفات المنازل ...

فصاح عبد المطلب من أعماق نفسه : الله أكبر الله أكبر ، ثم عاد الي مهد الوليد محمد فانحنى عليه يقبله من كل مكان تصل اليه شفتاه وعيناه في إعشاء من وهج الضياء

***

تكشف الصبح عن واد من النساء . تحملهن رواحل هزيلة عجفاء يسرن الي مكة في بطء السلحفاة وبينهن امرأة يحملها اتان (١) ويقود زوجها شارفا (٢) وكلهم ضامر الوجه غائر العين خفيت الصوت منقطع

---

(١) حمار (٢) الناقة المسنة

الانفاس لا تسمع من حركاتهم الا بقدر ما تسمع من وسوسة الحوافر والخفاف كانه جيش من الموتي يسير الى الموقف في يوم الحشر أوقرية أصابها الامحال الفاتك فراحت تدلى نفسها من أفواه القبور ..اوجماعات ضرب السحر على حواسها وخلفها تهيم هكذا بين الصحارى والقفار .. لا يدل علي وجودها الا صوت الغلام.عبد الله لا يفتر يرفعه بالبكاه لشدة ما يحس به من الجوع ، أمه لا تكاد تجد في ثدييها ما يبل رمقه اوفي شارفها نقطة واحدة من لبن

ثم طافت بمكة انباء هذا الجيش الجائع يطلب الرضعاء باجر يعش منه، ويواصلن حياتهن الشقية به . فتوافد عليهن جيش من الامهات تضم كل واحدة منهن ولدها الي صدرها في رفق وحنو وقد علقن في أذرعهن خرقا تحمل مقدم اجر الارضاع من تمر وشعير واقط (١) فأقبل جيش الرواضع عليهن يتعارفن ويتساومن ويتجاملن ويتحدثن بافواه سدت بمنتجات مكة وخيرات البيت الحرام فهذه تهدى اتانها المتضور من الجوع حفنة من الشعير وهذه تقدم لولدها الصغير تمرة يجرى بها لعابه وتلك تقدم لطفلهـا قطعة من الاقط هدية ممتعة ، ورابعة تقبل رضيعها وتمزح معه بما أتاها على يده من الرزق الذي ضن به عليها انقطاع المطر وجدب الارض . وجفاف الحوالب . ثم راحت كل امرأة تهنىء صاحبتها برزقها وتباهى بجمال رضيعها على رضيع اختها .

فعادت الحيـاة من جديد الى هذه الاشباح التى كانت منذ دقائق هيا كل بشرية أو صورا لبعض الآدميين . وعلا هذه الوجوه الممتقعة الضامرة بصيص من الاحمرار والبشر . الا امرأتين احداهن تلك التي هي

---

(٣) اللبن المجفف ويشبه عندنا الـكشك من بعض الوجوه . وقيل يشبه الزبادى

أحوج الجميع الى ما يسد رمقها وينقذ طفلها. وأحبهم الي ما يسعف شارفها واتانها. وهما يغالبان الموت ويكافحان عوامل الفناء . وثانيتهما تلك التى وقفت بطفلها عن بعد ، بعد ان حال يتمه وفقره دون احتضانه وارضاعه وان كان صمت الاولى وتزمتها لما توهمت من سوء طالعها .. وصمت الثانية لثقة في نفسها واطمئنان الى مستقبل ولدها وارتقاب لما تجرى به المقادير ثم نظرت حليمة السعدية الى زوجها الحرث وقالت له

إني لا كره أن ارجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا . والله لاذهبن الي ذلك اليتيم فلآخذنه .

الحرث ـ افعلي.. فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة

فذهبت حليمة الى حيث وقفت آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم وانحنت عليهـا ترفع اللفاع عن وجه المولود وآمنة تسهل لها ذلك بينما أخذت تنظر الي وجهه في بسمة وليدة لتطالع فيه ما سيقع في نفسها عند رؤيته. وما يكاد يقع نظرها علي وجهه الـكريم يشع منه فجر النبوة . حتى شهقت شهقة تأثرت لها جميع اعضائها واستحال جسمها الى وضع واحد يمثل الفرح والدهشة معا ثم صاحت في مكانها وقالت

ـ يالله انه لملك كريم .. ما رأيت مثل هذ الوجه على جسم مولود قبل اليوم .. ثم حملته فوق ذراعها وضمته الى صدرها وقبلتـه . ثم تراخت يدها به لتعيده الي صدرها وعند متناول شفتها . ثم أخذت تتيه به وتهتز وتتأرجح ، ناسية ما هى عليه وزوجها من الجوع والضنا . ثم ذهبت به الى حيث وقف زوجها الحرث بن عبد العزي . وبشرته خيرا فقال لها :

ـ ماذا ؟؟ أجاء لنا أهل اليتيم بالـكراء ؟ ..

حليمة ـ لقد جاء اليتيم نفسه يحمل أعظم ما في الوجود

الحرث ـ اعطنا شيئا نتبلغ به فقد انهكتني عوامل الجوع
حليمة ـ حتى أرضعه

كل هذا وآمنة تنظر اليها في فرح بما يقال عن وليدها بمازجها الحياء الحلو يدها من الكراء . ويزيد ايمانها بشأن ولدها وعظم مستقبله

وما كادت تلمس حليمة ثديها حتى رابها ثقله فبهتت ثم رفعته فدهشت ثم ضغطت عليه فبض غزيرا وسال مدرارا فصاحت :

ـ ياللخير العظيم ! !

فرفع زوجها عينيه اليها لمعرفة السر في هذه الضجة . فألفاها تمد لرضيع بثدى بض عامر باللبن . ولكن هذا اللبن لم يكن ليسد رمقه أو يطفىء ظمأه . فلم يحفل بالامر الا بقدر ما يدر عليه من كراء زوجته ...

روي الرضيع المبارك حتي شبع ثم جيء بأخيه من الرضاع عبد الله بن الحرث وقد جفت ماقيه من كثرة البكاء ونضب لعابه من حرارة الجوع . فأسلمته ثديها الثاني . فراح يعب منها عبا حتي نام في حجرها . ثم قسي الجوع على زوجها فناداها :

ـ ان اقذفي لى بشيء مما في حجرك من كراء الرضيع . فقالت له :
ـ اليك شارفك فاحلبها

الحرث ـ وما الذى جد في ضرعها ولما تلك طعاما قط . وهى على ماهي عليه من اعياء وهرم

حليمة ـ قم اليها وطف بيدك على ضرعها فسوف ترزق ببركة هذا الرضيع

فقام الى شارفه ومسح على ضرعها بيده فاذا به يرفع يده فاغر الفم مأخوذا . ثم وضع يده علي الضرة ثانية يتفحصها . فاذا بها صقيلة مكتنزة . وهي تلك الى كانت منذ دقائق شحيح شولاء ..فصاح بدوره :

ـ ياللخير العميم !!

ثم التهم حلمتها وراح يعب منها حتى شبع . ثم قامت حليمة بدورها وشربت حتى رويت . فقال لها زوجها :

ـ أتعلمين والله ياحليمة لقد أخذت نسمة مباركة

حليمة ـ والله اني لأرجو ذلك. ولكن أين نساء بنى سعد. وقد خلا المكان منهن . دون أن نشعر

الحرث ـ لقد رحلن برواضعهن فرحات مأجورات . وقد شغلتنا حالتنا عن مصاحبتهن بعد أن هتفن بنا كثيرا

حليمة ـ هيا لنلحق بهن

الحرث ـ واني لنا ذلك. وهذا أتاننا هزيل نحيل

حليمة ـ لعل الذي خلق في هذا الشارف لبنا غزيرا . وفي ثديى غذاء وفيرا، يخلق من هذا البطء سرعة ومن النحول قوة .

وما هى الا ساعات حتى كانت حليمة ومن معها في مقدمة ركب بنى سعد ضاحكة السن وخلفها زوجها . تسابق الجميع وتربع عليهن . وتثنى عنان أتانها لئلا تدع الركب متخلفا عنهما حتى أصبح أتانها هذا في مكان العجب والدهشة من نساء الركب ومضرب الامثال في السبق والسرعة وهو الذى كان منذ ساعات ذابل الآذان . مطأطىء الرأس لا يتحرك الا تحت وطأة الهراوة ولدغ الوخز متأرجحا في مشيته كأنه ألواح خشبية غير متساندة ولا متماسكة .

* * *

هاهم بنو سعد زاخفون في خيلهم ورجلهم : في رجالهم ونسائهم وأمامهم عبد الله بن الحرث طفلا صغيراً ممتقع اللون لاهث الانفاس

لاتدري أمن متابعة العدو . أو من وطأة حادث مفاجيء ، وامه حليمة خلفه تولول وتقول :

ياتيماه . ياضعيفاه . ياوحيداه . . والناس تسارع الي اللحاق بها من كل ناحية حتى وقفوا فجأة أمام محمد الصغير شاحب الوجه مرتجف الجسم. فهوت عليه تضمه الى صدرها في قوة وحنو . ثم تدعه عن صدرها لتقبله في جبينه وبين عينيه . بينما أهل الحي وقفوا يتهافتون على يده تقبيلا وعلي رأسه مسحا وترفقا ، وحليمة تعاركهم عليه لا تريد أن يفارق صدرها صدره فتضمه اليها وتبكي بدموع الحنان والفرح وتقول

لازلت حيا بعد كل هذا يا محمد . بابي أنت وامي وأبنائي جميعا حدثني مادهاك من هذا الرهط الذى اختطفك ؟ فاخذ يجمع هدوءه ويحزم أعصابه . ثم أطرق برأسه الصغيرة الي الارض اطراقة الملك ثم سمع بعضهم يقول :

لقد أصاب هذا الغلام لمم أو طائف من الجن فاذهبوا به الي كاهننا حتى ينظر اليه ويداويه فنظر اليهم نظرة ألم واشمئزاز وقال لهم

ليس بي شيء مما تذكرون ان ارادتي سليمة . وفؤادي صحيح وليس بي جرح أو ايلام .

الحرث ـ الا ترون كلامه صحيحا اني لارجو أن لايكون بابني بأس.

عبد الله بن الحرث ـ لقد جاء هذا الرهط من الرجال فاستلوه من بيننا ونحن نلعب الكرة. فهربنا. ثم تلاومنا فعدنا اليهم وقلت لهم ما اربتكم من هذا الغلام . وليس له أب وما يرد عليكم قتله شيء . فلم يردوا علينا فهرولنا الى الحى نخبركم بما حدث : فقد توجست عليه شرا من هؤلاء الغطاريف فقال زعيم الحي اذهبوا به الي الكاهن فان لهذا الحادث شأنا قبل أن يعمن الداء ويستعصي الدواء فذهبوا به الى الكاهن فتمالت

أصوات الرواة عنده واختلفت لديه . فقال دعوا الغلام يتحدث عن نفسه . فقال لهم رسول الله

بينا أنا منتبذ من أهلي مع أتراب من الصبيان اذ أتانى ثلاثة رهط معهم طست من ذهب مملوء ثلجا فاخذوني من بين اصحابي ثم عمد أحدهم فاضجعنى على الارض اضجاعا لطيفا ثم شق ما بين مفرق صدري الى منتهي عانتى . وأنا أنظر اليهم لم أجد لذلك مسا ثم أخرج احشاء بطنى . فغسلها بالثلج فانعم غسلها ثم أخرج قلبي فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها بيده يمنة كأنه يتناول شيئا فاذا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه نختم قلبى ثم أعاده مكانه ثم قال الثالث لصاحبه تنح فتنحي عنى فمر بيده على موضع الشق فالتأم ثم أخذ بيدى فانهضنى انهاضا لطيفا

وما كاد ينتهى رسول الله من حديثه . حتى وثب الكاهن من مكانه في فورة المجنون وضم رسول الله الي صدره . ثم صاح باعلى صوته . ياللعرب . اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه . فواللات والعزي لئن تركتموه فادرك، ليذلن دينكم ويخلفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط .

فشق الحرث عليه الصفوف وهجم على الكاهن في موقفه وانتزع من بين أحضانه رسول الله . وقال له

دع عنك الغلام . فانك أجن واعته منه واطلب لنفسك من يقتلك . فانا غير قاتليك. ثم احتمله وحليمة خلفه فرحة وذهب به الي منزله فاضجعاه ودثراه حتى يزول ما به من رعدة وخوف وجلسا أمامه يسرحان النظر فيه وهو يسرح نظره فيهما بعيون صافية كزرقة السماء وجبين مضيء

كوجه القمر ثم رفعوا ثيابه عنه فالفوا في بطنه مكان الشق كخط الشراك
فهمس الحرث في أذن زوجته وقال
أني لأخشي أن يكون غلامنا قد اصيب
حليمة ـ وماذا ترى ؟؟
الحرث ـ أن تلحقيه باهله قبل أن يظهر ذلك عليه

ـ ٩ ـ

« إذا ولد غلام بتهامة بين كتفيه »
« شامة ، كانت له الامامة ، ولكم »
« به الزعامة الى يوم القيامة »
عن كتب الاولين في ظهور النبي

دخل عليه حاجبه يستأذن لوفد قريش وسيفه بين يديه في مثل جلسة الاسد وفي مكان الواسطة من العقد تنتظم حباته من ملوك العرب وأقيالها تحمل اليه التهانى بالنصر وتقدم بين يديه تذكارات التقدير والاعجاب وهو في برديه الأخضرين يحدث مهنئيه بلسان العزة والفخر ، وينظر اليهم بعين حالمة من آثار موجات المسك والعنبر ، تفيض بها حجرة الملك في قصر غمدان العظيم

فهز (سيف بن ذي يزن) رأسه ايماءا بالرضا واشارة السماح والقبول فدخل عليه عبد المطلب جد محمد بن عبدالله على رأس وفد التهنئة من قريش . ثم دنى منه واستأذنه قائلا :

هل لقريش أن تتحدث بلساني بين يدى ملك اليمن الظافر
سيف ـ إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك . فقد أذنا لك

عبد المطلب ــ أيها الملك ان الله قد أحلك محلا رفيعا . صعبا منيعا . شامخا باذخا . وأنبتك فينا منبتا ، طابت أرومته . وعزت جرثومته . ونبل أصله . وبسق فرعه . في أكرم موطن . وأطيب معدن . فأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى به تخصب . وأنت أيها الملك رأس العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ اليه العباد . فسلفك لنا خير سلف . وأنت لنا منهم خير خلف . فلم يخمل من أنت خلفه ولن يهلك من أنت سلفه . نحن أهل حرم الله وسدنة بيته , أشخصنا اليك الذى أبهجك لكشف الكرب الذي فدحنا . فنحن وفود التهنئة لاوفود الرزية .

سيف ــ من فيهم أنت أيها المتكلم

ــ عبد المطلب بن هاشم

سيف ــ ابن أختنا إذن

عبد المطلب ــ طبتم من أخوال

سيف ــ مرحبا وأهلا . وناقة ورحلا . ومستناخا سهلا . وملكا ربحلا . يعطى عطاءا جزلا . قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم فأهل النهار والليل أنتم . ولكم الكرامة ما أقمتم والحيا (١) اذاظعنتم

ثم استأذنوا وخرجوا الى دار الضيافة وكلهم يفيض بالبشر ويحيط عبد المطلب بنظرات الاعجاب والتقدير ويطوفون حوله طوفة العابد

---

(١) المطر

ببيت الله الحرام . والوثني ببيت الاصنام . فأشار عبدالمطلب الي من معه يحدثهم قائلا :

انظروا الى أعمدة هذا القصر الغلباء . وسمائه الشماء . ودرجاته الملساء وأبهائه الفسيحة الارجاء .وحدائقه الغناء . إنناوالله فيمهبط الغنىوينابيع الثراء.ولعل هذا ماأطمع هؤلاء الاحباش المناكيد في هذه البلاد

أمية بن عبد شمس ــ وما الذي أطمعهم في بلادنا القاحلة الجرداء لانبت فيها ولاحدائق ولاماء . اللهم إلا تلك المروج الهزيلة والحفنة الآسنة من مياه الآبار والعيون

عبد المطلب ــ ان حملة الاحباش على مكة لم تكن إلا قصاصا وتره لما أحدثه « بن فقيم » بكنيسة صنعاء فسلط الاله عليهم طيرالبلاءوالوباء فجعلهم حرضا في الارض ومثلا في العالمين

ثم قطع الحديث عليهم أحد الاحباش وبادرهم بالتحية وقال :

ـــ نعم بالكم

ـــ اصوات سعد حالكم

ارياط ــ أنا مندوب المليك في خدمتكم مدة الضيافة

عبد المطلب ــ اهلابك وسهلا . . لعلك من رؤوس الاحابيش

نعم ــ هو هذا

وكيف ذلك بعد الذى حدث من حرب بينكم وبين اليمانيين

ـــ لقد كنت دائما في خدمة الحق ناقما على جرائم (مسروق) التى اقترفها مع بنى أخوالكم . فلما اتقدت نيران الحرب بين اليمن والاحباش كنت في صف الملك العادل سيف بن ذى يزن فاتخذنى من خلصائه وقدمنى في مجلسه واختارني نائبا عنه في خدمتكم

عبد المطلب ـ حسنا ما تقول . ولـكن كيف تم لـكم النصر مع سواد الاحباش وبأسهم ومهارتهم في ضروب النزال

ايارط ـ الفضل كل الفضل لا ساور كسرى في هذا الفتح المبين

عبد المطلب ـ وكيف استنصرتم هذا الرجل العنيد على أعدائـكم مع بعد الشقة بينه وبينكم وعدم الجدوي من مساعدته اياكم

ارياط ـ خرج وفد من اليمن على رأسهم هذا الملك الفاتح الي القسطنطينية للقاء القيصر بوستيانيوس واستنصره على الاحباش فقال لهم: الحبشة على ديني ودين أهل مملـكتي وأنتم على اليهودية فـكيف أساعدكم ؟ !

فخرج الوفد من لدنه كسير النفس ضيق الذرع ولـكن الرجاء فتح أمامه ثانية باب كسرى (أبرويز) فاستأذنوا عليه وقابلوه ووقف الملك بين يديه وقال:

— غلبنا الاحباش على بلادنا ـ أدام الله كسرى ـ وانا الاقرب اليك منهم فهم سودان ونحن بيض فانصرنا عليهم يكن لك في اعناقنا دين ويد . فاجاب أبرويز (علي لسان ترجمانه) إن بلادك بلاد مترامية الاطراف فلا أغرر بجيشي حيث لا منفعة منه لبلادى

فأظلمت الدنيا في وجهه وضاق الفضاء امام عينيه وخرج من لدنه كسيراً كئيبا فعرف من معه أمره ووقف الـكل خلف باب كسرى سكوتا كأنما هم على باب قبر يودعون عزيزاً لديهم في مقره الاخير ، ثم أرسل اليهم كسرى على يدي ترجمانه هدية من المـال فأخذها الملك غاضباً وخرج بها الى أسوار القصر وأخـذ ينثرها على الناس في حركة عصبية فتهافت الناس على التقاطها وانـكفأ بعضهم على بعض من أجلها وقامت

سيهم منازعات ومشادات أوصلت ضجيجهم الي اذان الحراس فخفوا
آراعا اليهم يتعرفون خطبهم . ثم سارعوا الى إعلام كسرى
لت اليه هديته . فاطرق قليلا ثم أمر باستدعاء الملك اليه فمثل بين يديه
وقال له :

لم فعلت هذا بهدية كسري ؟؟ فقال له ان جبال وطنى ذهب وفضة
وقد جئت الملك ليمنعنى الظلم ولم آته ليعطينى الدراهم فسكت كسري وقال :
سأنظر في أمرك . .

ثم خرج الملك يتنازع وجهه عاطفتان متعا كستان فأقبل عليه قومه
يستنطقونه سر صمته وتفكيره فابى إلا أن يشوقهم وأخذ
يفرك يداً بيد ويتمشي ذهبة وجيأة وهم حوله يتناهبونه ويتجاذبونه
بعيونهم ثم وقف وقال :

لقد وعد كسرى بالنظر في أمرى وأرجو ألا نعود الا في ركاب
جيش عرمرم .

فوقف بعضهم يهنىء بعضا ووقف البعض الآخر بقلوب معلقة بين
الخوف والرجاء حتى جمع كسرى رؤساء عسكره ورجال دينه وقال لهم
ما رأيكم في قضية هذا العربي جاء يستنصرنا على الاحابيش وقد رأيت
فيه رجلا جلداً فرد « الموبذان(١) » علي كسري وقال : سياوله عندنا حق
قديم فقد مات أبوه على باب كسري ينتظر البر بوعده في ذلك فقال
رئيس الجند ما ضرنا اذا أمر كسري بتجييش من في السجون واشخاصهم
الى الأحابيش فاذا انتصروا كان لكسري فضل النصر والوفاء بوعده وإن
هزموا فقد كفي كسرى على مملكته شرورهم .

---

(١) الرئيس الديني

فقال كسرى هذا هو الرأى . ثم أمر باعداد هذا الجيش وأمر عليه (وهرز) أعظم رماة الفرس وجهزهم بكل ما يجهز به جيش مستعد للنزال وحملهم في ثمان سفن فغرقت سفينتان ونجت اخواتها وجاء ملك اليمن اليوم على رأس جيش عربي فوضع يده في يد وهرز وتحالفا على النصر أو الموت ثم قامت الحرب على ساقها وتراشق الجيشان بالنبال حتى فر جيش الاحباش بعد أن شبع الفرس والحميريون فيهم قتلاو تذبيحا..وكان أمر كسرى بعد ذلك بتولية هذا الملك عرش ابائه وأجداده.

عبد المطلب ياله من حق قد عاد الي أهله وقصاص شفي الله به صدور العرب من أصحاب الفيل

أمية ـ لقد عرفنا السر في هذا النصر الذى يفخر به أبناء العرب في بطن الجزيرة . ومسح عار الهزائم الماضية وزاد في النكال بهم بعداسراب الطير الا بابيل

ارياط — حمداً لله فقد كنت إذ ذاك في سن لاتشجع على أن أكون بين أجناد هذه الحملة وإلا لذهبت مع من ذهب !!

عبد المطلب ـ ضاحكا ـ لقد كانوا وحقك يفرون فرار الخرنق (١) ثم يخرون صرعى في إهاب خاق مهلهل وأكثر ظنى أنه لم ينج منهم أحد

ارياط ـ أظن أنه قد نجا واحد أو اثنان فجاءا بكتاب الهزيمة إلى النجاشي وقد تسامعنا لك في ذلك شعراً جميلا يرويه حفاظ الشعر كابراً عن كابر

أمية ـ لقد ذهبت في أفق الجزيرة حداء وهزجا

ارياط ـ اسمعنيها وأبيك

فسكت عبد المطلب هنيهة غابت فيها عينه خلف محاجره ثم قال

---

(١) الارنب

لاهم إن المرء يمنـ ـع رحله فامنع رحالك
وانصر علي آل الصلـ ـيب وعابديه اليوم آلك
لايغلبن محـالهم ومحالهم أبدا محـالك
ولئن فعلت فانه أمر تتم به فعالك
أنت الذى إن جاءبا غ نرتجيـك له فذلك
لم أستمع يوما بأر جس منهمو يبغوا قتالك
جروا جموع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
عمـدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمرما .. بدا لك

* * *

وقف عبد المطلب بن هاشم حول اطلال سد مأرب يعجب لجناد له الـكبيرة وقطعه المتناثرة كأنها جبال صغيرة قد أطاح بها زلزال عنيف أو قذف بها بركان غاضب . ثم دنا ومن معه من بقايا الاحواض التى كان يستعملها اليمانيون قبل الميلاد لتخزين سيول المياه الجارفة تزحف عليهم من أعالي الجبال يتأملون رسومها البارعة ويعجبون لأشكالها وبنيانها وهندستها التى لايدرون ماذا يسمونها ويدهش لتلك الأعمدة الاسطوانية التى كانت تركز عليها قناطر شاهقة في العصور الخالية ليرتفع منسوب المياه خلفها الى درجة تساعدها على الزحف الي المدن والقرى للشرب منها وسقي الاراضي العالية . . وبينما يتحدث عبد المطلب عن هـذا البناء وعظمته قاطعهم (ارياط) القائد الحبشى قائلا :

وهذا هو سر ما كانت عليه هذه البلاد من ثروة ومجد فهنا وفوق

هـذه الارض الزرقاء كانت تنبت أعشاب العطور التى لا بد منهـا لحياة المعـابد والعبادة في الهيا كل المصرية فتحملهـا قوافل التجار الى مصر وسوريا وبابل وتعود محملة بذهبها النضار وهـذه الاخرى أشجار المر بما فيها من خصائص التطبيب تنقل الى مصر وفلسطين وقلب الجزيره . ويعود تجارها بخيرات هذه البلاد

عبد المطلب ـ لقد حسبنا أن الهياكل الستين ومدهشات مأرب وأعمدة الرخام وأطلال الابنية الفخمة المقامة هناك بالقرب من «نجران والغراب» آخر ما وصل اليه مجد اليمن في الازمنة الغابرة وما بلغته من التقدم والرفعة فجاءت بقايا سد مأرب وأطلال الاحواض القريبة منه مزرية بكل ما تقدمها

ارياط ـ ليت هذا السد لم تتصدع جدرانه ولم يتهدم بنيانه لتظل مملكة سبأ ودولة الحميريين تاج الجزيرة الذهبي ولكن هكذا الشأن في كل أمة تفيض ثروتها عن حاجتها فتطيح بأخلاقها وتقطع الاسباب والروابط بين أبناء البطون والافخاذ .

لقد خلق هذا السد من مملكة سبأ جنات ورياض وبساتين وغياض وحياة هنأه وسعادة وارفة فغرقوا في بحر شهواتهم وراح الزمن ينخر باظافره في هذا السد حتي تخرق وتداعى فاغرق السيل البلاد وطغى على أخضرها ويابسها وإن كانت لايزال بها من هذه الثروة مقدار الذماء (١)

عبد المطلب ـ كأني بك يا ارياط تعامت عن أحبار يهود ورهبان النصاري تاريخ الاولين . .

---

(١) القشرة الرقيقة التي تلتصق بالعظم

ارياط ـ ليس هذا فقط، فقد رحلت إلى القسطنطينية واختلفت الي مجامع علمائها وأخذت عنهم الكثير مما يعلمون

عبد المطلب — لله أبوك لقد أصاب بك الملك كنزا ثمينا ووقع علي صديق حبر ومخلص عارف بتاريخ بلاده

أمية — وما هى سبأ هذه التى ذكرتها، أهي امرأة أم مدينة؟

ارياط ـــ هـذه هي المملكة المعروفة في التوراة .. حكمتها الملكة بلقيس التى أرسلت بهديتها الثمينة الي سليمان بن داود لتعجم عوده وتسبر غوره وكان له رده القوى القاطع .

وقد كان لمملكة سبأ في عهد بلقيس فلك يمخر عباب البحر بتجارة البلاد كما كانت لها سلسلة من القوافل المنظمة لتحمل المتاجر بطريق الصحراء الى الشام ومصر وفلسطين .

* * *

قضي عبد المطلب ومن معه في ضيافة ملك اليمن شهرا وكلما استأذنوه في الانصراف الي بلادهم استبقاهم في ضيافته يبالغ فى اكرامهم ويضفى عليهم من ضروب الحفاوة ما أثقل كواهلهم وهم لا يدرون سر كل هذا التكريم ..

ثم استدعي الملك عبد المطلب يوما وقد أخلى مجلسه من كل خلصائه وبطانته ثم أدناه منه حتى قارب وجهه وجهه وقال له :

يا عبد المطلب اني مفوض اليك من سر علمي أمراً لو يكون غيرك لم أبح به . ولكنى رأيتك موضعه . فاطلعتك مطلعه . فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه . فان الله بالغ أمره . اني أجد في الكتاب المكنون

العلم المخزون. الذى اخترناه لانفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطراً جسيما . فيه شرف الحياه وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة ..

عبد المطلب — مثلك أيها الملك من سر وبر فما هو فداك أهل الوبر والحضر زمرا بعد زمر

سيف — اذا ولد غلام بتهامة . بين كتفيه شامة . كانت له الامامة. ولكم به الزعامة إلي يوم القيامة

عبد المطلب ـ أيها الملك لقد أبت بخير ما آب بمثله وافد . ولو لا هيبة الملك واكرامه واعظامه. لسألته أن يزيدنى في البشارة فأزداد سرورا

سيف ـ هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد . يموت أبوه وأمه . ويكفله جده وعمه . وقد وجدناه مرارا والله باعثه جهارا . وجاعل له منا أنصارا يعز بهم أولياءه . ويذل بهم أعداءه . يضرب بهم الناس عن عرض . ويستبيح بهم كرائم الارض . يخمد النيران . ويدحر الشيطان ، ويكسر الاوثان ، ويعبد الرحمن ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله . وينهى عن المنكر ويبطله

عبد المطلب ـ أيها الملك عز جدك وعلا كعبك ودام ملكك ، وطال عمرك . فهل يخبرني الملك بافصاح بعد أن أوضح لى بعض الايضاح

سيف ـ والبيت ذى الحجب . والعلامات والنصب. انك ياعبد المطلب لجده من غير كذب

فخر عبد المطلب ساجدا .. فقال الملك :

— ارفع رأسك ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرته لك ؟

، عبد المطلب ـ أيها الملك . كان لي ابن وكنت به معجبا وعليه مشفقا حدبا . زوجته كريمة من كرائم قومه اسمها آمنة بنت وهب بن عبدمناف فجاءت بغلام بين كتفيه شامة . وفيه كل ما ذكرت من علامة . وسميته محمدا . مات أبوه وأمه (١) وكفلته أنا وعمه

سيف ـ الامر ما قلت لك فاحتفظ بابنك . واحذر عليه من اليهود فانهم له أعداء . ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . فاطو ما ذكرت عن هذا الرهط الذي معك . فاني لا آمن من أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لهم الرياسة . فينصبون له الحبال ، ويطلبون له الغوائل . ولولا إني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مهاجره . ولولا اني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات . لاعلنت أمره على حداثة سنه . وأوطأت أقدام العرب عقبه

ثم أمر الملك لكل واحد ممن معه بعشرة أعبد وعشرة اماء سود وخمسة أرطال فضة ، وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوء عنبرا . وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك

ثم عاد وفد قريش الى مكة وقال عبد المطلب لاصحابه قبل أن يغادرهم

لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر فانه الى نفاد ولكن ليغبطني بمن سيبقي لي ذكره ويسود بين الناس أمره

أمية ـ وماهذا ياعبد المطلب

عبد المطلب ـ سيظهر وستعرفونه بعد حين

---

(١) ماتت وهي في طريقها الى مكة بعد ان زارت قبر زوجها عبد الله بالمدينة ودفنت « بالابواء »

ولدت في زمن

العادل كسرى

« حديث »

وقف الجزاة (١) خلف باب كسرى حياري مشدوهين يفلون في رءوسهم أفانين الروايات ويقلبون وجوه الصور التى يمكن أن تقع من نفس كسرى موقع الرضاء والارتياح وينتظرون الساعة التي يمكن أن تطمئن فيها نفسه وتهدأ . للدخول عليه لأن مرزبانة (٢) حدثهم أنه مهتاج النفس ثائر الاعصاب . يتمشى في العرش ذهبة وجيأة يقرأ ويعيد في كتب جاءته من عمال الأقاليم بانطفاء النار في كل معابدها مع وفرة الوقود ومعالجة قطانها (٣) لها للاشتعال دون جدوى أو فائدة .

وكلما أطلوا من ثقب بابه اطمئنانا للدخول عليه ألفوه يحدث نفسه ويضرب الارض بقدمه ويلوح في الفضاء بسيفه .. حتى إذا أتعبته هذه الحركات وأنهكته هذه الانفعالات . جلس على حافة العرش . مستوفزا مأخوذا ، يعيد النظر في وريقات بيده ثم يلقى بها الى ناحية من المكان ثم يعود الي مثل هذه الحركات والى تحديث نفسه فيسرى الرعب في أجسامهم سريان الكهرباء . وتتخاذل سيقانهم حتى كأن بهم نوبة من الرحضاء (٤) فيسأل بعضهم بعضا عن طريق للخلاص وحيلة للنجاة من مخالب الشر الذي ينتظر الجميع .

---

(١) السحرة والمنجمون والكهنة (٢) رئيس حرسه
(٣) خدامها الخصوصيون (٤) الارتعاد مع شيء من العرق

٨١٠

ولكن واحدا منهم لم يكن يملك رأسا يهيء فيها فكرة . أو لعابا يساعده على تحريك لسانه . فلا ترى الا عيونا زائغة . ووجوها ساهمة . ورءوسا مطرقة كأنهم واد من البكم تعوزهم الاشارة . أو شريط صامت ينقصه الصوت والعبارة .

وبينما هم على هذه الحال لا يستطيعون الانصراف لأن كسرى قد أرسل في طلبهم، ولا يستطيعون الدخول عليه. لأنه حانق مهتاج . استدعى مرزبانه اليه وسأله . هل تكامل عدد الجزاة ؟

فكان الجواب بالايجاب

فصاح في وجهه . وقال :

- على بهم . . . صيحة رددتها جوانب القصر وهرع لها كبار الحرس من كل جهاته .

فخرج المرزبان ممتقع اللون ودعى الجزاة للدخول على كسرى . وكانوا قد سمعوا صيحته في وجه مرزبانه . فدارت بهم الارض . وبلغت القلوب الحناجر . وسقط بعضهم من البهر (١) على المقاعد وتشاغل البعض بتنظيم ردائه وتسويته وأخذ بعض آخر يستند إلي ذراع جاره من الاعياء . وراح فريق ثالث يتظاهر بتثاقل الهرم . فدفعهم الحرس الي الداخل دفعا فمنهم من تعثر في ازاره وسقط . ومنهم من هرول الي حيث وقف كسرى بحركة لاشعورية ومنهم من اصطدم بالباب لما ران علي عينيه من شدة الخوف . وكسري بين هذا كله كالقائد الصنديد تتساقط الضحايا حول أقدامه وهو في مكانه يضبط أعصابه ويحزمها . .أو كالتمثال الاشم صامتا متجهما للجميع وهم حوله خاشعون صامتون

---

(١) سرعة التنفس

ثم تحرك التمثال ودار حول نفسه والسيف في يده هدفا للعيون ورعبا للقلوب التي في الصدور ثم انفرجت شفتاه عن أسنان يعرك بعضها بعضا ثم هبط صدره المرتفع عن زفرة كأنها زفرة بركان ثائر وشرع سيفه مع لسانه وراح يهدر كالغدير قائلا :

بالأمس تشقق ايوان كسرى . فرحتم تستقسمون الازلام وتستحضرون الجن وتحسبون النجوم ثم جئتم الي بقصة بناء القصر علي النحوس وأنه يجب أن يبنى على السعود حتى سقطت منه اليوم أربع عشرة شرفة رغم بنائه على سعودكم التى اقترحتموها ! وبالامس جاءت الانباء من عمال الاقاليم تروي انطفاء النار في جميع معابد المملكة وفيضان وادي السماوة حتى أهلك الحرث والنسل بينما غاضت بحيرة ساوة المقدسة التى كانت معينا للطب وموردا للشفاء فاجتماع ذلك كله في ظروف متقاربة لا يدل الا على حدث عظيم في الارض . ترفضون البوح به رغم ما أفيضه عليكم من نعم. وأجري حولكم من خيرات . فاما أن تكونوا عصبة من الدجاجلة المهرة وأما أن تكونوا على علم بهذا الحدث الهائل ، وضننتم على بنبئه وجحدتم آلائي ونعمائي . وفي الحالتين لا تستحقون عندي الا أن تموتوا على شفرة هذا السيف

لقد انطفأت أنوار الالهة المعبودة في مملكة الممالك وخبت نيرانها الدافئة المطهرة فلم يعد لكسري ولا لشعبه معبود يعبد وغاضت بحيرة البركة والخير والنعيم فلم يعد في المملكة طب أو دواء ولا خير ولا بر وانشقق ايوان المملكة مرتين بعد هذا الجهد المتواصل والزمن الطويل. والذهب الوفير . فلم تعد لنا عزة ولا كرامة ولم يعد لما أنفق عليكم من ... وي ولا لوجودكم من فائدة

ماذا يقول الناس - ياأجراء السوء وسلالة الافاعي .. عن عظمة كسري وتسكهن جزاته وما آلت اليه حالتهم وانتهى اليه عجزهم عن اشعال نار الالهة المعبودة . ثم صاح فيهم :

خبروني .. نبؤوني .. حدثوني .. لقد طاش عقلي وجن جنوني

فاراد الساحر العربى « نوفل » أن يتحدث معتذرا له عما فرط . فصرخ في وجهه وهجم عليه وضربه على يافوخه بسيفه فخر على الارض. وأهاجت رؤية الدم شراسة كسري. فراح يرتفع بسيفه ويهوى يمنة ويسره حتى أعياه التقتيل فجلس على سريره منتفش الشعر . محلول الرداء مزبد الفم . مبهور الانفاس وحراسه حوله مرهفو الاحساس مستعدون نلوثبة مشرعون كالسيوف صامتون كالتماثيل فوق نافورات من الدم السخين

ثم عادت انسانية كسرى اليه وفاءت عاطفة الانسانية عليه وغدت الرحمة الي فؤاده وآوت الشفقة الي جنبيه . فامر بنقل القتلي والعناية بالمصابين وعاد يتحدث الي من كتب لهم أجل جديد ولم يكن قد بقى منهم الا أشباح صفراء وهيا كل هزيلة . التصق بعضها ببعض، كتلة لحم واحدة وزاغت أبصارهم كأنهم في يوم الحشر

أطرق كسرى طويلا ، ثم أخذ يتحدث الى نفسه في صوت حزين ويقول :

خطب مدلهم . خرب ايواني ، وطغى على أرضي ومزارعي، وذهب بوجود ربي ومولاتي ، الامر الذى لم يحدث منذ ألف عام . وأخيرا أطاح برءوس علماء المملكة . وأرواح البطانة .

بدأ كلامه كذلك في صوت متهدج ثم أخذ في الضعف والخفوت حتى كادت تخنقه عبراته ويجهش بالبكاء . لولا أن أخذته العزة بالاثم . فامتنع علي الدمع واستعصم ثم استحال الي بخار يزفره كلهب الاتون

ثم حلقت سحابة من الصمت علي المكان وسادت فترة لم يكن في الوجود من هو أشقى من هؤلاء الجزاة المكدسين في زاوية من الحجرة ينتظرون الموت بين طرفة وأخري وليته يسعى عاجلا اليهم فيستريحون من شبحه المخيف . أو يهبط علي قلب السفاح سحابة الرحمة والحنان فيهبهم حياتهم . ويرد الي صدورهم الطمأنينة والهدوء... وكأن الله قد استجاب الى نداء قلوب لا تعرفه ورحم عزة دانت لسواه. وأنقذ نفوسا تتأوه وتستغيث بقوة خفية لا يجيدون التعبير عنها . ولا يعرفون طريق الوصول اليها . وان دقت أحاسيسهم لها . .وأحس شعورهم بوميضها حينا بعد حين .

ثم التفت كسرى الى الجزاة وقال لهم . . سأعفو عنكم مؤقتا علي أن تنظروا في أمرى وأمركم . وشأني وشأنكم . وحذار أن ينطلق عفريت الكذب من عقاله مرة ثالثة والا أطحت برءوس الجميع فليراجع الحذاء (١) نجومه وليناقش الكاهن أزلامه وأوثانه . وليتحر الساحر أخبار تابعه والا فالمصير المحتوم ينتظركم. وهو المآل الذي سار اليه اخوانكم

وبينما كان كسرى يتحدث اليهم بلهجة يمازجها شعور بالاسى ونبرات الحزن . كان برد الاطمئنان يسرى في أجسام الجزاة فخف ضغط بعضهم على بعض.. وعادت كتلتهم تتحلل إلى وحدات مستقلة تسعى . كما يتحلل الجليد تحت وطأة الحرارة او كما تنتفش أوراق الكمائم تحت قطرات الندى أو حرارة الشمس .. ثم أذن لهم في الانصراف فخرجوا احياءاً بعد أن دخلوا أمواتا بل انصرفوا يحملون حياتهم بعد أن كادت تماع وتتبخر

* * *

دخل (رستم) على الجزاة وهم مجتمعون في حجرة الموبزان يتذكرون

---

(١) المنجم

أمرهم : ويستعرضون رؤاهم وحسابهم . أشبه ما يكونون بالهرر المجتمعة حول بقايا المائدة تفزع لاي صوت . وتشخص من أية حركة ولا تكاد تسمع لهم صوتا . أو تحس لهم بوجود . حتى دخل عليهم رستم وا بتدرهم التحية فردوا بأحسن منها ولرستم مكانة كبيرة في الدولة ومنزلة ممتازة فأنسوا بوجوده . واطمأنوا لحضرته . وراحوا يحيطون به احاطة الابناء بأبيهم والتلاميذ بأستاذهم ليسمعوا منه آخر أنبـاء المملـكة وأخبار كسرى فقال لهم :

لقد صدر اليوم أمر كسري بتطهير البلاد من المزدكية (١) ما بين (جازر) إلي «النهروان» ثم (المدائن)

الحرث ـــ يا للفظائع الدامية !

سابور — يتظاهر بالربت على كتف « السائب » ثم يضغط عليـه اشارة له بعدم التدخل في أوامر كسري او الهجوم علي تصرفاته . ولـكن هذه الحركة لم تزد «السائب» الذى شهد مذبحة الامس إلا تهوراً وسخطا علي تصرفات كسرى وأوامره الدامية وقال :

لقد قتل كسري من اخواننا بالامس مائة نسمة في جلسة واحدة . ثم يصدر اليوم أمره بذبح المزدكـية في جميع أنحاء المملـكة كأنما يريد أن يبقى وحده ولو خرب العالم بعد ذلك

سابور — أما مجزرة الامس ياسائب فنحن شاحذوا مديتها ومقدموا ضحاياها والا فما كان ضرنا لو أصدقنا كسرى و كاشفناه أسرارنا . وأنبأناه بما علمناه عن أسباب انشقاق الايوان وخمود النيران

الحرث ــ وكيف نكاشفه الحقيقة وننعى اليه ملـكه وعزه وعرشه ..

---

(١) نسبة الي مزدك الاباحي المعروف في التاريخ الفارسي

فلا يجد ما يرد به علينا الا ان يعرض رءوسنا على شفرة سيفه

سابور ـ وهل فرش بالامس تحت اقدامنا الورد والريحان. حين ابهمنا عليه الحقيقة ـ أم طاح برءوس مائة ؟

السائب ـ واذا كان هذا ذنبنا فما ذنب هؤلاء الذين أمر بذبحهم من جازر الي النهروان ومنهما الى المدائن

سابور ـ لك معاذيرك فأنت رجل غريب عن هذه الديار ، ولوانك علمت ماتقترفه هذه الطائفة وما ارتكبه رئيسها من زندقة وتخريب لحملت سيفك وذهبت مع حملة التطهير التي ستقوم بهذا العمل الجليل

لو علمت أن هذا الكلب يدعى أنه تلميذ زرادشت . وانه يشرع بدين ابراهيم . ثم فى الوقت نفسه يحرم ذبح الحيوان اكتفاء بما تنبته الارض من بقول وخضر وما يتولد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجبن . وليت هذا فقط بل كان يدعو الي توزيع الثروات بين الناس بالسوية . حتي تموت الفوارق . وتختفي نعرة التفاخر بالفضل . وليس هذا فقط بل كان يدعوا الي اباحية الاعراض فللرجل ماشاء من نساء . وللمرأة ماشاءت من رجال قرضا او اباحية أو ماتشاء من تسمية حتي اصبح الولد لايعرف اباه والوالد لايعرف ولده فعمت الفوضي وساء الفساد في المملكة وتحكم الرعاع والسوقة وبيعت الاعراض وتفه الشرف ورخص ماء الحياء

ثم ضحك ساربو وتابع حديثه قائلا :

ـ على أن لكسرى فوق ذلك كله ثأرا خاصا عند (مزدك) فقد حدث في عهد كسري « قباذ » ان دخل عليه مزدك ولديه زوجته أم كسرى

انو شروان فاستملحها وسال عليها لعا بها قال (لقباذ) اليوم نوبتي في امرأتك . فقال له :

ـ اليك خذها

فقام اليه ولدها أنوشروان وأخذ يستعطفه ويتوسل اليه أن يعفي أمه من ذلك . واللئيم ينظر اليها ويبتسم . ثم خر أنو شروان على قدمه فقبلها ليترك أمه دون ارتكاب الجريمة المنكرة فرضى في نهاية الأمر . وأسرها كسرى انو شروان في نفسه له .

فلما تولى كسرى ملك أبيه (قباذ) أباح للناس الدخول عليه للشكوى والتقاضي ودخل عليه (مرذك) والمنذر بن ماء السماء فيمن دخلوا فتوجه أنو شروان بالخطاب اليهما وقال لهما :

ـ كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله عز وجل قد جمعهما الي ، فقال له مزدك :

ـ وما هما أيها الملك ؟ . فقال له كسري :

ـ أن أملك ملك أبي لاستعمل هذا الرجل الشريف (يقصد المنذر) عاملا على الحيرة كما كان ، جزاء وفائه لدينه ورفضه لدينك مما سبب له عزله من امارته بسبب دسائسك له عند والدي . أما الثانية فهى أن أقتل جميع المزدكية . . فقال له مزدك :

ـ كان الملك يريد أن يقتل جميع الناس . فقال انو شروان :

ـ وانك برغم هذا تتحدث ههنا يابن الزانية . والله ماذهب من معطسي رائحة جوربك منذ قبلت قدمك لاعفاء أمي الي الآن . ثم قال في حدة صارخة:

ـ خذوا هذا الكلب فاقتلوه . فقتل . . وها هو كسرى قد أصدر أمره اليوم لتطهير البلاد من أتباعه

وهران ـ لقد حولتم المجلس الى مدرسة للتاريخ وفوتم علينا الاستماع الى الانباء التى يهمنا شأنها

فبرز من المجلس (زاده) أحد خلصاء الملك . وكان مختبئا بينهم يستمع الي حديثهم ويتلمس انباءهم ليحملها الى كسرى وأراد أن يفاجأهم ويضبطهم متلبسين بجريمتهم

فلما رأوه صعقوا في اماكنهم وجحظت عيونهم وفغروا افواههم كالبله وكان أشدهم ارتباكا (رستم) الذى سمح بأن يحمل في مجلسه على كسرى وان كان قد قام بواجب الدفاع عن تصرفاته

ثم وقف (زاده) محتدا وتوجه بالحديث الى الجزاة وقال

وهل بعد هذه الاكاذيب تغررون بها مولاي وبعد أن عفي عنكم دون الذاهبين ومنحكم حق الحياة — لايزال بينكم من ينتقد تصرفاته العادلة حقا انه للؤم ودناءه .. ثم انصرف غاضبا وترك الجميع تدور الارض بهم حيارى لا يدرون ماذا يفعلون . . ثم حلقت سحابة الرعب والاحزان على المكان . وراحوا يسبحون في بحر من الاوهام وينتظرون الموت بين ساعة واخرى حتي استطاع (وهران) أن يجمع شجاعته وان يشق هذا السكون ويقول :

لا تطيلوا التفكير فما قدر يكون .. ولابد لنا ان نسمع من رستم بقية الانباء فأطرق رستم قليلا كأنه يستفتي قلبه الواجف ويستمع الى وحى معين وقال في رنة حزن عميق .

— (للسائب) العذر في مثل هذه الاسئلة فانه غريب عن هذه

الديار على انه لا يفوتني ان اذكر لـكم إن الموبزان الاكبر قد رأي رؤيا غريبة لم يستطع أحد تأويلها وقد تحدث الى كسرى عنها فأهمه الامر وكتب الى عامله النعمان بن المنذر ان يرسل اليه رجلا عالما بما يريد أن يسأله فيه . فوجه النعمان الى كسري من يدعى « عبد المسيح » ولـكن حتي عبد المسيح لم يستطع تأويل رؤيا الموبزان . واستأذن من كسرى في عرض هذا الامر على خال له بالشام يقال له « سطيح » يزعم انه استاذ الرهبان وأمام المحدثين عن علوم بني اسرائيل

سابور ـــ لقد سقطت ثقة الملك بكم !! والا لما ارسل الى سطيح ابن اخته عبد المسيح .

وهران ـــ وكم تـكون المصيبة أعظم لو تشقق الايوان بعد دسكرته واصلاحه وبعد أن الصقنا أمر تشققه أولا الي النحوس . وثانيا الي الخطأ الذي لا يسلم معه أحد !! ولا أدرى ماذا نقول وقد تشقق للمرة الثالثة ؟؟ الذى لاشك فيه انه سوف لا ينجو منا أحد ..

سابور ـــ واذا لم يكن من الموت بد . فمن العجز أن لا نقول الحقيقة ..

رستم ـــ ولماذا تقدرون كل هذا الهول ما دامت هناك حقيقه منجية ان هذا الرجل لا يخنقه شيء بقدر ما يحقنه الـكذب

***

تشقق الايوان للمرة الثالثة . وهبطت حجرة العرش هبوطا اخـل بتوازنها. وعلم الجراة بذلك فراحوا يأتمرون (١) على ما يقولون وقد

---

(١) يتشاورون في شكل مؤتمر

طار صوابهم . واضطربت أعصابهم . ويئست نفوسهم . ولكن هيهات أن يجدى الاضطراب . أو يثمر اليأس . ومالبثوا وهم هكذا حيارى حيرة البعوض في سحب الدخان . والنحل حول السنة النيران ، حتى صاح بهم الحراس لمقابلة كسرى . ولم يدعوا الذهول والارتباك أو الاتزان والتثبت يأخذ طريقه اليهم بل دفعوهم الي بابه دفعا عنيفا .. وما صافح وجوههم وجهه . حتى صاح فيهم وقال

والله لاقتلنكم أو لتصدقوني أمرى فأرى رأيي بعد ذلك

السائب — يرتجف — والله لقد بت ليلة على ربوة عالية . فرأيت برقا من قبل الحجاز وقد استدار حتى بلغ المشرق ولما أصبحت رأيت الارض تحت قدمى قد اخضرت وما أرى الا أن سيخرج من الحجاز سلطان يبلغ المشرق . وتخصب عليه الارض كأفضل ما أخصبت على ملك

سابور — يرتعد — وما رأيت أيها الملك منذ ليال الا انجما تتدلي في مثل حبال من النور جهة الحجاز . حتى كادت تلامس المنازل ولا أرى فيما اعتاف (١) الا ما رأى السائب

ثم دخل (مرزبان) الحرس وأخبر بحضور عبدالمسيح من بلاد الشام فأذن بدخوله ثم قال له

ما وراءك يا عبدالمسيح

عبدالمسيح — حدثني سطيح وهو على فراش المـوت وقال (بعثك ملك ساسان ، لا ارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المـوبزان ، رأى ابلا صعابا . تقود خيلا عرابا ، قطعت دجلة وانتشرت في بلادها

---

(١) اتفير

يا عبدالمسيح . اذا كثرت التلاوة . وبعث صاحب الهراوة (١) وفاض وادي السماوة . وغاضت بحيرة ساوه . وخمدت نيران فارس . فليست الشام شأما يملك فيهم ملوك وملكات . على عدد الشرفات (٢) وكل ماهو آت آت)

فأطرق كسري حزينا مغتما ثم قال في صوت متهدج

الى ان يملك منا اربعة عشر ملكا . تأتي أمور وتذهب أمور

---

(١) العصا — ويقصد الرسول صلى الله عليه وسلم

(٢) عدد الشرفات التي سقطت من الايوان ١٤



يجمع هذا الباب بين رحلته عليه السلام
الى الشام بتجارة عمه ابي طالب ثم رعايته
الغنم وحضوره سوق عكاظ ثم رحيله الي الشام
بتجارة خديجة فتزوجه بها ثم حضوره مع
أخواله حلف الفضول في دار عبدالله بن جدعان.

« فلو قد جاء البرقليطس (١) هذا الذى »
« يرسله الله اليكم من عند الرب خرج، فهو »
« شهيد على، وأنتم أيضا، لانكم قديما كنتم »
« معى في هذا ، قلت لكم لكيما تشكو »

عن السيد المسيح

جلس الراهب (بحيرا) قبالة الهيكل وبسط الانجيل في يده يقرأ فيه على ضوء كوة في صومعته المعتمة تملأها دوائر البخور الشذية تنبعث من موقدة في شكل حلقات متصلة ثم تستحيل في سماء الصومعة سحبا متكاثفة فتزيدها ظلمة ، والراهب لا يفتر عن القراءة جاهدا والكون حوله في هدأة وسكون لا يعكر صفاءه عليه الارغاء ابل مسافرة فلم يأبه لها كثيرا ظنا منه أنها سحابة صيف لا تلبث أن تمر ثم يعود الجو الي هدوئه وصفائه . لكن الرغاء لم يخفت ولم ينتقل بل زادته أصوات الحداة جلبة وضجيجا حتى استحال على الراهب أن يتابع تلاوته أو يواصل اطلاعه وقراءته . فأطل من كوته على مبعث الضجيج والجلبة . وراح يسرح نظره في الركب فاذا بتقاسيم وجهه تستيقظ فجأة واذا بحاجبه يرتفع . وعينه تجحظ واذا بيديه تحازى منكبيه كأنه مسلم ينوي للصلاة لولا ماعليه الراهب من دهشة وعجب ثم راح بعد ذلك يشير بسبابته ويحدث نفسه ويقول :

هو بعينه ! ازهر اللون . واسع العينين . متصل الحاجبين . مبسوط

---

(١) كلمة يونانيه معناها احمد ، وما ذلك الا لتطابق الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى حكاية عن نبيه عيسى (ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه احمد)

الجبين . عريض الصدر على حداثته . شثن (١) الـكف . وهاهي الغمامة تظله أينما غدا أو راح . والشجر يحنو عليه وينحني اذا أسند ظهره الي ساقه نظرته الى الاشياء مبعث تأمل وتفكير . وأمره في الركب انجيل وشريعة رغم وجود من هو أسن منه

ياله من يوم سعيد أن أرى نبي هذه الامة في اهاب هذا الحدث انها لتطابق أوصافه وانها لتطابق ماجاء فى الانجيل

ثم وضع يده تحت ابطه وسكت هنيهة . وان كانت عوامل التفكير لاتزال تتناهبه وتثقل رأسه . وتشحب وجهه ثم عاد فوضع سبابته عند صدغه . كأنه يتذكر شيئا وقال

ولـكن بقيت علامتان لو تفقدتها فوجدتها لـكان هو سـيد هذه الامة بعينه وما الحيلة الي ذلك الا ان أدعو الركب الى طعام . قد يكون خشنا في نظرهم أو دسما . ولـكنه على أي حال هو وحده الوسيلة الي تعرف ذلك وهو الطريق الى ماحدثنا عنه كتاب بن مريم العذراء سيما وقد حطوا رحالهم وحلوا متاعهم . وأخذوا من جواري مستظلا ومستناخا فلا ضربن عصفورين بحجر واحد ولأجمعن بين التعلم والتكريم

ثم نزل من صومعته واستقبل سيد الركب أبا طالب وتعرف اليه ثم سلم على محمد الصغير ورؤساء القافلة ثم أخذ يتحدث مع أبي طالب عن اتجاه الركب ومهمته

وبينما كانت شفته مشغولة بالحديث معه كانت عينه تغدو وتروح في حركات رسول الله وسكناته وملامحه وتأملاته .

---

(١) غليظ

فقبل النبيل أبو طالب دعوته ثم استأذنه الراهب في الانصراف ليعد عدته

ثم أخذ أبو طالب يفكر في سر هذه الدعوة وما الداعي اليها وما عرف الكرم طريقه إلى هذه البلاد من قبل وما عرفت منازل الرهبان قبل ذلك بأنها موائد للضيفان . وهم هؤلاء الزاهدون في الدنيا وأهلها البعيدون عن زخارفها ومترفاتها . اللائذون بركن العبادة عن غمار الناس وأخلاطها .. ولكن ليس غريبا أن يوجد في بلاد الشح كريم . وان يحل بين الرهبان عظيم يدرك أن الزهادة ليست في التجاهل بما يجري في الميدان وان الورع ليس في التخلص من مبعث الشهوات في الانسان ولكنه مجالدة وجهاد واختلاط وامتزاج ودراسة وتأمل . ثم تعفف وعصمة وحرمان ولعل لتأملاته — وهو حبر هذه البلاد — في ابن أخي علاقة بذلك وسرا فما حل محمد بمكان الا كان له فيه نبوءة . وما وقعت عينه على شيء الا اضفى عليه سرا فلعلها حلقة من هذه السلسلة التى لا تنقطع . ونفحة جديدة من نفحاته التى لا تنفد .. انها والله لاحدى حسنات عبد المطلب على ولده . ان يعهد الى بكفالة محمد . وانها لاحدي المكرمات أن يتشبث محمد بصاحبتي . وكنت لا أرى ذلك اشفاقا عليه من وعثاء السفر وهاجرته فاحسن الله الينا به بالرغم منا . وتتابعت بركاته من كل ناحية علينا وعما قريب سينكشف كل شيء حولنا .

ثم جاء وقت الغداء ومدت الموائد حافلة بهدايا النصارى الى عالمهم وامامهم ودعى (بحيرا) الصغير والكبير والاحرار والعبيد فجاءوا جميعا وتخلف رسول الله حياءا في الرجال لحداثة سنه فلما أجال (بحيرا) نظره في القوم لم يجد بينهم محمدا الذى أولم الوليمة من أجله فخشي أن

ـعوه بشخصه أو اسمه فيدرك القوم مأربه وقد يؤفوتون عليه غرضه
ـال :

يامعشر قريش لا يتخلفن منكم عن طعامي احد

فقال له أحدهم .

ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك الاغلاما هو أحدث القوم سنا فقد تخلف حياء من الرجال .

فاغمض بحيرا عينه وعلا وجهه بعض الـكدر وقال :

لا تفعلوا . أدعوه فيحضر هذا الطعام معكم .

ثم انتصر لرأيه آخر وقال :

انه للؤم بنا أن يتخلف عن طعامنا بن عبد المطلب بن هاشم ثم لا ندعوه اليه.. ثم انتصب واقفا وذهب الي الرجال واحتضن رسول الله ثم حمله الي حيث الطعام وأجلسه عن يمين (بحيرا) بينما اخذ يحدثهم عن سماحة المسيحية وأخبار المسيح .

ولم يقصد هذا النوع من الحديث الا لمجرد انه يستظهره . فلا يحتاج معه الى تفكير أو انتبـاه ليستطيع أن يضع رسول الله موضع دراساته وتأملاته . ويزن حديثه وبوادره وكلما بدرت من رسول الله بادرة أو أي حركة أو تحدث حديثا ازداد الراهب اقتناعا بأن هذا الشاب لا بد أن يكون محمدا وان كانت هناك علامتان لا يزالان يشغلان حيزا من ذهنه ـى فيهما مسك الختام ، وان كانت احداهما رهينة سؤال لابي طالب ـوى النفس النبيل الشمائل ، أما الثانيـة فتلك التى أخذ يفلى من أجلها ـله ويستعرض لها أحابيله

ثم توجه الى أبي طالب وقال :

« — يا أبا طالب أسألك بحق اللات والعزى (١) الا ما أخبرتني عن علاقة هذا الغلام بك فغضب رسول الله غضبة ظهر أثرها على وجهه الزاهر وقال لبحيرا :

— بحقك لا تقسم أمامي باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا بغضي لها ثم كان أقل الجميع طعاما . وأسرعهم قياما . لا ندري أمن تأثير الغضب أو الشعور بالشبع ... فرد عليه وقال :

— انه ابني ..

فقطب (بحيرا) جبينه وراعته دهشته كتلك التي تروع الباحث حين يرى ان النتائج جاءت على عكس المقدمات ومغايرة لما كان ينتظر . ثم عاسكت نفسه وقال في استغراب :

— ابنك ؟ ؟ !! وكيف ذلك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا

ابو طالب — انه ابن أخي وقد مات أبوه وأمه حبلى فكفلته بعد جده الذي احتضنه منذ صباه

فاستقرت نفس بحيرا في صدره وزالت من جبينه خطوط الاستغراب والدهشة التي كانت. وقد ارتسمت عليه عوامل الاطمئنان والهدوء .

وان كان ما برح مشغولا بالعلامة الطبيعيــة الاخيرة في رسول الله ثم أخذ يحدث أبا طالب في هذه المرة عن التجارة وأصنافها وأرباحها وما تتعرض له .. ثم عن أقمشة الشام وحريرها . ثم قال :

— ولعل لباس ابن أخيك من نسيج (اورشليم) أو (عالية) ويخيل لي أن صنفه متين الشعر قوي النسيج ثم انتصب واقفا متظاهرا بأنه يريد أن يسبره .

---

(١) ان (بحيرا) قد أقسم بالاوثان مجاملة لضيوفه ومجاراة لهم فيما يقسمون

فجاء من خلف رسول الله وفيما يلي قفاه وأخذ بطرفه يعركه في يده ويطيل فيه . ولم يكن ذلك الا حيلة لرؤية خاتم النبوة بين كتفي النبي صلى الله عليه وسلم ، وماوقع نظره عليه حتى شهق شهقة دفينة وراح يكبره ويجله وأيقن انهذا سيد هذه الامة. ورسولها من لدن رب العالمين.

ثم عاد الي حيث جلس ابو طالب وفي نفسه غبطة يمازجها الاسى بتحقق زعمه وقرب تقلص سلطانه بظهور صاحب الدين الجديد .

ثم قال لأبي طالب :

– لقد صدقت يا أبا طالب وأرى أن لا توغل في بلاد الشام به واحذر على ابن أخيك من شر اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف . لبغوا عليه شرا فانه كائن له شأن عظيم . وقد جاء فيما أثبت (يحنس) الحواري حين نسخ الانجيل عن عهد يسوع الحي في صفة ابن أخيك (من أبغضني فقد أبغض الرب . ولو لا اني صنعت لحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة. ولكنهم من الآن بطروا وظنوا انهم يعزونني . وأيضا للرب. ولكن لابد أن تتم الكلمة التي في الناموس انهم ابغضوني باطلا .. فلو قد جاء البرقليطس (١) هذا الذي يرسله الله اليكم من عند الرب خرج ، فهو شهيد على وأنتم أيضا لانكم قديما كنتم معي في هذا .. قلت لكم لكيما لا تشكو)

(١) كلمة يونانية معناها أحمد ويرادفها في السريانية (المنحمنا)

« ما بعث الله نبيا الا رعي الغنم فقال »
« أصحابه وأنت .. فقال نعم كنت »
« أرعاها على قراريط لاهل مكة »
حديث شريف

هذه سحابة من التراب تنعقد في الفضاء عند مطلع الشمس لا ندري ما وراءها أهو جيش قريش جاء يزحف نحو الطائف أم آثار قطيع من الغنم يسعي نحو هذه الاعشاب المترامية في بطن هذا الوادي السحيق ؟

اكثر الظن ياعبد شمس أنه قطيع من الغنم وهـذه أرجلها الصغيرة تامع في هـذه الظلمة وثغاؤها المتقطع ترد ده أجواز الفضاء خلف حجاب هذا التراب المتطاير من وقع الحوافر وهذا صوت راعيها ينبعث عن بعد يهيب بصاحبه ويهتف به الى الانتباه واليقظة عند اجتيازهم للمضيق المحاذي للجبل لما اشتهر به من ايواء الذئاب خشية أن تذهب واحدة من غنيماته ضحية ضباب الصباح تحت تلك السحابة التي لا تفارق القطيع في سيره غدوا ورواحا

وهاهى ذى السائمة تدنو نحونا يسوقها شاب أنت تعرفه ولعله ابن جارك الذى حدثتنى في شأنه بالامس مليا وذكرت لى حسبه ونسبه ونباهة ذكره ونبالة شمائله وحسن الاحدوثة عنه غير أن ذاكرتي قد خانتنى في اسمه فاصبحت لا اذكره .

عبد شمس ـ ويبك ياسعد ! ! هو بعينه محمد بن عبد الله .

سعد ـ ابن عبد الله ؟ ! لقد حدثتنى بالامس ان أباه أبو طالب .

عبـد شمس ـ هو أبوه وعمه مادام أبوه قد مات وله في بطن أمه شهران فكفله جده. ثم عمهُ. حتى بلغ هذا السن وأصبح قادراً على رعاية الغنم يذود عنها عوادي الجبال ويوردها موارد الخير والبركة وما استاق غنما لأحـد الا تضاعف نسلها وكثر نتاجها ودر درها ونمت البركة فيها حتى أصبح محل التنازع عليه ما بين مكة والطائف.. انظر اليه يستبق عوده سنه . ويغالب نموه عمره . ثابت الخطو تبـدو على ملامحه سيما التفكير والتأمل ، في نظرته سلطان الآمر الحازم المطاع . فهل تظن أن مثل هذا في سن الخامسة عشر انه ليسعدك مجلسه ويهنؤك مأنسه . قليل الـكلام دائم النظر في مطلع الشمس كأنه مفتون بها. ممعن التفـكير في التقاء حمرة الصحراء بزرقة السماء كأنه يبحث عن شيء بينها . كثير التأمل في وجه النجوم كأنه موكل بعدها

ثم انظر اليه بين اغنامه كالملك العادل أو رب الاسرة الرحيم يمسح على كبارها ويحنو على صغارها ويذود القرناء عن عجافها ويتمهل عليها حتى تتناول العشب وترد الماء وهاهو قد جلس ليستريح في ظل شجيرة السعدان القريبة منا ثم أخذ يتلمس طعاما يحمله معه أغلب الظن أنه من قديد الشعير وجاف الادم، وإنه يجاهد في اقتضامه ويقاسي في تجزئته ومضغه دون أن تمتد يده على شاة حلوب يلين بألبانها قسوة الخبز لانه لايملـكها ولا سلطان له عليها ثم هاهي عجوز شمطاء تيمم نحوه ولعلها ذاهبة في طلب الحاجـة فلننظر ماذا هو فاعل .. يالله !! لقد منحها كل ما كان في يده ولعله وجبة اليوم بأسره لقد جن جنونها من الفرح وارتفعت يداها المرتعشتان له بالشكر والدعاء وانها لتكاد تقع على الارض من هزة السرور ورعشة الجزل وتتلفت عن يمين وشمال لئلا يكون على مقربة منها من تسول له نفسه باقتسامها

الطعام ثم راحت تهوي بفمها على لقماتها فيرتد لصلابتها ويبسها فعادت اليه تطلب منه ماءاً تلين بها طعامها فمنحها راويته فشربت حتى علت ثم أراقت الباقي فوق كسيرات الخبز لتلين من خشونته . ياله من حليم إنه رغم هذا لم يغضب ، ولا أدري كيف يقضي سحابة يومه طاويا ظامئا

ثم هاهو يعود الي غنياته يمسح عليها بيده فتبادله عطفا بعطف . وحبا بحب وتتمسح رؤوسها وأعناقها به وتذوده بقرونها دعابة له ومزاحا . إنه يجمع احطابا ويضم بعضها الي بعض لعله يريد أن يتوسدها ليستريح قليلا من وعثاء السير وقيلولة الهاجرة فتشد حملة اغنامه عليه برؤوسها كأنها لاتريد منه ذلك . فيبتسم ثم يجلس ليذودها عنه فلا تلبث أن تعود ثم لاتلبث تحت رغبته الملحة أن تهادنه وتحيط به كأنها تقوم على حراسته

سعد — لاعجب..فأهل هذا الحرم تلد كل يوم شاذا وتأتى كل ساعة بغريب.ولعل جده هو ذلك الذى نذر للآلهة أن يقدم أحد أولاده ذبيحا بين يديها اذا تكامل عددهم عشرا كما روى لنا الرواة في المدينه والذي جعل من أسيافه الذهبية بابا للكعبة وهي كل حظه من ثروة (جرهم)(١) كما حدثنا بذلك حداة القوافل .

عبد شمس — لقد هيجت ياسعد اشجانى .. واثرت حولي اطياف الذكريات وأشباح الالم بذكرك عبد المطلب ، وحق هذا البيت والحرم . ما رأت قريش عهدا كعهده ولا شوكة كأيامه منذ قضي عبد المطلب نحبه واختلفت بنوه من بعده ، وقريش كالعود اللين يصهره كل قبيل ويثنيه كل عاد .

---

(١) القبائل التى طمرت بئر زمزم وأودعتها ثروة عظيمة تتكون من غزالين وأسياف وأدرع من ذهب .

سعد ـــ غيران لآل عبدمناف شهرة تجارية مترامية فيما بين بلاد العرب والشام فلعل من شذوذ هذا الغلام، صدوده عن العمل في التجارة وانصرافه الى رعاية الغنم

عبد شمس ـــ انه قد صاحب عمه في تجارة الى الشام ولكن عمه لم يصب منها ربحه المنتظر، فلم يعاودها كرة أخري ولم يرحل بعد ذلك فراح الغلام يعمل في رعاية الغنم على قراريط وفي الحق انه عمل رابح

سعد ـــ اذن فسوف لا يشهد غدا عكاظ (١) ما دام مكدودا في عمله مشغوفا بغنمه عزوفا عن مطارح الهوى ومنتدى الشعر والتناظر

عبد شمس ـــ لا أعتقد أنه من الزهد في لقاء الناس إلى حد الحرمان من مشهد عكاظ .

* * *

بين أحضان (عرفات) وفي ظلال قممه الشامخة ، فضاء شاسع ومهيع فسيح ، قد امتلأ بالشيوخ والشبان. والنساء والصبيان. بين مشاة وركبان . لا تزال تفد اليه الناس من كل حدب وصوب كأنه يوم الحشر قد فزع الناس اليه من كل ناحية وسارعوا نحوه من كل فج ولا ضجيج يصم الآذان وقباب متناثرة كالأعلام . وحلقات متجاورة كأنها سلسلة من جمان(٢) لا يشوه نظامها الا بعض قطارات الابل تغادر عكاظا بعد قضاء حاجتها يقودها رجال كأنهم في ثيابهم البيض تماثيل من العاج قد وقفت على قدمين من مادة المسك وركبت عند مناكبها وجوه من الابنوس قد تدلت شعورهم الكثيفة الجعدة حتى غطت اقفيتهم ولامست المناكب. يتبعها بعض الحمر

---

(١) سوق تجتمع لها العرب من جميع أنحاء الجزيرة للتجارة والبحث والمناظرة وانشاد الشعر . (٢) ذهب

لهزيلة تعاون في حمل الجلود والحبال والأقمشة كالزوارق الملحقة بالسفن لماخرة عباب المحيط .

فاذا شققت هذه الخميلة البشرية الفيتها مروجا تساقط عليك جنيا من الادب وغضا من البحث والتناظر .

وهذا قس بن ساعدة يقف خطيبا يقول :

أما بعد فيا أيها الناس . اسمعوا وعوا . واذا وعيتم فانتفعوا . انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، وجمع وأشتات ، وآيات بعد آيات ، ان في السماء لخبرا ، وان في الارض لعبرا ، ليل داج وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات نتاج ، وبحار ذات أمواج ، مالي أرى الناس يذهبون . فلا يرجعون

وهنا مال سعد على اذن صاحبه وقال :

ـ من أى القبائل هذا الخطيب المفلق

عبد شمس ـ من « إياد ... حى في معد »

سعد ـ لم أسمع والله من قبل خطيبا يهدر كبحره . ويعظ كحكمته ويطيل كباعه

عبد شمس ـ دعنا اذن لنسمع بقية مقولته

سعد ـ جادك الغيث . . هذا محمد بن عبد الله الصغير في طيلسانه الابيض وهراوته المديدة قادم

عبد شمس ـ دعنا منه وأبيك . لنسمع هذا الرجل وهو يقول :

ـ أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا . أقسم قس قسما حاتما لا حاقدا فيه ولا آثما . ان لله دينا هو أحسن من دينكم الذي أنتم

عليه . ونبيا قد حان حينه . وأظلكم أوانه . فطوبي لمن آمن به فهداه .
وويل لمن خالفه وعصاه ، تبا لارباب الغفلة من الامم الخالية والقرون
الماضية ، يامعشر اياد ، أين الآباء والاجداد ، وأين المريض والعواد ،
وأين الفراعنة الشداد . وأين من شيد وزخرف ونجد ، وغره المال والولد ،
أين من تجبر وطغي ، وجمع فأوعى ، وقال أنا ربكم الاعلى ، ألم يكونوا
أكثر منكم أموالا وأطول منكم آجالا . وأبعد منكم آمالا . طحنهم الثرى
بكلاكله . ومزقهم بتطاوله ، فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ،
عمرتها الذئاب العاوية .. كلا بل هو الله احد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود

ــ ألا ترى ياسعد انه قد انبسطت أسارير وضاءة محياه لهذا الكلام؟.

ثم هاهو ذا ينتقل الى حلقة أمية بن أبي الصلت ، فلنتقيل خطاه فانى
شغوف بكل ما يبدر منه ... ويح أمية ان إشادته بالخمر وتمدحه باللات
لم ترق فى نظر الفتى محمد ، حتى لقد سئم كلامه وانتقل الى حلقة حسان
ابن ثابت فلنتابعه . . انظر اليه وقد اطرق برأسه الى الارض يصيخ
اليه وقد سرت حمرة البشر في جبينه ولعل ذلك لتفاخر (حسان) بقريش على
بقية القبائل غير أنه قد عاد الى طبيعته كرة أخرى دون أن تظهر عليه
آثار الفرح أو الامتعاض وأكثر الظن أن ذلك لان شاعرنا المجيد راح
يضع شراكه في طريق الغانيات ويمعن في التغزل . ثم هاهو يفارق حلقة
حسان الى دائرة شامول اليهودى يدعو الى ما اسماه دين ابراهيم وما سمعنا
بهذا في آبائنا الاولين ولعل ذلك مما سيسره فهو بطباعه قلة في الناس شأنه
شأن من قصد اليه مع زميله زيد بن عمرو بن نفيل يجمعها الخروج على
الجماعة والشذوذ عما تواطأت عليه العرب وقد كان بالامس بيننا سيدا فلما
صبأ نبذناه وراءنا ظهريا ألم أقل لك ياسعد أنه سيسره هذه وهذا هو

يشب علي مقدمة قدمه ليقرأ آثار الكلام على وجه الناس ،ووجهه يطفح بالبشر دون أكثرية الحاضرين الذين علت وجوههم غبرة الغضب ثم هاهو ذا بعد ذلك تراه لايحفل بغضب الناس وشعورهم ويذهب الي حلقة النصراني ورقة بن نوفل وصديقيه (العاقب والابهم) وكلهم يدعون الى دين عيسي بن مريم ويناقشون قريشا في دينها ويعرضون بآلهتها معتصمين في هذا بجلال الاشهر الحرم .

وتراه بعد هذا، على شيء من الغبطة والجزل . كأنه يسعد أكثر ما يسعد من عثكلان الحميري ولعلها نعرة صادفت في نفسه شأنا مريحا والشمودته في جده ابراهيم وأدركت من فؤاده مكانا فسيحا

سعد — ولكن ألا تري أن كلام عثكلان الحميرى علي مقربة من العقل ؟ وإلا فما الذي يدعوه الى احتمال هذا العنت من أهله وبني قومه وقد كان بالامس سيدا فيكم الا أن يكون مؤمنا بدعوته مضحيا من أجلها بكل سيادته ومكانته .

عبد شمس — ويحك ياسعد كأنك تريد أن تصبأ بدورك وان تعود بغير دينك الى أهلك

سعد — اقسم برب هذا البيت أن لهذا الغلام لشأنا وستعلمن نبأه بعد حين . .

* * *

هذه قريش وكنانة جاءت بخيلها ورجلها ونسائها ورجالها تسبقها الي مكة سحب من التراب كثيفة تكاد تحجب ماوراءها . لولا صهيل الخيل ورغاء الابل . وسرعة الزحف يتقدمها حرب بن أمية في ثوب القائد يطوف حول سوادها فوق جواده الاشهب و يتفقد وحداتها عن

شمال وجنوب ويهيب بها الي الاسراع في الدخول الي الحرم قبل فوات الوقت. والقوم ينظرون خلفهم كأن عدوا يطاردهم. أم جيشا من الكواسر يهددهم ولما تنته أيام عكاظ !! وما هذه بالعودة المألوفة والرجفة المعروفة لا حادي يحدو بينهما ولا عازف يعزف أمامها . ولا ظعينة تعلو وجهها ولا هدوء يشق طريقها ولا بضائع قد نفق سوقها أو نفد مجموعها . فليت شعري ما السبب . ولعمر أبيك ماهذا العجب. أفي يقظة نحن أم في منام؟

الصامت — والا عجب من هذا أن النساء والشيوخ والصبيان بمعزل عن الكهول والشبان ؟ كأنها على استعداد للنزال ولكنهم عادوا فوقفوا يتشاورون . ولعل ذلك لتوديع النساء والاطفال

سيف — رويدك فعما قريب ينكشف الخطب وهاهو عبد شمس بن لحى مع ضيفه سعد قد وافا مسرعا الى أهله . فلنعترض طريقه حتى نعلم منه هذا السر العجيب ..

ماهذا ياابن لحى ؟ وما الذى جاء بقريش على هذا الحال

عبد شمس — دعني مؤقتا حتى أحمل كل سهامى قبل هجوم العدو .

ثم تركه مع ضيفه « سعد » وانصرف الي أهله يسابق الريح

سيف — عدو؟أى عدو هذا ولأى سبب تقوم الحرب في الاشهر الحرم ؟

سعد — فيما انتهى الينا أثناء الطريق أن النعمان بن المنذر أراد أن يؤمر علي رواحله الذاهبة بالتجارة الى « عكاظ » رجلا قوى الشكيمة شديد البأس فتقدم له البراض الكنانى وعروة الهوازني . فوقع اختياره على عروة فحقد البراض عليه وتابعه فى السفر ينتظر منه غفلته . حتى ظفر به ، وعدا عليه وقتله فشالت نعامة قريش وكنانة الى مكة قبل أن يصل الخبر الى (هوازن) فتدور بينهما رحى القتال وتذهب قريش

وما معها أدراج الرياح . قبل أن تتمكن من الدفاع عن نفسها وأموالها ازاء هوازن وهذه الا شهر الحرم تنام فيها الاحقاد ويغمد فيها السلاح وتحقن فيها الدماء ولكن يظهر أن « البراض » ذلك الشقي التعس ابى الا أن يعكر صفو عكاظ وان ينتهك حرمة الاشهر المقدسة فى آبائنا الاولين وان يثيرها فتنة شعواء تأ كل الاخضر واليابس ولعل قريشا تتلافي هذا الخطر باللجوء الى الحرم حتى تضيف الي حرمة الشهر حرمة البيت فيحقق ذلك عصمة الدماء ولكن . الويل للشقي . هذه هوازن قد جاءت في ثورة الليوث وغضب الكواسر ولا مناص من الحرب فانها لا محالة مدركة قريشا وكنانة قبل أن تتمكن من الوصول الى الحرم (يالها من حرب الفجار ! قد التحم الفريقان . ولكن شبان قريش علي دراية بأعماط الحرب ، وها هم اولاء يتقهقرون صوب الحرم في حيلة موفقة وعلم بضروب النزال

ثم باتت قريش وحليفتها على حرب مع هوازن وبدأت دورة القتال في الصباح :

وبكرت ضيوف مكة وروادة « عكاظ » الي شهودها من فوق الربا والآكام وكان من بينهم « سعد » ضيف عبد شمس بن لحي وصديقه . ثم انتبه رفاقه علي صيحة منه وهو يقول .

ياله من شاب قوي العود . لدن العضلات موفق التسديد . مصيب الرماية . فهو في السلم تاجر وراع . وفي الحرب رائش لذاع وكمي شجاع .

وائل ـــ من هذا الذي تصف ؟

سعد ـــ ذلك الشاب الحدث محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد قريش . ثم اشار بيده صوبه وقال هو هذا .. الامرد الذي يجيد النزال ويجمع النبال ويرد على عدوه النصال فى مهارة لا يصل اليها كبار الابطال

- ٣ -

« ما أحب أن لى بحلف حضرته فى »
« دار عبد الله بن جدعان حمر النعم »
« ولو دعيت به في الاسلام لاجبت »

حديث شريف

جلس الزبير بن عبد المطلب على مصطبته (١) عند الغروب حاملا رأسه على راحته . تائها في محيط من التصورات الاليمة . مستعرضا مجد قريش وعزها وشوكتها ومنعتها . مستذكرا بأس أبيه عبد المطلب وصلابته ونفوذه ومهابته . ثم ماحل بقريش بعده من الانحلال والتفكك . والتفرق والتنازع . مما أدى الي الاستهانة بها . ووطء كنفها . واقتحام حماها وتمزيق شملها ، وكان كلما تكتبت عليه أشباح الذكريات . ودنت منه طيوف الهزيمة اتسعت محاجره وغارت عينه وتجعدت جبهته وشالت حواجبه فتراجع الى الوراء كأنها تهيب به وتهاجمه وتغالبه فتغلبه . حتى أفاقه من غشيته وأيقظه من سهمته . صوت حرب بن أمية يلقي عليه تحية المساء فاستدعاه لمجالسته فى لهجة الموحش ولغة النضال في بيداء الظلام ولهفة الخائف المرتعد قد وضع يده على حبل الامان ورمق ببصره جادة السلام .

ثم ابتدر حرب ابن أمية صاحبه وقال :

— مالك يابن عبد المطلب كأنك في مأتم .

الزبير — لا شيء .. انها ذكريات وطيوف حملت الي نفسي مجد

---

(١) بفتح الطاء وتشديد الباء — المعروفة بين الناس بالمصطبه بفتح الطاء والباء معا

قريش التليد وعزتها التي اضحت مهلهلة حتى طمع فيها الطامعون . وهاجمتها مثل هوازن !! بعد أن كانت حصنا منيعا وطودا رفيعا لا يعتطى صهوتها ولا تنال قمتها ولا تقتحم عريستها (١)

حرب ـ قد كان هذا يوم كنتم وبني أمية متنافرين ويوم كنا على غير أمل في لقاء . أو اجتماع في وفاق أو رفاء . ولكنها الشدة تؤلف القلوب المتنافرة . وتجمع الاعضاد المتشعبة وتنظم الصفوف المضطربة المتدابرة حتى أصبح بنو هاشم وأمية يؤلفون معسكرا واحدا ضد هوازن وأمثالها بعد أن انتهكت جلال الاشهر الحرم وتداعت للحرب أمام الحرم . وان كان الامر كما قال ابن أخيك محمد الصغير ـ نعرة خبيثة أن تشن الحرب بين قبيلتين من أجل حقد حاقد أو بلغة أجير . أو لبانة وسيط اكار فتتقد رءوس وتزهق نفوس . من أجل بغية راعى غنم أو حادي أبل ـ كذلك الشقى الفاجر البراض بن قيس الكنانى . .

لو أن الحرب على مرعي أو ماء أو نخيل أو سائمة للجميع أو شرف أو ديانة للجدود والآباء . لهانت الانفس ورخصت الدماء . فحبذا لو وضعت لمثل هذه الخطوب حدود . وقام على حماية بيضتها عيون شهود . تأمن الخائن وتطمئن اللهيف . وتعين الضعيف . وترد المظالم وتضع الحق في نصابه

فشعت على فم الزبير ابتسامة في الظلام ثم اتكأ على وسادة خلفه . وأغمض جفنه في دعة وقال :

يا لها من خاطرة صادفت مكانها . ووافقت محزها . وكأننا ونحن فى مكة نتحدث بما فى رأسك غداة اليوم وأنت بالطائف

حرب ـ مبتسما ـ وكيف ذلك ؟

---

(١) بيت الاسد .

لقد داوت هذه الحرب الفاجرة فينا داء التفرق فاصبح بنو عبد مناف وبنو أمية بفضلها إخوانا . وشفت منا داء التشيع بالحق وبالباطل . فدعوت بني هاشم وبني عبد المطلب . وأسد بن عبد العزي وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة وأرسلت في طلبك فانهى إلينا انك فى الطائف . وعلى ذكرك محمد الصغير بن أخى عبدالله . أقول لك قد كان بين المجتمعين مع عمه أبي طالب وتعاهد الكل على صيانة حلف الفضول وحراسته وانقاذه حتي يأمن الضعيف شر القوى وتطمئن نفس اللهيف الي ما يخاف . وترد المظالم الي أصحابها ويسود الحق والعدل بين الجميع (١)

حرب ـ لقد أسعدتني بحديثك وأهنأتنى بروايتك ولشرتم السلام علي ربوع الحرم بهذا الحلف وأزكيت في نفسي المحبة للفضل والمفضل والفضالة والفضيل الذين وضعوا هذا الحلف من قديم ولا أنس شاعرهم وهو يقول :

ان الفضول تحالفوا وتعاقدوا ان لا يقر ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتوافقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

واذا كان الامر كما ذكرت فلماذا أنت مهموم مغتم، سيما وقد انتصرنا علي هوازن نصرا مؤزرا

الزبير ـ هذا صحيح ولكننا قد دفعنا الثمن وما كان لقريش أن تدفع ثمن نصرتها في غير الميدان ، فبالامس سلمنا واد من الابل لهوازن دية لعشرين رجلا منها زادوا علي قتلانا فى حرب الفجار

---

(١) وللرسول في هذا الحلف حديثا يقول فيه : (ما أحب انى لى بحلف حضر فى دار عبد الله بن جدعان حمر النعم . ولو دعيت به فى الاسلام لاجبت)

فزفر حرب زفرة حارة وقال: تبا للبراض الكناني ذلك الشقي المجرم وري نارها. وأشعل شررها . وزج بنا إلي هذه المفاوز الوعرة والمضايق الملتوية . ولكن هيهات أن تعود هذه الحرب من جديد بعد أن وضعهم حلف الفضول ذلك الذى أثاره فى رأسى ابن أخيك محمد الصغير فى حديث مع عمه وما كنت لا اعتقد أن تحمل رأسه كل هذه الحكم ، ويفيض لسانه بمثل هذا البيان . وتنتهي إليه مثل هذه الاساطير على حداثته

وقد حدثتنى انه حضر هذا الميثاق في دار عبد الله بن جدعان فهل دلي بدلوه بين الدلاء أم اكتفي بالصمت والشهود

الزبير - إن ابن أخي قليل الكلام وقلته اغلته . فما تحدث فى مجلس الا وانصت الكل لحديثه . رغم كراهية البعض ونفورهم من ان يتحدث في مجلس الشيوخ حدث . ولكنهم كانوا وحقك في حيرة من أمره . لم يتصل بعلم . ولم يدرس في كتاب . ولم يسافر الى الشام أو فارس ليجلس الى أحبار أو رهبان . ولكنه مع هذا متزن الحديث عذبه، رصين العبارة . يفكر قبل أن يتكلم ويتكلم حتى يحسن السكوت من بعده فتتحدث عيون سامعيه بالدهشة وتشع فى جباههم معالم الحيرة فلا يكاد أحد منهم يبين

- ٤ -

« ما غرت على أحد من نساء النبي صلى »
« الله عليه وسلم ما غرت على خديجة وما رأيتها »
« ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر »
« ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء »
« ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له »
« كأنه لم يكن في الدنيا الا خديجة فيقول »
« انها كانت وكانت . وكان لي منها ولد »
عائشه زوج النبي

هذه خديجة تطل من نافذتها وبجوارها صديقتها نفيسة على مستناخ الابل الكثيرة يقوم خولانها وعبيدها بتحميلها الجلود والحبال والاقمشة اليمنية وشد الحبال عليها حتى لا تتصرم البضائع أثناء الطريق من هزات السير وتأرجحه ثم يبدو لها بعض الاخطاء في طريقة التأهل أو في تقدير ما ينبغي أن يوضع على بعير لم يكتمل نموه أو في طريقة توزيع الميرة والماء فتدعو صديقتها نفيسة الي مشاركتها الرأى فيما ارتأت فاذا وافقتها رأيها أخذت تبحث عن أمينها « ميسرة » لتبلغه رغبتها . ولكنها قبل أن يقع نظرها عليه وتهم بمناداته يكون محمد بن عبد الله قد أشار بالهام نفسه ووحي إحساسه الى تعديل مارأت خديجة أن يعدل وتكررت اخطاء الحداة وتكررت ملاحظات خديجة وتكرر بتكررها مداواة رسول الله لها . دون أشارة من جهة أو سانحة من أحد ، فلفت ذلك نظر خديجة وصاحبتها الى محمد . . لفت نظرها أولا ما رأت من سداد رأيه

وحزم ارادته . ونفاذ سلطانه بين من اختلط به وعرفه ثم لفت نظرها ثانية وسامة خلقه . واعتدال قامته واتساع صدره ورحابة ساحته ودعج عينيه . وطول أهدابه . وتسطح جبهته . وتبلج أسنانه وازهار لونه وكثاثة لحيته . ولم تكن تنظر اليه قبل ذلك الا كما تنظر الي أجير نابه أو أمين عف اليد طاهر السيرة . فغدت تنظر اليه كما تنظر الي مهبط أملها وأفق مشاعرها ولكنها أخذت تكافح نفسها . وتكافح تفاعلاتها وتحدث صديقتها وتقول لها .

اتعامين من هذا الفتى ؟؟ انه محمد بن عبد الله

نفيسة — وهل بين لابتيها (١) من يجهل هذا الامين . . . ولكن من جاء به يعمل في تجارة بنت خويلد . وكيف توفين أجر حفيد سيد قريش

خديجة — لقد جاءني عمه ابو طالب وراودني في أمر الانتفاع به في قوافل التجارة علي أن يزاد أجره من بكرين الى أربعة أبكار فقلت له لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا. فكيف وقد سألته لحبيب قريب فغدا يحمل له رضاي فيما طلب ثم جاء به الي ميسرة وقدمه له

نفيسة — اربعة أبكار !! ؟؟ وحقك لو ملأت حجره ذهبا لما كان لهذا الفتى بكفء

كانت خديجة تحدث صديقتها بشفاهها ولكن عينيها ما فارقت طل محمد يأمر وينهى ويزيد وينقص ويضيف أو يعدل ويروح ويغدو بين أفراد القافلة وقطاراتها والكل يدين لرأيه ويعمل بمشورته كأنه رب التجارة وصاحب العير

---

(١) جبلان يكتنفان مكة

وما هتف ميسرة للركب بالمسير حتى خفق قلب خديجة خفقة بهرت لها انفاسها وتهافتت معها أوصالها حتى خشيت ان تخونها قدماها فاستندت الى زاوية النافذة لتلقى نظرة الوداع الممزوجة بالخوف لا على أموالها وغيرها من عاديات اللصوص ومخاطر الجو وعقبات الطريق ولا على خادمها وأمينها ميسره ـ ولكن على ذلك الذى نزل منها منزلة الابن العزيز حببته اليها تصرفاته المستقيمة وأعماله الحكيمة ونشاطه المتزن وحزمه السديد وسيرته العطرية . وجماله الفاتن

ثم سارت القافلة كأنها سلسلة من صغار الجبال تربطها حبال من مسد (١) أو سرب من النعام الجافل من وجه مطارد عنيد أو قطع من السحب المتشابكة في ذيل السماء في يوم صحو ندى

ثم غابت القافلة بين شعاب الطريق وهضابه وعين خديجة ما زالت تقتفى آثارها وتودع أشباحها وتتبين معالمها حتى ابتلعها جوف الطريق ولم يبق لها أمامها من وجود.

* * *

ثلاثة أشهر كوامل مرت على خديجة مرور القرون الطوال تستبطىء الليالي وتستثقل الايام وتتحسس الاخبار . وتتمنى أن تعود القافلة ولو بشيء واحد هو ولدها وحبيبها محمد . ولو فقدت بعد ذلك كل شيء .

لقد أنساها الخوف على محمد احزانها في فقد زوجها وأغفلها عن التفكير في تجارتها ورواجها وأرباحها ولم يكن يشغلها . الا أن يعود اليها سالما . ويا طالما أفاقتها صديقتها من تيه التفكير . حين كانت تقف عند النافذة التي ألقت عليه منها نظراتها مشوبة ملتاعة فتعاودها ذكرياته وهو

---

(١) ليف

يهيء للسفر ويعد للرحيل . ويتردد على مسمعها صوته الملىء بالرجولة وتتخيل خطوه ونشاطه فيقتدي به الجميع رضاً . وتحاكيه محبة ثم تسبح بنظرها الي حيث سارت القافلة والى حيث اتجهت ثم تحلق بروحها فوقه حيث تظن انه يوجد كأن القافلة بمن فيها قد ذابت في نفسه . وتلخصت في شخصه .. لا بل أصبح كل ماحولها من مال وعتاد يتلاشى عند ذكره ويتبخر في سماء حبه .

وكم صعدت الى علية بيتها الكبير ترمق الطريق . وتطالع الافق لعل عينها تقع على قافلة آتية تضم ولدها وحبيبها . أو تحمل عنه نبأ سارا وخبرا مفرحا .. ولكنها كانت اذا نفد صبرها وكل بصرها وجف لعابها واحترقت أنفاسها . عادت الى مخدعها كما يعود القائد المنهزم من ساحة القتال كئيبا حزينا حتى تنفس لها السعد يوما . وشامت عن بعد قافلة تدنو كأنها سلاسل السراب في بطن الصحراء تغري بالامل وتشجع على الاصطبار ، أو قمم الجبال تشافهها سحائب الصيف وتطوف بها في دعابة ورفق أو حرجة(١) فارقتها زينة الربيع تميل بها النسمات الفاترة شمالا وجنوبا فاستطال عنق خديجة وجحظت عيناها تتبين ما ترى وتتفقد . وكلما انفصلت القافلة عن أحضان الافق . وفارقت اكناف الجبال زاد اعتقادها في صحة ما زعمت وترددت انفاسها لهفة الي قرب اللقاء . وما كاد يقع نظرها على محمد يتقدم الركب فوق بعيره حتى غابت عيونها تحت محاجرها وعز اللعاب على تراقيها . وأضحت في شبه حلم لكثرة ما شاع فيها من جذل وسرور .

ثم جاهدت نفسها وحزمت أعصابها ونزلت تتلقى التهاني بقدوم عيرها

---

(١) مجموعة أشجار

فالفت خادمها ميسرة يعدو نحوها في حركة لاشعورية . فظنت أنه قد أصاب مؤخر الركب خطب . ولكن وجهه الباش وسنه الضاحك وعيونه اللامعة تحت طيلسانه الابيض . ووثباته السابحة لا تدل الا على نبأ سار . وبشرى جليلة . . وقف بين يدي سيدته لاهث الانفاس فأدركته نظرة سيدته المتجلدة فأطرق إلى الارض حتى حاذت جبهته طرف عصاه . غير أن عوامل الفرح قد غالبته على وقار سيدته واحترامها . فأخذ يفرك يدا بيد ويرفع رجلا ويضع أخرى . فقالت له سيدته :

ـ ما بك ياميسرة ؟ ؟ تحدث

ظنت انه سيحدثها كعادته عن البيع والشراء وقد اعتزمت أن لا تعترض تياره وأن لا تثني اتجاهه حتى ينتهي من قصة التجارة ويأخذ في سيرة محمد الحبيب معه .. ولكن لشد ما راعها أن تراه ناسيا لعادته تاركا لأسباب مهنته متحدثا بدوره عن صاحبه محمد فقال :

ـ بماذا أحدث ?? والله ما هذا بشر وما رأيت العجائب والمدهشات في رحلة . مثل ما رأيت في هذه الرحلة .

خديجة ـ ما ذا رأيت تحدث يا ميسرة ولا تطل في شقائي

ميسرة ـ ما كدنا نغادر مكة اعز الله سيدتي ونفارق جبالها الحمراء حتى أطلت الشمس من خلف القمم تنذر السكون بحر لافح . وشواظ من اللهب . . ولكن كم كانت دهشتنا عند ما بدأنا نسير في ظلال غمامة رحيمة تظلل الركب بأسره ، حتى كأننا نتفيأ الخمائل ونسير في ظلال الجنان . . وكم نفدت مزاودنا فلا يكون لها من معوض في صحراء قاحلة ولا نبع ، إلا أن يضع أصابعه في صبابة ضئيلة ثم يسمى الله فاذا بها تفور كأنها عين فوارة ،

فتزاحم الحداة . وتتدافع الاقداح علي أفواه الراويات حتى يعل الجميع ويحملوا معهم ما يكفي لبلوغ الماء .

ثم أرأيت يا سيدتي ظباء تحوم حول انسان ؟ . وتتمسح رؤوسها بثيابه فيمسح على ظهرها بدوره ثم تطوف حوله وترفع رؤوسها نحوه حتى ليخيل إلي أنها ضارعة اليه باكية . ثم تطأطيء رأسها وتنصرف؟؟ ثم أسمعت من قبل أن للاشجار والاحجار ألسنة تتحدث بها ؟ .

لقد كنا والله نسمع أصوات السلام عليه . ثم نتلفت فلا نري أحدا فما نزلنا دوحة الا حنت علينا أغصانها . وتساقط علينا جنيها . كأنها الام الرؤوم تحن على ولدها . وما وقع عليه نظر راهب الا أخذ فجأة وقال : هذا سيد البشر . وما تحدث اليه حتى استحال وجهه الى قسمات بارزة من الدهشة والحيرة وقال : لا بد أن يكون هذا هو النبي المنتظر

وبينما كان ميسرة يحدثها في ذلك . كان قلب خديجة يكاد يطير من صدرها فرحا . وجوانحها تشق السحاب طربا وجذلا ، لولا وقار السيدة أمام خادمها واناة العراقة ازاء تابعها .

ثم راح ميسرة في نهاية كلامه يحدثها عن التجارة ونفادها ونموها وأرباحها . ولكنها لم تكن تملك بعد ذلك أذنا تسمع بها أو عقلا يتسع لما كان يقول .. حتى اذا أثقل عليها بأنبائه . وتمادى في تحديثه قالت له :

ـــ صهن (١) ياميسرة ، فقد سبقتك هذه الأنباء الي

ثم قامت الى حجرتها الخالية واعتمدت رأسها براحتها وغابت في عالم

---

(١) لا يتكلم

التفكير العميق . . حتى دخلت عليهــا صديقتها نفيسة فلم تشعر بوجودها ولم تحفل بدخولها . فصاحت في وجهها :

— ما خطب بنت خويلد في يوم كهذا إلا أن تــكون تجارة خاسرة أو بعير فارق الحياة أو عبد آبق لا يسد فراغه سواه

خديجة ـــ لا شيء من كل هذا فالتجارة رابحة والركب كله بسلام

نفيسه ـ اذن مالك مشدوهة الفكر مأخوذة الفؤاد ؟حدثيني يا أختاه . ألست محل ثقتك ومكمن بثك . فكيف بك اليوم لا تفعلين ؟؟

خديجة ـ لقد استحال عطفي على هذا الفتى مقة (١) له ، وشغفا بشمائله

نفيسة ـ ولــكن أتطلبين يد هــذا الفقير وقد رفضت بالامس يد السراة (٢) الثراة من قريش .

خديجة ـ هذا اذان قلبي يناديني ولا بد أن البي النداء .

نفيسه ـ لا تثريب عليك ولا ضير بمن اخترت !! ولــكني أخشى أن يرفض يدك

خديجه ـ ان صاحب كل هذه المزايا وتلك الخلال لن يحطم قلبي أو يطفىء نور رجائي

ثم ذهبت نفيسه الي رسول الله محمد تتامس رغبته وتستشف رأيه محاولة أن لا يدرك منها غرضا أو يلمس لها إربة . حتى اذا رفض يد صاحبتها تكون صوانة لــكرامتها . محتفظة بسمعتها . فابتدرت رسول الله تقول له

ما يمنعك أن تتزوج يا محمد ؟

رسول الله ـ ما بيدى ما اتزوج به

---

(١) محبة (٢) الاشراف

نفيسة ـ فان كفيت ذلك ودعيت الى الجمال والمال والشرف والكفاءة.
..ألا تجيب؟

رسول الله ـ فمن هى

نفيسة ـ خديجة بنت خويلد

فاطرق اطراقة الفرح وقال

ـــ وكيف لي بذلك

نفيسة ـ علي ذلك

رسول الله ـ قبلت ياأختاه

وبينما كانت نفيسة تفاوض رسول الله محمدا في شأن الزواج . كانت خديجة في حجرتها الكبيرة المشرفة علي الساحة الواسعة تذرعها غدوا ورواحا قلقة فزعة خشية أن تصاب بتحطيم أملها في ذلك الملاك الذى لايفارق رأسها ولا يغادر ناظرها فتارة تعتمد رأسها وتسلم خيالها الى مختلف التصورات وتارة أخرى تثور على هذه الهواجس وتطل من شرفتها لتستقبل وجه صاحبتها نفيسة وتطالع فيه عن بعد سطور المستقبل فتسعد بالقبول أو تشقى بالرفض .وما أطول سويعات الانتظار .وما اشقى ذا الحاجة الواقف لها على قدم الرغبة الملحة

وهاهى نفيسة قد وافت منزل خديجة وعينها تشع بالبشر . ووجهها يفيض بالسرور فادركت خديجة منها ماتحب . ونزلت تستقبلها في خطفة البرق بالعناق والقبلات

ثم سارعت باخطار عمها عمر بن أسد (١) بامر زواجها كما سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم باخطار اعمامه جذلان فرحا ولم يكن فرح

---

(١) لوفاة والدها قبل حرب الفجار

عمه ابى طالب بأقل من فرحه فاستاق الي بيت خديجه ـ رغم ما تم بين نفيسه ورسول الله من عدم استعداده لدفع صداق ـ عشرين من الابكار .
وما تم الايجاب والقبول حتي دعت خديجة عمها ورسول الله مع عميه حمزة وابي طالب ورؤساء مضر . الي وليمة فاخرة كانت قد أعدتها لهم وبعد أن أكلوا هنيئا وشربوا مريئا خطب ابو طالب يقول :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضضىء (٢) معد . وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته . وسدنة حرمه . وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا . وجعلنا الحكام على الناس ثم ان ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل الارجح . وان كان في المال اقل فالمال ظل زائل وأمر حائل . ومحمد ممن قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل ما آجله وعاجله عشرون بكرة من مالي وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم .

ثم قام ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وقال :

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكر ابو طالب وفضلنا على كثير من خلقه فنحن سادة العرب وقادتها وانتم اهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد احد من الناس فخركم وشرفكم . وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا علينا معاشر قريش بانا قد زوجنا خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله علي صداقها المذكور .

ثم تحدث عمها عمر وقال :

يشهد على معشر قريش اني قد انكحت محمد بن عبد الله خديجه بنت خويلد وشهد على ذلك صناديد قريش .

---

(٢) أصل



« يضم هذا الباب مساهمة النبي صلى الله عليه »
« وسلم في بناء الكعبة واحتكام القبائل اليه »
« في وضع الحجر الاسود وتبشير الجن »
« والكهان والاحبار بمبعثه صلى الله عليه وسلم »

- ١ -

«ياعائشة .. لولا ان قومك حديثو عهد»
«بكفر ابنيت الكعبة على قواعد ابراهيم»
حديث شريف

رجل قوست السنون ظهره . وجعدت اهابه . وغارت بعينيه واستخفت أعصابه ، قد وافي تحمله عصاه . ويقوده قبس من الاريحية والغيرة . حتى وقف دون الكعبة وراح يهتف بصوت أجش مرتعش وان كان قويا كالرعد ، صارما كزمجرة الليث ثم قال:

ـ يالقريش ... يالبني عبدمناف ... يالزهرة ... يالبني مخزوم .. يالبني جمح .. يا بني عبد الدار ..

صيحات رددتها جوانب الحرم وتداعت لها مكة وماحولها . وساروا حتى وقفوا أمام هذا الشيخ الثائر . كأنه البركان الزافر . ثم التفت اليهم وقال:

ـ أرضيتم لبيت الله هذه الرضيمة (١) وتلك الوحشة . وهذا الخراب والدمار .. لقد هوي بعرشه كر السنين وملأته العواصف بالرماد فتوا كلتم وتناهبت كنوزه اللصوص فتقاعستم . وصدعت جدرانه السيول فوجمتم وتحيرتم . فوالله انكم لسوف تدمغون بعار الابد . وسوف تروحون بذلة الابناء والاحفاد . وان بطن الارض لخير لكم من ظهرها ، اذا لم يجد الجد وتنفضون عن هامتكم غبار التقاعس والركود . والا فكيف تدعون حضنة بيته . وشوكة حرمه . وسدنة كعبته ان لم تفسحوا رحابها . وتقيموا أركانها وتجددوا شبابها وتردوا عليها ما كان منها قد سلب من كنوز

(١) الاتربة المتراكمة داخله وحوله

قال أبو أمية بن المغيرة هذا ، ثم عاد فانحنى على نفسه لاهثا بعد أن كانت روح الحماسة والغضب قد عدلت من قامته ووسعت من محاجره وقوت من ذراعيه . وأرجعت اليه روح الشباب يبعثها حارة ملتهبة ويسكبها منسابة دافقة في نفوس السدنة من قريش وما حولها فغلت في شرايينهم الدماء . حتى سرت فيهم سريان الكهرباء . ثم انبرى له الوليد بن المغيرة وقال :

ـ لقد سمعت العرب مقالتك . وقرعتها رسالتك . وهزتها أريحيتك وما موقفهم أمام البيت المحجوج والحرم الآمن في مثل حالاته . موقف إعياء وعجز ، وتقاعد وجمود ، ولكنه موقف الخائف أمام أمر مرهوب الجانب ، مهاب الحمى . وأغلب ظني أن ربه قد رضي اعتزامنا واذن في عملنا فبعث ذلك العقاب الجارح . فاختطف الحية الرقطاء التي طالما تشرفت على جدران الكعبة تنشر الرعب وتثير الفزع وتفغر فاها لكل من يدنو منها . وتهدد بأنيابها من تحس منه رائحة الهجوم عليها . فخلا بيت الله من ذلك الضيف الثقيل . واطمأن الناس الي رفع هذا البلاء واعتبروه نبؤة الرضا وتيمنا بحسن القبول ، وقد قذف البحر منذ ايام سفينة هائلة على شاطيء جدة فابتعنا حطامها من صاحبها « باقوم » البائس ولحسن الجد انه بناء وانه لا يجد ما يسافر به الى بلاد الروم فحل بيننا ضيفا وسيكون على يده بناء البيت . أما نجر (١) أخشابه فذلك ما سيتعهده « حنا » النجار المصري . أما كنوز (٢) البيت فقد عثرنا عليها في بيت « دويك » اليهودي ونالت يده جزاء سرقته ورد الكنز الي نصابه ومأمنه الذي كان

أبو وهب بن عمرو — ليس فيما ذكرت يا ابن المغيرة أمر ذو بال الآن

---

(١) صناعة النجارة المعروفة

(٢) غزالان من ذهب عثر عليهما عبد المطلب في بئر زمزم وأهداهما للكعبة

ابتياع الاخشاب ووجود البناء والنجار ليس بالشأن الخطير . وانما الخطير الذى لا نستطيع الاقدام عليه . هو هدم هذا البيت ورفع رضيمته ومن كان لعربي من الشجاعة ما يستطيع معها أن يحمل معوله ليهوي بها على جدار هذا البيت الامين . على أن هدمه وبنـــاءه مما يغض من مكانته ويضعف من قيمته . ويقلل من هيبته. ويذيل من رهبته فكيف يكون الهدم وكيف يصح البناء ؟ ؟

الوليد : — ليس بيت الله هو هذا البناء المتصدع الخاوى على عرشه. وانما هذه البقعة من الارض يقوم عليها هذا البناء شاهدا ودليلا . حتي لا تندمج في سواها . ولا تغيب رقعتها في هذا الفضاء

واذا كان لا بد من أن يكون البيت فضاء وبناء . فان هدمه بنية بنائه لا بقصد تقويضه وعفائه

أما الطيرة (١) من خوف المغبة في الهدم . فاني سأريك أن لا طيرة ولا مغبة وسأغادين (٢) البيت بمعولى . ثم انظروا بعد ذلك عم تنفرج .

* * *

طافت بمكة وما حولها أنباء هذا البيت الحرام فجاءت قريش بقضها وقضيضها تشهد ما سيحل بالوليد بن المغيرة حينما يهوى بفأســه على جـدار البيت أيهوى معهـا الى الارض فتدك عنقــه ؟ وتهشم رأسـه . أم يرسل الله عليــه ما أرسله على أصحاب الفيل يرمونه بحجارة من سجيل . فتجعله كالعصف المأكول . أم يخطفه عقاب كذلك الذى خطف الحية التى كانت تسكن الـكعبة وتفزع الناس . وقد نسوا جميعا

---

(١) التشاؤم

(٢) سأحضر غدا

الفرق بين اصحاب الفيل وقد جاءوا يقوضون اركانه . ويهدمون بنيانه إلى حيث لاقيامة له ولا عمران، وبين المغيرة وقد اعتزم أن يخرب البيت ليعمره وأن يهدمه ليبنيه. فيظل مثابة للناس وأمنا . مضت فترة تتبعها فترة والجموع تزحف والحشود تتزايد . حتى ضاق فضاء الحل والحرم بالناس فراحوا يمتطون صهوات الجبال ويشرئبون من فوق الربا والآكام . حتى كأن الناس قد نبتت في السهل والجبل . أو استحال ماحول الكعبة الى ساحة الحشر في يوم القيامة. فضاعفت شدة الزحام من مضض الانتظار وأضاف تلاحم الناس سأما جديدا الى سوء الموقف. حتى ظن بعضهم أن الوليد لابد أن يكون قد أصيب بما أقعده في داره قبل أن يظهر للناس بفأسه يعتزم تقويض البيت وطيه . أو اختطفته أعوان هبل وأساف ونائلة (١) ولم يكن الامر كما زعم الناس بل هو حي يرزق. وهو في طريقه الى الكعبة لولا بعض أقاربه وبنو عمومته يتوسلون اليه في العدول عن خطته حتى لاتحل عليه غضبة رب البيت وصاحبه. ولكنه كان يحاول عبثا افهامهم حسن نيته ونبالة قصده ونباهة عمله

ثم زاد الضغط . واشتد الزحام . وكادت تبلغ القلوب الحناجر ثم ظهر فجأة بين الناس كهل عملاق عريض المنكبين. مسمم العنق. يشق طريقه في الزحام صوب الكعبة حاملا فأسه على كتفه نخفتت ضوضاؤهم. وحبست أنفاسهم وراحوا ينظرون اليه كما ينظرون الي الذاهب الي ساحة القتال يحمل رأسه علي راحته. أو المحكوم عليه بالاعدام لايملكون له الا نظرات الاشفاق والعطف. أو دموع البكاء والحنين ، ثم صعد فوق جدار الكعبة فيما يلي الركن اليماني . والكل يتوقع له السقوط قبل أن يرفع يده بالفأس

---

(١) اسماء بعض الاصنام

ولكنه لم يقع شيء فقالوا في نفوسهم لعله لا يقع الا عند بدء الهدم وهو لما يبدأ به ، ثم وقف الوليد والقى نظرة على هذه الآف يفيض بها السهل والجبل وتنظر اليه نظرات الوداع الاخير . فهالته جموعهم . وأضعفته أحزانهم . واوهنته نظراتهم . فأطرق برأسه . وتراخت ذراعيه بفأسه فزعموا أن قد سقط عليه حجر من سجيل . أو اصيب بشلل في ساعده ولم يكن شيء من ذلك قد أدركه . وانما كان يستجمع شجاعته . ويستذكر مهمته ويستجم قوته . فما لبث أن ثارت في نفسه عوامل الاقدام وفار الدم في عروقه. فحمل فأسه.. فظنوها مكابرة.. ثم رفعها فخالوها طفرة العجز . ثم هوى بها فتخيلوها سكرة الاحتضار.. ثم رفعها في قوة فشهقوا، ثم هوى بها فسهموا، ثم رفعها فشدهوا ثم هوى بها فذهلوا ، ثم غابت عيون البعض في المحاجر وأيقن البعض انه اختبار وامهال يمنحه المجترىء فرصة للتفكير والعود. وفترة للمثوبة والانابة . حتى اذا عاد وعدل عن الهدم. عفي عنه رب البيت والا أحل به سوء النكال . ثم غدا أكثر الناس الي منازلهم ومتاجرهم ونواديهم في احساس حاد وشعور مرهف . يتوقعون بين الآونة والاخري احداثا جساما وخطوبا جلله . ومر النهار بشمسه المحرقة وجاء الليل بنسماته النديه . ولم يسمعوا ان حادثا غير عادى قد وقع . ثم مر الليل بعجبه ودهشته . وانبلج الفجر بسدعه وضيائه ، ولم يتناقل الناس ما من شأنه أن يكون حادثا وطلعت الشمس . والكل يعتقد أن عملية القصاص قد دارت على رأس الوليد ليلا . ولم يعد هناك أمل في لقائه. ولكن ما أشد دهشتهم وأعظم عجبهم حينما الفوه قبل الضحى يشق طريقه الي الكعبة ليواصل عمله من جديد عند ذلك أيقنوا أن رب البيت قد بارك نيته ورضى عمله . وقبل جهده

فتصدت له القبائل والبطون لا يمضي في عمله حتى يشار كوه شرفه ويقاسموه فضله ونخره ، فرضي رغبتهم. وقبل بغيتهم. وأعطي « شق الباب » لبني عبد مناف وزهرة ، وأعطى ما بين الركن الاسود واليماني لبنى مخزوم وقبائل من قريش . وأعطي ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ابنى عمرو وأعطي شق الحجر لبنى عبد الدار ثم راح الكل يركمون بالمعاول وينتصبون بالمكاتل (١) ترفع مليئة وتهبط خالية حتى شق على ضوضاء العاملين صوت من قبل الركن اليماني يقول :

يالله .!! نمط (٢) يمنيه عليها سطور أعجمية .

أصوات ـ أعجمية !! وكيف تكون أعجمية في بلاد عربية

صوت ـ لعلها لغة أبيك ابراهيم بناء الاسس القوية .

ثم سمع صوت آخر من قبل المقام يقول يالطلعة هذا اليوم المبارك ! وهذا نمط عتيد فيه مقول تليد .

صوت ـ ياله من يوم سعيد .

ثم سمع صوت ثالث يقول :

لقد تبدلت الانماط بجندل (٣) وما أنا عن قراءته بحول

أصوات ـ اذن هو عربي مفصل

المكتشف ـ غير انه متعرج كجدول .

أصوات ـ اسمعنا ما عليه حتى يأتي « دويك » اليهودي ليقرأ علينا هذا الاعجمي المهلهل.

---

(١) المقاطف

(٢) قطعة من قماش أو ورق أو نحوه

(٣) صخرة

المكتشف - انه يقول

من يزرع خيرا يحصد غبطة. ومن يزرع شرا يحصد شرامنه. وكما لا يجتنى من الشوك العنب. لا تجزون بالحسنة السيئة.

ثم جاء « دويك » اليهودى وأخذ يقلب المخيطين في يده ثم يمعن النظر اليهما فلا تسعفه عيناه فيتنحى بهما بعيدا لاستطلاعهما وتصفحهما على الضياء ثم يستوضح بعض الكلمات ثم يضمها الى اصحابها ويقرأ بصوت غير مسموع ثم يعيد ما يقرأ وهو يقول :

انا الله ذو بكة (١) خلقتها يوم خلقت السموات والارض . وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها (٢) مبارك لاهلها في الماء واللبن .

هذه ترجمة المخط الاول أما ترجمة الثانى فانها هكذا .

مكة الله الحرام. يأتيها رزقها من ثلاثة سبل . لا يحلها أول من أهلها

* * *

وراحت القبائل تتداعى الى نقل حجارة الجرانيت الازرق من الجبال المجاورة للبناء هذا ينقل على جمله وذاك ينقل على حماره . وثالث يحملها على كتفه . وكان من بين هؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عماه أبو طالب والعباس وبينما هم كذلك. واذا بأبى وهب بين عمرو يقف بين الجميع على صخرة عالية ويقول :

يامعشر قريش :

لقد رأيت من العلامات الروحية ما يجعلنى اهيب بكم ان لا تجعلوا

---

(١) لغة فى مكة والمعنى انا الله صاحب مكة

(٢) جبلاها

في نفقة هذا البيت مالا اصبتموه غصبا . ولا قطعتم فيه رحما . ولا انهكتم فيه ذمة أحد بينكم وبين أحد من الناس .

يامعشر قريش لا يدخل في بنائه من كسبكم الا طيبا . لا يدخل فيه مهر بغي . ولا بيع ربا . ولا مظلمة احد من الخلق .

ثم نزل ورسول الله اكثر الحاضرين فرحا بما يقول . وأشدهم احساسا بالجذل والسرور . ثم جاء (باقوم) الرومي البناء وخلفه مساعده (حنا) المصرى وراح الاول يسبر الاسس التي بنى عليها أبراهيم بعتلة(٣) في يده ، فاذا بها كما قيل له ، لا يمكن زحزحتها ولو تزحزح جبلا مكة من مكانهما فبدأ يبنى عليها واشراف القبائل تتزاحم في خدمته سبقا وراء شرف الخدمة في البناء ، وجريا خلف جمال السمعة وحسن الاحدوثة. وبغية التقرب والزلفى الى رب البيت

ولمحت نظر البناء (باقوم) قطعة من الحجارة قاتمة لا تمتاز في نظره عن بقية الاحجار الزرقاء الملقاة هنا وهناك يتبركون بها ويتمسحون ويتناوبون حراستها قبيلا بعد قبيل . ويوصون بها فريقا أثر فريق وهو لم يفهم من أمرها شيئا . بل لم يشأ أن يفهم مادام قد عرف أن هؤلاء جميعا سادة وعبيدا يقدسون الاصنام ويعبدون الاوثان . فقد لا تكون أكثر من قطعة في هذه الديانة المغلقة المعتمة . وقد تكون رأس آله أو قطعة منه وكل هذا لا يعني الرجل الرومي المؤمن (بالأب والابن والروح القدس والكل اله واحد) ولكن الفضول الملح يأبي الا أن يعرف سر هذا الحجر القاتم فطلبه من أحد مساعديه ليضعه في الجدار ككل حجر مستعد لذلك . ولكنه استقبل بعاصفة من الغضب . كادت تطيح لها

(٣) المعروفة عند الناس (بالاجنة) وهو قضيب من الحديد محدود من مؤخرته

رأسه . فحمد الله على النجاة والسلامة ! وسكت عن تتبع البحث مؤقتا وان كانت عوامل الفضول قد زادت في خلده ثورة والحاحا

وما ارتفع البناء الى مثل قامة الرجل . والي حيث ينبغي أن يوضع الحجر الاسود في مكانه الطبيعي من الجانب الشرقي ، حتى كان المار حول الكعبة يلمح شرارة الحرب وميضه لا تلبث أن تشتعل . وخف ـ أثناء التلاحي والتفاخر . بالانساب والتنابيذ بالالقاب ـ فتيان بنى عبد الدار وبنى عدي واحضروا جفنة (١) مليئة بالدم وغمسوا أيديهم فيها تحالفا وتعاهدا على أن يستميتوا دون أن يرفع الحجر الاسود المقدس الا بأيديهم ليكون لهم وحدهم هذا الشرف والفضل على كر الدهور ومر الايام . بينما كان الآخرون يعدون العدة لمنازلتهم عليه. وحربهم من أجله حتى يظفروا به ويرفعوه أو يهلكوا دونه

ثم تفاقم الخطب واشتد البلاء . وعلا الضجيج وارتفع الصياح والصخب وارتفعت الالسنة واعدت السهام وشرعت السيوف فانتفضت شيخوخة أبو أمية بن المغيرة بدم الشباب من جديد . وثار ثورته التى ثارها يوم دعا القبائل جميعا لبناء الكعبة . فكأنما هو هزبر في اهاب انسان . أو زلزال يعزق الارض تحت أقدام المتنازعين . نخفت الضجيج في زئيره . واختفي الصخب تحت قوارع صوته . وسكت الكل ودماء الغضب تغلى في وجوههم. واحمرار الشر يتألق من عيونهم. ثم أهاب بهم وقال

ـ يا معشر قريش اجعلوا بينكم حكما فيما تختلفون وليكن أول من يدخل عليكم من هذا الباب (٢)

---

(١) المعروفة بالقصعة وسمى هذا الحلف فيما بعد بلعقة الدم

(٢) يشير الي جانب السلام

وما ان صمتوا قليلا ليعرفوا من هذا الذى ستسوقه الظروف الي منصب الحكم بينهم فاذا كان أحق بها وأهلها رضوا به . والا عادوا الي حيصتهم وثورتهم وتلاحيهم، حتى كان الداخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فصاحوا جميعا في صوت واحد :

ـ هذا هو الامين .. رضينا به ..

فهدأت ثائرة نفوسهم . واستقرت زفراتهم في صدورهم . وعاد ماء الرضا والارتياح الى وجوههم . وساد بعض الوفاق والاخاء بين صفوفهم ثم وقفوا بين يديه وفيهم من هو في سن أبيه وجده وراحوا يدفعون اليه بحججهم ويتقدمون اليه بسلسلة أنسابهم . ومقاييس بعدهم من ابراهيم وقربهم ، حتى خلت جعبتهم وأفرغوا كنانتهم . . ثم أطرق قليلا وفكر هنيهة ثم قال :

— هلم الي بثوب

فأتي له به . فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه .. ثم قال :

— ليأخذ كل كبير قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب . فأثلج صدرهم جميعا ذلك الحكم

ثم حملوه إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء. ثم تناوله من الثوب بيده فوضعه في موضعه فانحسم الخلاف ورضى الكل بذلك وهم فرحون مسرورون بهذا الحل الذى حقن دماءهم ، وحفظ أرواحهم ، وأبقى عليهم نعمة السلام ، وشرفهم جميعا في رفع الحجر الأسود إلي مكانه ..

« انما قدمت هذه البلدة اتوكف خروج »
« نبي قد أظلنازمانه وهذه بلدته ومهاجره »
« فكنت أرجو أن يبعث فاتبعه. فلا تسبقن »
« اليه يامعشر يهود ولا تحملوا خصومته »
« والاسفك دمكم وسبي ذراريكم ونساءكم »
« وليس هذا مما يزهد فيه وانه لعزيز »
« رؤوف رحيم » ابن الهيبان اليهودى

جلس الكل حول المريض الممتد على فراش الالم وقد شغلته أوجاعه عن كل ما حوله وراحت أطياف الماضي تتوارد أمام عينيه فاتنة خلابة ينظر اليها بعين الاسي ويزفر عند رؤيتها بأنفاس الوداع . فيخيم الحزن أمام عينيه . وترتسم على وجهه صورة حزينة كلما أحس بدنو الاجل . ونأيه عن مطارح الهوى ومغانى الامل . ولم يك حديث من حوله على مسمعه إلا كهمس الرؤى. وهجس الأحلام . ووسوسة الحلي

غير أن عواده أدركوا منه صحوة يقظة . وانتباهة حادة . ورغبةفي الاستماع إلي ما يتحدثون فشالت حواجبه واتسعت عيناهوتجعدت جبهته حينما أخذ عامر بن ربيعة يجيب على أسئلة ضيف له وافاه من المدينة قبيل الأشهر الحرم وقد أخذ يسأله عن شاب من بنى عبدمناف اشتهر بين العرب بالامانة والحكمة واصالة الرأي والبركة في التجارة ورعاية الغنم وقد كان لهذا الضيف المدني قطعان من الغنم في حاجة إلى من يتعهدها ويرعاها سيما إذا كان الراعى على مثل ما عليه محمد بن عبدالله من خلال ووفاء وبر ونماء

فأجابه عامر بن ربيعة قائلا :

— ويبك لم يعد محمد بن عبد الله في حاجة الى رعاية الغنم أو ارتياد أسواق التجـارة وركوب متن السفر ، على الرغم من أن والده لم يترك له إلا خمسة من الابل وقطيع متواضع من الغنم وجارية واحدة . وأن رعيه وتجارته زهاء عشر سنوات لم تدر عليه من أخلاف الرزق ما يجعله في مثل ما هو فيه من نعمة وثراء .

سيف — أكاد لا أفهم ما تقول يا أخاه فمحمد لم يرث عن أبيه ثروة تذكر ولم يتجمع لديه من كده ونفاحه ما يغنيـه عن التجارة والرعي فـكيف بعد هذا تصفه بالنعمة وتنعتـه بالثراء ؟ ! أدخل إلى صفوف الـكهان وامتهن صناعتهم فسالت الأرزاق بين يديه سيل العرم ، أم دخل في سدانة الـكعبة وخدمة الآلهة فتساقطت حوله ديم الثراء ؟

فضحك لهذا عامر بن ربيعة حتى بدت نواجزه ثم قال :

-- إنك يا ابن العم طيب القلب بلا ريب . وانك لو علمت ما بين محمد وبين الـكهانة والسدانة والآلهة من عداء وجفـاء لما حملت نفسك مشقة السؤال . انه يبغض الـكهانة بفطرته وينفر الناس منها وان أذنه لتسمع الوقر ولا تسمع عبارات تعظيمها وآيات تقديسها . ولقد روى عنه أنه سمع (بحيرا) الراهب يقسم بها لعمه أبي طالب أثناء استضافته لهما فاستل نفسه من بين الجميع غاضبا وهو يقول :

— والله ما كرهت أذناي شيئا كرهي لسماع هذا القسم

سيف — اذن لا بد أن يكون قد هبط على محمـد رزق من السماء أو فاض له من الارض .

عامر — هو أشبه أن يكون قد هبط من السماء وذلك لأنه قد تزوج

بخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي . . . سيدة ذات جمال ومال وشرف وكفاية . . وعراقة ونسب ، فحل منها مكانا رفيعا . ونزل منها مستوي منيعا . وسا كنها قصرها ذا الشرفات الشامخة الفسيح الارجاء يقع في الساحة الكبري بالقرب من الحرم بعد أن رفضت كل من تقدم يطلب يدها من مكة وما حولها

وقد أعقبت منه الطيب والطاهر وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . ولقد رأيت أكثرهم وحقك كحبات الجمان حول عنق الحسناء. أو كالأنجم الزهر في الليلة الظلماء . وكم يسعدك ان ترى « الطاهر » يداعبه « ميسرة » خادم خديجة فتمتد يد الطفل الصغير اليه كأنها وميض النجم يصك بها وجه خادمه ويعبث بذؤابة لحيته فيضحك ميسرة فيحا كيه الطاهر في ضحكته . وكلما أمعن الخادم في مزاحه شع وجه الطاهر بسنا سروره وبهجته . وكم يهنئك أن تري فاطمة كحام الحرم وداعة . وكرقة النسيم شفافية . وحفيف الغصون حنوا وعطفا . ولكن الدنيا هكذا لا يطول صفوها ولا يستمر عفوها . فقد فجع قلبه في أكثر من واحد من أولاده الذكور . فجرح كبده وشقت مرائره ولكنه رغم هذا جلد قوي صبور .

سعد - لعله يا عامر وقد جلس مجالس الاثرياء وأحس براحة النعيم والرفاء . قد أخذ منه الغرور مأخذه وامتلأ بالعنجهية والكبرياء .

عامر — لا وأبيك إن محمدا هذا لا تزيده الايام إلا إتزانا وحكمة . ولا يزيده الغنى إلا تواضعا وعطفا على الفقراء واليتامي والمساكين واعتاق الرقاب .

أجل لم يكن هذا الحديث حول شخصية محمد الامين علي مسمع من

المريض زيد بن عمرو بن نفيل الا نقاهة للمريض تدفق في عروقه ماء الحياة والنشاط والقوة، فجلس بعد رقاد طويل. ثم عاد فاستند الى حائط مبالغة في الراحة والتحفظ. ثم أشار الى المتحدثين بالصمت ليأخذ مكانه بينهم وليدلي بدلوه بين دلائهم. ويعلن رأيه وعقيدته في النبي محمد قبل أن يفارق الحياة ثم قال :

— انا لننتظر نبيا من ولد اسماعيل ثم من بنى عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فان طالت بكم الحياة ورأيتموه فاقرأوه مني السلام . انه ذلك الرجل الذى ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالكث الشعر أو قليله لا تفارق عينه شائبة حمرة يتربع خاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه وسوف يخرجه قومه إلي يثرب ويكرهون ما جاء به فيظهر أمره فاياكم أن تنخدعوا عنه فانى طفت البلاد أطلب دين ابراهيم فكل من اسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الذى وراءك وينعتوه بكل ما نعته لكم به ويقولون لم يبق نبي غيره ،لا إخاله الا هذا الامين محمد

* * *

هذا — حى — من ثقيف يهرع في هجوم السيل وتزاحم الجراد، الي منزل داهية العرب عمرو بن أمية أحد بنى علاج وهذا كاههم يدق بابهم ممتقع اللون مرتجف الاعصاب. والكل حوله مطرق الرأس كأنما هم على باب قبر يودعون عزيزا عليهم كريما . وما لبث الباب أن فتح ودخلت ثقيف ومن تابعها الي فناء الدار ثم حضر عمرو بعد هنيهة فوقفوا لمقدمه في صمت البكم ووجوم الحزانى

ثم ابتدرهم قائلا ما خطب ثقيف ؟

فاطرقوا قليلا ثم رفع (سواد بن قارب) رأسه وقال .

لقد حجب تابعونا (١) عن منازلهم وطردوا من مقاعدهم ورموا بشهب راصدة جائحة حتى تعطلت كهانتنا وتضاربت صناعتنا واختلطت الامور علينا لقد كنت بين النائم واليقظان اذ اتانى رئيي (٢) فوكزني بقدمه وقال قم ياسواد بن قارب واسمع مقالتى واعقل ان كنت تعقل انه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو الى الله عز وجل والي عبادته ثم أنشد يقول :

عجبت للجن وتطلابها وشدها العيس بأقتابها
تهوى الي مكة تبغي الهدى ما صادق الجن ككذابها
فادخل الى الصفوة من هاشم ليس قدامها كاذنابها

فقلت له دعنى أنم فاني أمسيت ناعسا فلما كانت الليلة الثانية أتانى فركلني برجله وقال :

قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى واعقلها ان كنت تعقل إنه قد بعث رسول من بنى عبد مناف يدعو الى عبادة الله وترك ماعداه ثم أنشد يقول :

عجبت للجن وتخبارها وشدها العيس باكوارها
تهوي الى مكة تبغي الهدي مامؤمن الجن ككفارها
فارحل الي الصفوة من هاشم بين روابيها وأحجارها

فأشحت بوجهي عنه وقلت دعني انم فاني ابيت ناعسا فلما كانت الليلة الثالثة اتانى فضربنى بقدمه وقال قم ياسواد واسمع مقالتى إنه قد

---

(١) يقصد بذلك الجن الذين كانوا يسترقون السمع من السماء ليعرفوا به أخبار الدنيا ثم يخطرون أصحابهم من الكهان

(٢) تابعي من الجن

بعث نبي من تهامة يدعو الي الله والى عبادته ثم أنشد يقول

عجبت للجن وتجساسها　　وشدها العيس بأحلاسها
تهوي الي مكة تبغي الهدي　　ماخير الجن كأنجاسها
فادخل الى الصفوة من هاشم　　وارم بعينك الى رأسها

ذكر هذا سواد بن قارب بين الجميع وهم مستوفزون غاضبون متقززون. واجمون كأنهم جماعة من الاشقياء يستمعون الي تلاوة الحكم عليهم بالاعدام أو واد من القردة كثير الحركات. سريع اللفتات. مرهفي الاعصاب معقولي اللسان ثم تحدث بعده (جبير بن مطعم) وقال كنا جلوسا عند صنم (سوانه) وقد قرب له احدنا عجلا فسمعنا صوتا ماسمعنا مثله قوة وفصاحة وهو يقول.

اسمعوا الى العجب. جاء اشراق الوحي وأمسينا نرمي بالشهب لنبي بمكة اسمه أحمد. ومهاجر الي يثرب. فأمسكنا عن الطعام لمثل هذ الكلام

فنظر الحاضرون بعضهم الى بعض وزاد احتقان الدماء في وجوههم وتصبب العرق في جباههم ولم يبق الا أن تنفرج برأي الداهية. عمرو بن أمية والكل ينظر اليه نظرة الملاح الى الافق يبحث عن رسل الشواطيء وحوافها والضال في البيداء يتطلع الى نجوم السماء وكواكبها ويرتقبون ما تنبجس عنه شفتا عمرو في لهفة ومضض كما يتلهف الغريق على زورق النجاة

أخذ عمرو يسمع اليهم في عمق ينظر اليهم ويطيل النظر تارة ثم ينظر في الفضاء اخرى كأنما يوازن بين رأيين ويقارن بين فكرتين ثم قال.

بلى.. ان كان ما يرمي به الجن من الشهب (١) هي معالم النجوم التى يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الانوارُ في الصيف والشتاء وما يصلح الناس في معايشهم فهي والله طي الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها وان كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا الامر اراد به هذا النبى ينبثق نوره من هذه الناحية « وأشار الي مكة »

* * *

اقتتل الفريقان حول عين عذبة على مقربة من سهل خصب وظلت الحرب أياما وليالي طاحت فيها رؤوس وذهبت ضحيتها نفوس ووضعت الحرب أوزارها بعد أن كتب النصر لبنى قتاده على اليهود بدماء ابنائها ثم تداعوا الي الصلح بعد ذلك لاقرار اوئام مكان الخصام واحلال السلام محل التنابذ والشقاق. وأتفقوا على أن تكون العين لبنى قتادة وحدهم وان يتبرعوا بجزء من عشرة اجزاء. وفاء لواجب الجوار والبيئة ولكن ذلك لم يكن كافيا لغسل صدور شبان اليهود أو مضمدا لجراح الحرب في نفوسهم ولم يستطع كتمان ذلك عليهم شالوم بن شريح حتى ابتدرهم بقوله :

---

(١) لعل في هذه الاية شرح لقضية الجن وما رميت به من شهب وما اتصلت به من أنس اذ ذاك. قال تعالى أمرا لنبيه :

(قل اوحى الي انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فامنا به ولن نشرك بربنا أحدا وانه تعالي جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وانه كان يقول سفيهنا علي الله شططا وأنا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا الى قوله تعالي :

وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وانا لا ندري اشر اريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشدا)

ياذريح. لقد أمر أمر(١) نجيج وجاء زمان نبي يبعث الآن وسنجاهدكم معه ونقاتلكم في صفه حتى اذا لم يبق الا الذر جاهدناكم به (٢)

* * *

نضب الماء في الاودية والحفر أو كاد وحرص الناس على ما عندهم من أقداح، حرص البخيل على درهمه . والجبان على دمه حتى تنفرج السماء بوابل المطر . وينزل الغيث مدرارا منهمرا .. ثم زاد قلق الجميع وعم اليأس بينهم وأجهشت الاطفال بالبكاء وتدلت الالسن من العطش وجفت الحلاقيم لندرة الماء ثم سمعوا أن بينهم حبرا من أحبار يهود تقيا صالحا ومباركا فطلب اليه أحدهم أن يستسقيهم فقال :

ـ لا والله .. حتى تقدموا بين يدي ضيفكم صدقة

عبد شمس ـ وما مقدارها ؟

ابن الهيبان اليهودي ـ صاع من تمر أو مدان من شعير . ثم وقف بعد أن أخذ ميرته وتوجه إلي السماء وطلب من الله الرحمة لبنى قريظة في نسائها البوا كي وشيوخها الضوارع . وأطفالها الرواضع ، فما فارق الرجل مكانه حتى سالت الوديان والاباطح بالماء . فلا تدرى مقدار الفرح الذى حل ببنى قريظة . أيتمثل في تهافتهم علي يدى ابن الهيبان الحبر اليهودى يقبلونها ويتبركون بها ويتمسحون .. أم في المسارعة الى تناول الماء وحمله إلى داخل الحى وقلب المنازل .

ثم طاف بالحى يوما نبأ اشتداد المرض على ابن الهيبان فتقاطر علي

---

(١) الاولى بفتح فكسر والثانية بفتح فسكون والمعني ظاهر

(٢) هذا ما كان يقوله يهود العرب قبل بعثة رسول الله بنحو شهر ولكنهم بعد ذلك نكصوا على أعقابهم خاسرين

محلته كل من في الحي ومن حوله من شبان و كهول وشيوخ . حى سدت المنافذ اليه وأضحى مركز الدائرة محيطها هذا الموج الزاخر من البشر كأنه خلية تطوف بها وفود النحل وتلجأ الى ظلها . أو الـكعبة موسم الحجيج يقصدها الناس رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

فاذا نادى الرجل لبي نداءه الف مجيب واذا زفر أو سعل جزعت له الف نفس واذا تأوه شقت له الف كبد ودمى له الف قلب

فاما احس الحبر بدنو الاجل لوح بيده في الفضاء وأشار عليهم بالصمت ليسمعوا كلماته الاخيرة وقال :

يامعشر يهود ما ترونه اخرجني من أرض الخمر والخمير الي أرض الجوع والبؤس ؟

أصوات ـ انك أعلم .

ابن الهيبان ـ انما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظلنا زمانه وهذه بلدته ومهاجره . فكنت أرجوا أن يبعث فاتبعه فلا تسبقن اليه يامعشر يهود ولا تحملوا خصومته والاسفاك دمكم وسبى ذراريكم ونساءكم وليس هذا مما يزهد فيه وانه لعزيز رؤوف رحيم

ثم زفر زفرة عميقة وأسبل عينيه وأسلم روحه الى بارئها وذهب الي لقاء ربه مأسوفا عليه بين النحيب والبكاء



يضم هذا القسم ـ خلوته بغار حراء ـ نزول جبريل عليه ـ انقطاع الوحي ـ عودة الوحي ـ اسلام علي وأبي بكر ـ ولمة النبي لأهله ودعوتهم الي الاسلام ـ جهر النبي بالدعوة ـ مؤتمر قريش الأول للنظر في الدعوة الجديدة ـ ارسال وفد منهم إلى أبي طالب ـ رجاء عمر له بالتنازل عن دعوته ـ رفض النبي لذلك ـ مؤتمر قريش الثاني ـ وفد قريش الى عمه رجاء تسليمه لهم على أن يعطوه عمارة بن الوليد بدله ـ مكافحة قريش الدعوة في موسم الحج

- ١ -

« اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق »
« الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم »
« الذى علم بالقلم، علم الانسان مالم يعلم »
قرآن كريم

وكان السائر بجوار منزل خديجة في هذا الوقت يسمع صدى صوتها ينبعث من الداخل ويسري بين جنبات السكون الهادىء . فيوقظ العبيد ويهيب بالخدم الي إعداد ما يلزم لزوجها وحبيبها محمد من فراش وطعام وماء يكفى لفترة التحنث (١) ويسد حاجة الفقراء والمساكين الذين يقصدونه في غار حراء (٢) في شهر رمضان من كل سنة وقد ازكي الحركة والنشاط بين الجميع. رغاء بعير على باب المنزل ينتظر دوره في حمل الامتعة والزاد الى باب الغار . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للخروج قليل الحركة . دائم الصمت . مطرق الرأس غريق التفكير . يخرج من حجرته ليطالع صفحة الافق ويرى مقدار ماتنفس عنه النهار من الضوء ثم يعود فيقف قبالة أولاده الصغار ليلقي عليهم نظرة فراق حانية. ويطوف بروحه حول مضاجعهم الساجية. فتستيقظ في رأسه نوادرهم ونسبح في خياله طرائفهم . وتدرج أمامه حركاتهم فيهش لها ويبتسم. ولكن ابتسامته لاتلبث أن تجف حين يذكر انه سيحرم من هذا الامتناع فترة من الزمن . وسيغادر مكانه الي الغار بعد قليل..وما كان ينسيه أو يسليه الا تذكره انه وان حرم مطالع أولاده . واشراق زوجته. وهناءة منزله . فذلك إلا

(١) الانقطاع للعبادة (٢) الغار الذى نزل فيه الوحي على رسول الله ويعرف الآن بجبل النور وهو على بعد فرسخين شمال مكة

إلي مطالع الفيض . واشراق النفس . وهناءة الروح . وسعادة الابد يلمح علاماتها كل يوم . ويشم (٣) بريقها في كل مناسبة ويستطلع رؤاها في رائعة النهار . ويسمع سجعها علي ألسنة الاشجار والاحجار تقرئه كلما مر بها السلام . وتبشره بالرسالة عن وحي أو إلهام

ثم وافته خديجة رضي الله عنها . وهو في مثل حالته . تتنازعه حالتان حالة العطف على أولاده والحنين الى كهف عبادته وقبلة خلوته . ومشرق سعادته . فحدقت في وجهه ولعلها أدركت ما به ولكن اتزانها وحكمها واناتها وكياستها . لم تدع للفضول طريقا الى نفسها أو منفذا الي لسانها . فاكتفت من الموقف بنظرات الحنو تذرع جسمه واجنحة الشفقة ترف عليه حتى بادرها حديثه وبثها نجواه وشكا اليها بثه وأسرها مخاوفه من دسائس الجن ونزع الشياطين لا احساسا منه بضعف ولا زعزعة بثقته بنفسه ولكنه حرص الابي على اداء الواجب وقوة الكمي على الوفاء بما أعد له . فاجابته الزوج الكريمة الرزينة بما هدأ روعه وأزال أوهامه .

وهناك فوق جبل حراء كان يري محمد صلى الله عليه وسلم يسير حاني الرأس كأنه يبحث عن مفقود . متئد الخطا كأنه يسير تحت جلمود . ثم يعود فيسرح نظره في الفضاء يتلقى فيه سديم السماء بصفرة الصحراء ثم لا يلبث السديم طويلا حتى تستحيل فضته ذهبا وبياضه صفرة . تتخذ شكل التاج على رأس ملك مهاب . تتقدمه سنانه . وتسبقه السنته وسهامه . يطارد الغلس ويلاحق الظلام . حتى اذا انقشع حجابه وتمزق

---

(٣) يرى

اهابه . اشرق جبين الغزالة يملأ الافق دواء ويحيل الوحشة بهجة وسرورا ويفيض على السكون حياة وانعاشا ونشورا .

هذا راع يسوق أغنامه الى موارد العشب . في مثل السحابة الزاخرة يسبقها بعض الزوابع العابرة.. وذاك قطار من الابل يتجه صوب اشجار السعدان كانه سلسلة من الجبال أو صفوف من الاشجار سقطت عنها زينة الربيع وهذه أسراب من الطير حائمة في الفضاء . رائحة غادية بين الحب والماء وتلك سواد الخمائل في أغصانها المتشابكة وأفنانها المتعانقة تبعث بالغبطة . وترف بالظل والرحمة . حتى اذا انتهى رسول الله من طوفته . ورجعت عينه من رحلتها وسارعت الشمس في مدارها واشتدت زهومتها عاد رسول الله الي الغار في لجة من التفكير. ويحيط من العظات والعبر حتى اذا أخذت الشمس تجمع ذيولها وتتواري اعياء خلف حجابها . وخلفت وراءها عيون السكون دامعة وعرائس الشفق جازعة لم يفق رسول الله من موقفه الا وحشة الليل وتوسلات الفقراء . وبعض رغبته في الافطار بعد صوم طويل . يذكره كيف نبتت حياته ونمت ذراته .وكيف استحالت الى طعام شهى يطارد الجوع ويبعث بالحياة والنماء وكيف زال الماء الذى سقاه وتعهده وأنماه بعد أن أزجاه الله سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار .

فاذا جن عليه الليل وهجعت الخليقة . وخيم السكون . واشرفت السماء على الارض بعيون النجوم . ووقف القمر بينها كملك حوله وزراؤه أو قائد وسط جنده يشير بالتقدم أو يأمر بالتريث والانتظار . أو يغاير

بين المواقع . أو يقول بالتوارى والاختفاء ! ! حركة دائمة ! ! ونظام محكم !! وتقدير بحسبان ! فيعود رسول الله الي نفسه أكثر ما تكون قوة الايمان . وكأني به يريد أن يردد ما قاله الله بعد ذلك في كتابه .

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماء فأحيي به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » ستة أشهر قضاها رسول الله صلى عليه وسلم على هذه الحال كانت خاتمتها شهر رمضان الذى اتصل فيه بجبريل ونزل فيه القرآن . هدي للناس وبينات من الهدى والفرقان .

ستة أشهر قضاها رسول الله في صيام وعبادة وتفكير وبر وصلة حتى جعلت مادته نورا . وصيرت بشريته ملائكية واشتعلت روحه بنور الحق والحقيقة . وصفت نفسه وتأهلت لاستقبال الفيوضات الالهية والنفحات الربانية .

* * *

دخل (ميسرة) منزل سيدته خديجة فالفى به حركة غير عادية بين العبيد والخدم هذا يحمل ماء وذاك يحمل غطاء . وتلك تحمل الاطفال لتنأي بهم بعيدا عن حجرة معينة . ورابع يشير باستدعاء طبيب . وخديجة بين كل هؤلاء كقطب الرحى يأخذون عنها ويدورون حولها ويأتمرون بأوامرها أو كالقائد الهادىء الاعصاب يدير المعركة في قوة وحزم وسكون فراع (ميسرة) هذه الحركات من ندل المنزل وخوله (١) وهذا الوجوم من سيدته ومخدومته فدنا منها على قدمين من رجاء في معرفة السر في ذلك

---

(١) الندل والخول بمعني الخدم

وخوف من أن يناله رشاش الغضب ولـكنه كان الي الرجاء أقرب منه الى الغضب لما يحس به ويشعر من منزلة له في نفس سيدته .

وما أن دنا منها وسألها عن أسباب ألمها ووجومها وسر كدرها حتى أشارت الى حجرة كان فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن كدر خديجة خوفا علي رسول الله . أو وجومها تشككا في قداسة ما اتصل به ونزل عليه ولـكنها عين الحب والاشفاق وعاطفة الزوجةالوفية النبيلة وما وقع نظر ميسرة على سيده حتى الفاه ممتقع اللون . مرتعد الاعصاب كأن به نوبة من الحمي فتحركت في نفسه عوامل الفضول وثارت فيـه عاطفة الحب والحنان فاستمهلته الاجابة حتى تعود

ثم قامت تجمع ثيابهـا وانطلقت الي الخارج. ثم اطل ميسرة في وجه رسول الله . فالفاه لا تزال به وسامة الشحوب وإن كانت عينيه قد اغفت قليلا فأحكم عليه طرف غطائه.وراح يذرع الردهة الـكبرى ذهبة وجيأة. وهو علي أشد ما يكون من القلق انتظارا لمقدم سيدته وتوصلا الي معرفة ما أصاب صاحبه بالامس وسيده اليوم .

ثم لم تلبث السيدة خديجة ان عادت . وقد تبدل وجومها بشرا وصمتها جذلا . فوجد ميسرة في هذه الحالة ما يشجعه علي اعادة السؤال عن سيده ومعرفة ماحل به فقالت له

فيما هو نائم بالغار جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال اقرأ . . فقال له ما أنا بقاريء (١) فضمه الى صـدره ضمة قوية . . ثم قال له اقرأ فقال ما أنا بقاريء . فضمه الي صدره ضمة قوية أخرى . . ثم قال له اقرأ . . فقال ماذا أقرأ ؟ ؟ فقال له (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من

---

(١) لا أعرف القراءة

علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان مالم يعلم) فقرأها كما حفظ ثم انصرف عنه ولكنه مالبث أن استيقظ فزعا ثم زايل مكانه في الغار وخرج من الجبل هائما وانطلق مذعورا يتلفت يمنة ويسرة وجسمه يرتعد كأن به الرحضاء (١)

وبينما هو علي مثل حاله من الفزع والرعدة التفت واذا بصوت يناديه ويقول يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل فاشتد فزعه لجرسه على سمعه. ووقعه في نفسه . فرفع بصره الى السماء . فاذا الملك الذي جاءه مناما في صورة رجل سابح في آفاق الفضاء فتضاعف الرعب وزاد الفزع فوضع يده علي عينيه وحول وجهه الى جهة أخرى . ويالشدة الدهشة حينما رآه هو بعينيه في الناحية الاخرى فوضع يده على عينيه مرة أخرى وأشاح بوجه الى جهة ثالثة فالفاه مرة أخرى صافا رجليه في الفضاء . سابحا في أمواجه فادار وجهه الي الجهة الرابعة فوجده كذلك في مثل وضعه فلم يستطع بعد ذلك أن يقدم رجلا او يؤخر أخرى حتى انصرف عنه الملك فعاد الى بيته ودخل وهو في شدة الهلع ونهاية الاضطراب وغاية الشحوب ، وقال زملونى .. زملوني (٢) فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى حتى ذهب عنه الروع ثم نظر الي نظرة العائذ اللائذ وأخذ يحدثني ماوقع له . . .

فقلت :

أبشر يابن العم واثبت فوالذى نفسي بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ووالله لايخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم وتصدق

---

(١) نوع من الحمى
(٢) غطوني بفراشي

الحديث وتحمل الكل - وتقري الضيف . وتعين على نوائب الحق
فاطمأن روعه قليلا . وكان قد أخذ منه التعب مأخذه فراح في سنة من النوم فغافلته وذهبت الى ابن عمي ورقة بن نوفل وأخبرته الخبر فاطرق مليا ثم قال : -

(قدوس .. قدوس . والذي نفس ورقة بيده . لئن كنت صدقتني ياخديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه لنبي هذه الامة فقولي له فليثبت) .

ثم عدت فرحة بهذه البشرى الجليلة التي اكدت ماوقر في نفسي وما قلته له احساسا مني وايمانا . فالفيته نائما مايزال وكلما أمعن في النوم امعنت في الطمأنينة عليه ولكني مالبثت بعد ذلك أن رأيته قد ثقل تنفسه واهتز جسده وتفصد عرقه وتبلل به جبينه . فعادت الى العاطفة الاليمة . والاشفاق الحزين من أجله ولكن الحال لم يطل به فاستيقظ وأخبرني أن الملك قد جاء مرة أخرى وأمره أن يقول « يا أيها المدثر . قم فانذر . وربك فكبر وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر »

ثم أشرت عليه أن يستريح كما كان عسى أن تعوده الراحة من جديد فقال :
انقضي ياخديجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل أن أنذر وأن أدعوا الناس الى الله والي عبادته فقلت له :
أشهد انك رسول الله صدقا وانه واحد لاشريك له حقا

***

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يطوف بالكعبة . فلقيه ورقة بن نوفل فسأل رسول الله عما رأي محاورته خديجة بنت عمه فقص

عليه رسول الله قصته فقال له ورقة (والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الامة . ولقد جاءك الناموس الاكبر الذي جاءموسي ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركتك لأنصرنك نصرا مؤزرا) ثم مال علي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبلها اجلالا

- ٢ -

« والضحى والليل إذا سجي »
« ما ودعك ربك وما قلى »
قرآن كريم

وكان المترددون بين مكة وشعابها يشهدون رسول الله محمدا غاديا إلى غار حراء رائحا الي مكة متنقلا بين قمم الجبال في خطوات وئيدة مطرقا إلي الارض كأنما يبحث عن ضالة مفقودة . أو مطالعا وجه الأفق كأنه موكل برصد السحب وتعداد النجوم أو متلفتا عن يمين وشمال في لهفة المشتاق. وشغف المرتقب وقد أزوى الحزن بنضرته وخط سطوره فوق جبهته . وغار عمق الألم بعينيه . وأذبل منه مقلتيه . وأضمر التفكير عوده. وأرهف طول الاسي احساسه . . ولم يكن ذلك الا لانقطاع جبريل الأمين عنه بعد أن اتصل قلبه بنور الوحى الالهى وذاقت نفسه جمال العزة الروحية . وأضحى فؤاده كوكبا دريا يوقد من معين الفيض الربانى مما أنساه كل ما حوله . حتى لا يكاد يحس بوجود أبنائه بجواره وزوجه . لولا دعابات الاطفال وحبوهم . وتسلقهم ظهره وعبثهم وتخفيف خديجة من أحزانه . ومحاولة ترفيهها عن أشجانه . . . غير كل ذلك كالطبول حوله والهمس تحت آذانه .

أربعون يوما ورسول الله على هذا الحال يعد سويعاتها ويحتسب أويقاتها ويستثقل سيرها . ويستبطيء دورتها . قد جافي جنبه المضجع وفارق جسمه المخدع . وحالفه فيها الصيام . وآخاه زهاءها القيام. وخاصمه الاطمئنان . وعاداه الهدوء والاستقرار . ولازمه القلق والاضطراب . واستبدل منزله بالغار . وايناس أطفاله بالوحشة . وليونة الفراش بالخشونة عساه يكفر عما زعم أن قد فرط منه وبدر عنه أو عساه يعود الي ما هو أعلى شأوا من أوجه الذي استحق عليه فيض الوحى ولقيا الامين جبريل. ولم يكن رسول الله صلي الله عليه وسلم الا في أوج التأهيل للرسالة .وشأو البعث . كما لم يبدر منه ما زعمه موجبا لفترة الوحى وانقطاعه من كراهة الله تعالى وتوديعه إياه

وفي لحظة راضية . وفترة رحيمة امتلأ الفضاء بجسم عجيب وتجاوبت الآفاق بصوت رهيب . فوقف رسول الله حيث كان مغمض الجفون سيال العرق . شاحب اللون ثم لم يلبث ان استفاق من حالته . يفيض وجهه بالبشر وتشع عينه بالسرور . وتتحدث كل بادرة منه بالغبطة والجذل ، ثم هرول الي خديجة يزف اليها البشري . وأسعد الاماني . ويتلوا عليها ما نزل عليه اطمئنانا لثقتها . وترويحا عن احزانها . وردا على مزاعم الزاعمين لها . . قال تعالي :

« والضحى . والليل اذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الاولي . ولسوف يعطيك ربك فترضي . ألم يجدك يتيما فآوي . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث »

كان رسول الله يتلو على زوجته خديجة هذه الآيات وهي في نشوة

من الفرح تكاد تحملها من مكانها الى طبقات الطير . ومسبح الافلاك وتهتز لوقعها اهتزاز المترنح من وقع الدف (١) ولحن الموسيقي ، لولا رغبتها في المزيد وشغفها بالتقصي . وما أتم رسول الله تلاوته حتى فزعت اليه تعانقه في فورة الطروب ومرح الدءوب . وهي تقول والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لنبيه وحبيبه ثم هتفت بأمينها وخدامها ان أعدوا طعاما وكساء ثم تنادوا في الافنية (٢) وادعوا الفقراء والمساكين . ليأخذوا حظهم مما أفاء الله به علينا شكرا لله وتبجيلا لما من على رسول هذه الأمة به

وفي ساعات معدودة كان بيت خديجة زوج الرسول الامين كعبة القصاد وربيع اليتامى والارامل والبائسين والمعدمين . . . يمتلىء بأمواج من البشر زاخرة ثم تنحسر عنه لتعود اليه أمواج أخري وان كانوا لا يعرفون سر هذا الاحتفاء الكريم . ولم يعن أكثرهم بالسؤال عنه لكثرة ما تقدم لهم ربة المنزل من احسان وصدقات وما عودتهم إياه في فترات متقاربة الحلقات وحسبهم أن يفرحوا لفرح أهل المنزل وخدمه . ولما يزف الي بطونهم وأجسامهم من طعام وأكسية

كل هذا يجرى حول رسول الله يسمع ضوضاءه . ويرى آثاره ويفيض بالبشر له ولأسبابه . ولكنه ما لبث أن أحس بوطأة الواجب وثقل المهمة التي تنتظره فعاد الى صمته . وراح يعد الخطة لمهمته ويضع البرامج لتنفيذ رسالته

دخل علي بن أبي طالب على مربوبه (٣) في بيت خديجة وهو يصلى

---

(١) الطبل (٢) جمع فناء وهو المكان الواسع

(٣) رسول الله .. وذلك أن أبا طالب كان رجلا فقيرا كثير الاولاد فاقترح رسول الله على عمه العباس أن يكفل أحد أبناء أخيه فقبل وكان من حظه جعفر ومن حظ رسول الله علي رضي الله عنه

بها اماما . ولم يكن قدوقعت عين الصبي على مثل هذه الحركات . فوقف دونها مشدوها مبهوتا وحالت رهبة الصلاة دون التحدث مع رسول الله أو غيره رغم صغر سنه (١) وما أن أتم رسول الله صلاته حتى وقف (على) الصغير قبالة رسول الله تدفعه غريزة التعلم وحب المعرفة ويمنعه استحياؤه من السؤال ولكن هذا الاهاب (٢) الصغير كان يسكن فيه بطل مغوار سيكون له شأن عظيم في تاريخ الاسلام . ونفس قوية لاتهاب المواقف . فتقدم وتشجع وسأل رسول الله وزوجه قائلا . لمن تسجدان .

فقال رسول الله مامعناه : انما نسجد لله الذى بعثنى نبيا وأمرنى أن أدعو الناس اليه . وأن أنذر عشيرتي الاقربين وأنت منهم ياعلي . فأدعوك بدعاية الاسلام . وانكر عليك وعلى الجميع عبادة الاصنام ثم تلا عليه آيات من القرآن . أذاب جمالها قلبه . وعقدت لسحرها لسانه . وراح يرنوا الى رسول الله بعين غير تلك العين التى كان ينظر له بها ككفيل وعائل . ولا كوالد ومرب . ولكن كملاك سماوى يشع بالنور ويفيض بالهداية وينطق بالحكمة وفصل الخطاب . ولكن هذه النظرة . وتلك الشرارة الاولى لم تكن كفيلة في تغيير ما فطر وشب عليه . وأقره في نفسه اجماع البيئة . وقدوة الآباء والجدود . فبات مؤرق الجفن مليئا بالوساوس والشكوك معتزما مشورة أبيه أبي طالب فيما يخالج نفسه من ايمان ويعض في قلبه من نور . وما يهبط على قلبه من الراحة والريحان ولكنه عاد الي نفسه يسائلها ويقول :

« لقد خلقنى الله دون أن استشير أبا طالب فمالي أستشيره حين أريد

---

(١) كان عمره اذ ذاك عشر سنوات
(٢) الجلد

عبادته »وما أن أصبح الصباح حتى استأذن على رسول الله فأذن له ومثل بين يديه وأطلقها شهادة كريمة ناطقة بتوحيد الله ورسالة محمد ، تالية لشهادة خديجة واسلامها رضي الله عنهما

- ٣ -

«وأنذر عشيرتك الاقربين، واخفض جناحك»
«لمن اتبعك من المؤمنين وقل إني أنا النذير المبين»
قرآن كريم

جلسوا مستخفين في شعاب حراء مستترين بهضابه البعيدة العالية حتى لا تقع عين قريش عليهم في اجتماعهم وصلاتهم وعبادتهم وراح أبو بكر الصديق يحدثهم عن أمانة محمد وصدقه ورسالته . وأنه لا يبتغي من وراء ذلك جاها أو مالا وإلا فان له من أموال خديجة الطائلة ما يغنيه عن ذلك قرونا . وله من ذ بة قريش مكان الذروة والسنام على أن دعوته إلي التحرر المطلق من عبودية هذه الاحجار الصماء الي عبادة خالق هذه السماء الصافية . والصحراء المترامية . والنجوم اللامعة . والشمس الساطعة . والماء والرياض . والهواء والغياض .

وأن هذه الدعوة التي لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل . والتي تخلي الطريق بين العبد وربه يدخل اليه بغير واسطة . ويتقرب اليه بغير زلفي .. وتدعو إلى التراحم والتوادد والبر والتقوى . وتنفر من الوأد والقطيعة والتراشق — لهى هناءة الدنيا وسعادة الابد .

هذا بعض ما كان يتحدث به أبو بكر واذا تحدث أبو بكر أنصت

السكل وأحبوا منه المزيد لانه رضى الله عنه كان (مألفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجرا ذا خلق معرف ، وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الامر لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته) فاستطاب القوم الحديث وتمنوا أن يطول أو يقطع بما هو خير منه . فما لبثوا أن صاح بينهم عبد الرحمن بن عوف قائلا

هذا رسول الله قد وافانا للصلاة فاستعدوا ثم أقبل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا له . فنهاهم عن ذلك وقال (لاتقوموا لى إذا قدمت عليكم فان هذه عادات الرهبان) ثم قاموا إلى الصلاة يؤدونها فوق الرمال الصفراء ككواكب السماء . أو صفوف الملائكة خلف الامين يعلوهم الخشوع ويحدوهم الضراعة ويشع منهم الهدى والنور . . ثم جلس رسول الله بعد الصلاة يدارس قومه القرآن ويحدثهم عن آدابه وعلومه

ولم يكن أمر المسلمين بخاف علي قريش فكانت عيونها تلاحق أعمالهم وتتابع سيرهم وتتقصى أخبارهم خلف صخرة عالية كان يجلس أبو جهل وجماعة من قريش يستمعون مايقول رسول الله في آلهتهم . فكان يحز ذلك في نفسه ويحنقه على محمد وأصحابه . ويحفزه إلي الاعتداء لولا شبح أبو طالب وخلفه بنو عبد مناف

ثم قام سعد بن أبى وقاص مع بعض أصحابه لبعض حاجاتهم . فاستخف بهم جواسيس قريش وحملوا عليهم بعيدن عن مجلس الرسول فتشادوا وتلاحموا . فأصيب من الصحابة سعد بن أبي وقاص بشج أذنه وكان هذا أول دم أهريق في الاسلام ثم جاء الي رسول الله فضمد جراحه بيده وهو يقول في سبيل الله دمك ياسعد

وكان المار بجوار منزل خديجة في الضحى يرى آثار حركة ونشاط بين الخدم والعبيد هـذه تنقل الي المنزل ماءا . وهذا يرفع فاكهة وذاك يحمل بقع الدماء من آثار الذبح والاجهاز ، وذلك ينقل الاحطاب وقطع الاشجار . وقود الانضاج طعـام الوليمة التي دعي اليها رسول الله أهله وعشيرته ليستطيع اعداد الجو المناسب للتحدث في أمر الدعوة الجديدة وليبلغ ما أمره به في قوله (وانذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . وقل اني أنا النذير المبين)

وفي فترة شاعت فيها روح المحبة والوئام . وحلقت في سمائها سحب العزة بالعصبية . والشعور بلذة العائلية وترابط الاسرة . أخذ رسول الله يتحدث عن رسالته ودعوته فأنصت الكل بين كابت لشعوره . وغير مكترث لحديثه . ومتصامم عنه . ولم يشق هـذا الصمت عليه الا جرأة أبي لهب الذي ظهرت بوادر الغضب في وجهه . فتجعدت جبهته وتلاقت أسنانه في أزيز المغيظ وحدقت عينه تقدح بالشرر . وتواثبت في رأسه شياطين الاستخفاف بابن أمية الصغير يدعي أنه رسول رب هذه العوالم وأنه الهادي النذير البشير . كأن ربه لم يجد بين العرب من هو أسن منه وأكثر نفوذا ومهابة . حتى ينزل وحيه عليه . ويبعثه رسولا الي هـذه الخلائق يسفه أحـلامها . ويهاجم آلهتها ويقبح معتقدها ويفوض ما كان عليه أباؤها وجدودها ولولا بدانة فيه غليظة لـكان أسرع الحاضرين الى القيام . ولـكنه الى أن تحرك جسمه الغليظ . وشالت أعصابه لحمه المتكدس أخـذ يتحدث الى رسول الله في غضب من يرى ميزان شرفه يميل نحو الهاوية . وتاج كرامته يهوي صوب السقوط . ثم صرخ في الجميع صرخة عاتية قال :

أرضيتم بهذا الهزر السقيم يدعو اليه ابن أخيكم هـذا ! ! فواللات والعزى لولا صلة القرابة . وحنين الاخوة . لـكان لي معه شأن أى شأن ثم تحرك صوب الباب زاحفا . كما تتحرك افراس البحر تشغل حيزا من الفضاء فسيحا وسار خلفه اخوته وأهله وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده مطرقا حزينا . حتى دخلت عليه خديجة كعادتها ترفه عنه احزانه . وترف حوله بالسعادة والهناءة . وخلفها فاطمة في مثـل البرق محياها والشمس طلعتها . تلقي بنفسها بين أحضان والدها . وتداعب بيدها لحيته . وهو يصطنع معها الدعابة ويتكلف المزاح ثم لا يلبث بعد ذلك أن يعود الي تفكيره . شاعرا بثقل الامانة التي أمر بها . وبشدة اكفهرار الجو وحلوكته امامه . فتعود خديجة إلى تحديثه تسلية عنه وتسرية لا قوة منها على الاحتمال دونه ولـكن لانها لا تشعر بكل ما يشعر به من اعباء الرسـالة واثقالها .

وقد كان بوده أن تستمع عشيرته حديثه حتى نهايته . لعل فيه ما يخضد من شوكتهم ويلين من جفوتهم . ويثنى من شكيمتهم ولـكن ابا لهب قد فوت عليه ذلك السبيل من جديد عندما رأىأن يدعوهم مرة أخرى وأن يكون معهم أشد حكمة وأكثر حزما فدعاهم الي طعام في غداة يوم آخر ثم قال لهم مامعناه

أنتم أهلى وعشيرتى . وما أعلم انسانا من العرب قد جاء قومه بافضل ما جئتكم به قد جئتكم بخيري الدنيـا والآخرة . وقد أمرني ربى أن أدعوكم اليه . فايكم يؤازرني على هذا الامر وأن يكون أخى ووصيي وخليفتى فيكم ؟

فنظر بعضهم الي بعض فى استخفاف وسخرية فابتسم هذا وقهقه

ذاك . وتغامز ثالث وأشار رابع بالقيام . لولا أن وقف علي بن أبي طالب الصغير فرنوا اليه ينظرون ماذا يفعل أو بماذا يتكلم هذا الحدث فالفوه يقول في حماسة وحدة انا يارسول الله عونك.. أنا حرب على من حاربت وظل على من واليت وأحببت

فمال بعضهم من شدة الضحك وراحوا يرشقون أبا طالب باللحاظ ويتغامزون عليه بالشفاه وينظرون اليه نظرة من فقد نفوذه علي صغار أولاده وفلت من يده حبل قيادهم عليه . وخسر بين الجميع أجل صفقة تتعلق بشرف من بيدهم رفادة الحرم وسدانة الكعبة . وسقاية الحاج . وهي معقد الفخر . وذؤابة الكرامة والعزة والشرف بين العرب فطأطأ أبو طالب رأسه استحياء وخجلا . ثم هموا بالانصراف تتعالى ضحكاتهم وتتجاوب أصوات مزاحهم وهزئهم .

- ٤ -

« والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني »
« والقمر في يساري . ما تركت هذا »
« الامر حتى يظهره الله او اهلك دونه »

حديث شريف

كشفت الشمس عن وجهها نقاب الغلس على صوت رسول الله واقفا فوق الصفا مادا عنقه الكريم في الفضاء مشيرا بيده إشارة الطلب والاستدعاء . هاتفا من أعماق قلبه (١)

يامعشر قريش . .

---

(١) وذلك بعد أن أمره الله بالجهر بالدعوة في قوله : (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين)

فرددت الاجواء صوته . وصافح الآذان لهتافه . وتداعت قريش شيوخا وكهولا وشبانا كما تتداعى السهام الي الهدف وتتوالي أسراب النحل الى الخلية عند الغروب وتجذب قطعة المغناطيس الكبيرة ذرات الحديد . ثم ناشدهم الحق والرحم وقال :

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

أصوات — نعم .. أنت عندنا غير متهم فما جربنا عليك كذبا

رسول الله — انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يابنى عبد المطلب .. يابنى عبد مناف .. يابنى زهرة .. يابنى عام يابنى مخزوم .. يابنى أسد . ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين . وانى لاأملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا . لااله الا الله

فاحمر وجه أبي لهب وجحظت عيناه ترمي بما يشبه اللهب . وتداخلت طيات جسمه بعضها في بعض وراح يستعين بأعصابه على حمل بدانته حتى استطاع أن يقف ثم توجه الى رسول الله فى غضب وقال :

تبالك ألهذا جمعتنا ؟ . (١)

فرنى محمد الى عمه ارناءة الحزين يصاب من مأمنه ويراش من حيث ينتظر الرجاء ثم أخذ المجتمعون يرددون النظر بين محمد في موقفه الا سيف يتلقى الصدمة في بأس الكمي . وقوة الصنديد . وبين عمه الذى لوى وجهه وعكص شفته وبلل جبهته بماء الحنق والغيظ . وأمطر رسول الله وابلا من نظرات الحقد والاشمئزاز . ولم يجد الناس مايقولونه بعد أن

---

(١) وبهذه المناسبة نزلت السورة الكريمة في ذم أبي لهب (تبت يدا أبى لهب وتب) الى آخر السورة

وقف أبو لهب من ابن أخيه هذا الموقف السلبي العنيد. سوى أن تضاحكوا وتمازحوا . وهم منصرفون . ثم لا يفتأون ينظرون خلفهم الي رسول الله ليقرأوا على وجهه آثار الاعراض عنه . والهزء بدعوته . ورسول الله في مكانه مطأطىء الرأس غارق التفكير. يناجي قلبه ربه بصوت لا يسمعه إلا المطهرون. ويهتف روحه وتنادي (اللهم اهدي قومى فانهم لا يعلمون)

***

وكان السائر صوب دار الندوى يرى أشراف قريش وقادتها يسيرون نحوها في صمت . تتألق على ثيابهم البيض أشعة القمر. كأنهم تماثيل من الثلج الناصع قد دبت فيها روح الحياة . أو أشباح الليل الهائمة تزيد في صمتها رهبة السكون وتؤكد من تزمتها دقة الموقف وقد دعوا لبحثه ومعالجته

وتحت ذبالة (١) حزينة متهافتة جلسوا جميعا يتحدثون في خفوت كأنهم أحسوا بما يتهددهم من خطر الدعوة الجديدة وان كان بعضهم لا يزال يعتقد أنها محاولة فاشلة كتلك التي يحاولها رهبان النصارى وأحبار اليهود كل عام في سوق عكاظ

ثم قطع هذا الضجيج عليهم صوت أجش كأنه هزيم الرعد وقال :

أرى أن الخطب بدأ يستفحل . وأن دعوة محمد تشق طريقها الي أعماق الأسر . وان خروجه ومن معه من حجور الاستخفاء والتستر الى الوقوف حيث وقف بالأمس يدعو الى دعوته في شجاعة وجرأة . كأن ليس بمكة أحد . وكأن سدنة هذا البيت قد فارقوا الحياة

شيبة بن ربيعة — ليس هذا خطبه . وانما خطب هؤلاء من بنى

(١) سراج

عبد مناف وأمية يتشادون ويتقاتلون حول الزعامة في قريش من أجل رفادة البيت وسقاية الحاج فقد فقدت قريش زعامتها منذ مات هاشم وتلاه عبد المطلب فهيض جناحها . وفلت شوكتها وتصرم حبلها . وتفرقت كلمتها . مما شجع مثل ورقة بن نوفل علي أن يعرض نفسه في الاسواق والمجتمعات والنوادى ويدعو الى دين النصاري .. ووقوف قس ابن ساعدة بين الناس يقرض ويسجع ويدعو الي ماسماه دين ابراهيم وظهور مثل ورقة بن نوفل يبغض الناس في الاوثان وينفرهم منها ويدعو الي ما زعمه دين الحق ، وما كان لواحد من هؤلاء أن يرفع صوته وأن يجهر برأيه بين سكان هذا البيت وأهله لولا هذا الانحلال الذى دب الى نفوسنا حسدا على الزعامة . وجريا وراء النفوذ والسلطان . حتى فقدنا النفوذ والسلطان . واستطاع محمد وأصحابه أن يقفوا منا هذا الموقف الجرىء

العاص بن وائل – على رسلكم أيها الناس .. ما هذا الذى تقولون؟؟ ولقد وصلتم بمحمد الي السماكين . ورحتم تنعتونه بأوصاف ملك غزا أرض الحرم وحمل أهله في ركابه . وما هؤلاء الذين حوله الا حفنة من الخلق لا في العير ولا في النفير

أبو سفيان – أرجو أن لا نخطىء الحقيقة الواقعة . وأن لا تأخذنا العزة بالظواهر . فمحمد يطيف به خلق كثير . من مضاض قريش . وذؤابة زهرة وتيم وأسد ومخزوم . فهذا أبو بكر وأولاده وهو من تعلمون نسبا وخلقا ومألفا وخبرة وغنى . وهذا عثمان بن عفان وهو من تعلمون نبالة واستحياء وعراقة ودماثة وثراء . وهؤلاء غيرهم . وهم جميعا في مكان الذروة والسنام . . مثل الزبير بن العوام . وعبدالرحمن بن عوف

وسعد بن أبي وقاص . وطلحة بن عبدمناف وأبوعبيدة بن الجراح. وأبوسلمة بن عبد الاسد والأرقم بن الأرقم .

العاص بن هشام ـ ليس هذا فقط . بل وقد أسلم أيضا عثمان وعبدالله وقدامة أبناء مظعون . وعبيدة بن الحرث . وسعيد بن زيد وزوجته أسماء وعمير بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود . ومسعود بن القارى ومسعود بن ربيعة وامرأته

نبيه بن الحجاج ـ بل وهناك ما هو أكثر من هذا فيما علمت مثل: خنيث بن حذافة . وعامر بن ربيعة . وعبد الله واحمد بني جحش . وجعفر ابن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عنيس . ومعمر وحاطب بنى الحرث وامرأته فاطمة. والسائب بن عثمان بن مظعون والمطلب بن أزهر بن عوف وامرأته رملة

منبه بن الحجاج ـ بل وقد أسلم أيضا نعيم بن عبد الله . وخالد بن سعيد . وامرأته أمينة وهيمنة بنت خلف وحاطب بن عمر . وابو حذيفة ابن عتبة . وواقد بن عبد الله . وخالد وعامر وعانق واياس أبناء بكر . وصهيب بن سنان . والنمر بن قاسط وفهير مولى أبي بكر

ابو سفيان ـ بل لقد تبعه بعض العبيد رغم ديانة سادتهم. مثل صهيب مولى عبد الله بن جدعان وبلال بن رباح الحبشى . وعامر بن فهيرة . وأبو فكيهة المدعو افلح . ولبينة جارية بنى مؤمل . وزنيرة جارية بنى عدى . والنهدية مولاة بنى نهد وعنيس مولاة بنى زهرة وغيرهم كثير

راح المحدثون في المجلس يعددون أسماء الذين اعتنقوا دين محمد من المسلمين والمسلمات .. والحاضرون بين فاغر فاه من وقع المصاب على مسمعه كالأبله . وبين مكمود لا يستطيع مغالبة الحزن يفرى في كبده لسماع

هذه الانباء . وبين زافر في خرير وحرارة كا نه شلال يكافح الماء فلا يستطيع لمفاجأته بما لم يكن ينتظر . ثم صمت المجلس هنيهة قاعة . وعلتـه سحابة حزينة . لم يقطعها الا الوليد بن المغيرة في صوته الاجش قائلا :

ما حفزني لدعوتـكم الا مكافحة هذا الخطب قبل استشرائه . . فما تشيرون به ؟

أبو سفيان ـ أن نذهب الي عمه أبي طالب الذى يمنعه ويدافع عنه مرة أخرى حتى نعذر فيه يوم نجاهده وندفع عن شرفنا ازاءه

العاص بن هشام ـ ان أبا طالب رجل لين العريكة عطوف على ابن أخيه مداور في حديثه مخادع . لم يستطع عجزا أو عطفا أن يصنع بمحمد شيئا . فما الجدوي من العود اليه في هذا الامر

ربيعة بن شيبة ـ لاضير ان نعاود أباطالب مرة أخرى فاما أن يتخلى عنه ويدفعه برمته الينا أو يحول دون عيبه في آلهتنا وتسفيه أحلامنا

ثم ذهب الوليد بن المغيرة وابو سفيان بن حرب والعاص بن وائل الى أبي طالب موفدين من قريش لوضع حد لدعاوة محمد لدينه بين العرب والنيل من آلهتهم . ثم تقدم اليه الوليد وقال له :

— يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وانا قد استنهيناك من ابن أخيك . فلم تنهه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تـكفه عنا أو ننا له وإياك في وقت واحد حتى يهلك أحد الفريقين . ونرجو أن يكون هذا آخر ما ننذرك به

ثم انصرفوا وتركوا أبا طالب في مكانه شارد الذهن محدقا ببصره الي الارض يقلب هذه المعاني في رأسه . ويزن هذا التهديد بميزان حسه . ويذكر مكانته العظيمة تميل بها محبته لابن أخيه . ونفوذه يتوارى رويدا

رويدا تحت عينيه . فيثور علي عاطفته وينعي عليها حبه وحنانه ويعتزم التخلى عن محمد ما دام لا يستمع لنصحه . ولا يرضخ لآرائه. ثم يعود بذاكرته الى محمد . فيتمثله أمامه صبيا يدرج في حجره عصفورا دعوبا بريئا . ثم يافعا صالحا نبيلا . ثم شابا فتيا عيوفا أمينا . ثم زوجا كريما محسنا . اضطلع بتربية ولده علي ، وساعد في تربية ولده جعفر . ثم ما ذنبه بعد كل هذا الا أنه يدعو الناس الي كلام حق ويتمادى فيه ويصبر عليه . زاعما بذلك سعادتهم .. ولكن اذا كان هؤلاء لا ينظرون الى هذه السعادة بعين المحبة والرضا فما ضره لو تركهم وشأنهم . وخلى بينهم وبين ما يعتقدون دون أن ينال من آلهتهم ويسب أحلامهم

ولكنه يأبى إلا أن يفعل ذلك . وهم يأبون الا أن يدعهم وما يعتقدون أو أن أتخلى عنه لهم. ليأخذوه بما يصنع .. ولكن أنى لقلبي أن يسمح بذلك . ومتى وكيف أروض عواطفى على هذه النكبة وتلك السبة الابدية ؟!.. الا ان قريشا تضع مكانتى في كفة المقادير . وتساومنى بها على ابن أخي فليت شعرى ماذا أصنع ؟ . ثم استدعى ابو طالب رسول الله ثم قال له :

– يا بن أخى ان قومك قد جاءوني وراودوني على تسلمك لهم أو تتركهم وآلهتهم فابق على نفسك ولا تحملنى من الامر ما لا أطيق

كلمات لم تتجاوز أسطرا ولكنها حلقت في الفضاء سحابة سوداء أمام رسول الله . ونزلت عليه نزول الخطب المدلهم .. وظن أن عمه قد خذله وتخلى عنه . فجمع رسول الله كل شجاعته وكل ايمانه وصاح في وجه عمه وقال :

والله ياعم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه

ثم ألقى بنفسه على وسادة عمه مبهورا متعبا لما ثار في نفسه من

الذكريات واللواعج وما تفاعل فيها من قوة الايمان تغالب دخيلة الضعف وطيوف الهزيمة في نفس عمه.. ثم اعتمد رأسه الشريف وبكي ثم قام منصرفا

وكأنه وهو ينصرف كسير الفؤاد حزين النفس ينتزع قلب عمه من بين جوانحه . ويحمله معه . فناداه من فوره . وأقبل يطوف حوله بعين الابوة الحانية. ويمسح على ظهره بيد العطف والمحبة العميقة ثم قال له :

افعل يابن أخي ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا ثم أنشد يقول :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فامض لامرك قد زعمتك ناصحى	فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بانه	من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتنى سمحا بذاك يقينا

- ٥ -

« فلنراود أباطالب للمرة الثالثة ولنشبع أبوته »

« وحنانه بعمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش »

« لعله ينسى به محمد بن أخيه فيسامه لنا !! »

عتبة بن شيبة

ووقف أبو سفيان بينهم محتدا مغيظا مرهف الاعصاب وقال :

ــ ألم أقل لكم ان أبا طالب لن يتخلى عن ابن أخيه ولن يحول بينه وبين ما يلطخ به شرفنا ويسم به آلهتنا ؟؟

لقد أرخى له العنان من جديد . وأطلقه في أعراضنا وكرامتنا ومعتقداتنا . ثم جمع بنى هاشم لديه وحرك فيهم روح العصبية ودعاهم الي مؤازرة محمد وحمايته من قريش. وأثار فيهم حفيظتهم الدفينة على بنى أمية .

فان انتصر محمد كان لهم من مجده نصيب. وان خذل، فسوف لا يغرمون شيئا. بينما يكونون قد لبوا نداء القرابة والعصب والرحم. وليس لنا الآن الا أن نثيرها حربا على محمد ومن أخذ بدعوته . وآمن برسالته . والا فلنلبس البراقع واللفاع ولنحمل عار المستقبل وذل الابد .

عتبة بن شيبة ــ لعلنا جميعا اذا ما مست أيدينا مكان العطف الابوي وذكرنا منزلة الابناء من الآباء . أدركنا الحد الذي ينبغي أن نعذر فيه أبا طالب في ابن أخيه فهو كافله عن يتم. ومربيه عن فاقة ومواسيه حيث فارقه المواسي . وحرم عطف الامومة . فهل لرجل له كل هذا الشأن في حياة محمد . ولمحمد كل هذه الذكريات الجميلة في نفس عمه . ان يسلمه ضحية رغبة من قريش ؟؟

ابو سفيان ــ ولكن على المسيء أن يقدم عن اساءته . وعلى المخطيء أن يدفع عن خطيئته وأية اساءة يصك محمد بها وجهنا أكثر من أن يسفه أحلامنا . ويسب آلهتنا وينال من شرفنا وكرامتنا . . فليهن المال ولترخص الابناء ولتذهب الارواح والدماء دون أن يسمع هذا الذي يقول :

عتبة بن شيبة ــ لو أن الشأن لأبي طالب وحده . لخفت المصيبة وهان الرزء . ولكن وراءه بنى هاشم . وهم من تعلمون بطشا وقوة وعددا ومنزلة . فلنراود أبا طالب للمرة الثالثة . ولنشبع أبوته وحنانه في عمارة بن الوليد . أنهد فتى في قريش وأجمله وأكيسه . نقدمه له ليتخذ منه ولدا له وحبيبا لعله ينسى به محمد فيسلمه لنا فان قبل الصفقة فبها ونعمت. وإلا كانت الحملة الشعواء على محمد ومن يمنعه منا ويعصم دمه دوننا

أصوات ــ مرحى .. مرحى .. مرحى

ولكن الموقف الآن يتطلب رضاء عمارة بن الوليد نفسه

عمارة ـ وهل لى دونكم رأى . أم هل يغلو شبابي في سبيل اللات والعزي ومن أجل سعادة قريش اذا نادت التضحية وأهاب بي الفداء .

أصوات ـ مرحى .. مرحى .. مرحى

ثم ذهب المطعم بن عدى ومعه عمارة بن الوليد الى أبى طالب مندوبين عن قريش ثم عرضا عليه أمرهم . فغضب أبو طالب . حتى أطل الغضب من عينيه وقال :

ـ والله لبئس ما تساوموننى .. أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم . وأعطيكم ابنى فتقتلونه !! هذا والله لا يكون أبدا

المطعم بن عدى ـ والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه . فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا !

ابو طالب ـ والله ما أنصفوني . ولكنك قد جمعت خذلاني ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك . ثم أنشد معتزا برأيه وقومه ومادحا رسول الله وقال :

اذا اجتمعت يوما قريش لمفخر	فعبد مناف سرها وصميمها
فان حصلت أشراف عبد منافها	ففى هاشم أشرافها وقديمها
وان فخرت يوما فان محمدا	هو المصطفي من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديما لا نقر ظلامة	اذا ما ثنوا صعر الخدود نعيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة	ونضرب عن احجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وانما	بأكنافنا تندى وتنمى اورومها

دخل عليهم المطعم بن عدى وخلفه عمارة بن الوليد . شارد الذهن

وانبال . واجم الوجه . ثم جلس دون أن يقرىء المجتمعين السلام. فأدركوا سبب صمته وسر وجومه . فشاركوه شعوره .وشاطروه وجومه .وراحوا يتخيلون ما عساه ينتظرهم على أبواب المستقبل . ويرقبهم من الحوادث الجسام . حين تنتطح العنزان . ويلتقى الفريقان . في حرب شعواء تأ كل الاخضر واليابس . وبعد أن نفدت وسائل السلم والمصانعة . ووصلت الحال الى درجة من الخطورة لا يحسن السكوت عليها

ثم شق هذا السكون على الحاضرين زفرة كأنها زمجرة الاسد . وتوجع كأنه خرير الشلال فأفاقت القوم من غشيتهم وقطعت عليهم حبل أحزانهم فنظروا الى هذا المتوجع فألفوه الوليد بن المغيرة . ثم هز لحيته مرات وقال :

لم يبق بعد الا الحرب . . .

فطأطأ الكل رؤوسهم في حزن عميق كأن وقع الحقيقة أثنى رؤوسهم فعاد المكان الي صمته من جديد . وعاد بن المغيرة في صوته الراعد يقول:

نعم لم يبق مناص من التنكيل بهؤلاء الصابئين عن دين قريش . اللائذين بحمى بني هاشم. المخدوعين بهذا التاجر الكذاب ... شدوا عليهم في كل مكان وعذبوهم حيث وجدتموهم . وارصدوا كل مرصد . حتى يموتوا أو يأبقوا (١) الى بلد آخر ويتواروا عن مغاني (٢) مكة وأفنيتها واغروا عليهم الدهماء وانشدوا فيهم الهجاء (٣)

---

(١) يهاجروا

(٢) منازلها

(٣) كان من شعراء قريش الذين هجوا رسول الله اذاك : ابو سفيان ابن الحرث وعمرو بن العاص . وعبد الله بن الزبعري

لقـد بذلنا لهم النصح وراودناهم علي الخير ومهدنا لهم سبل الرجوع عن طريق الغى والضلال . فلم يجد كل ذلك . .

ثم لاتنسوا بعد ذلك أن موسم الحج قد وافانا .

وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم فاجمعوا رأيا واحدا . ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا

الاسود بن عبد المطلب ـ نقول كاهن

الوليد ـ والله ماهو بكاهن لقـد رأينا الـكهان . فما هو بزمزمة الـكاهن ولا سجعه .

العاص بن هشام ـ بل هو مجنون

الوليد ـ ولاهو بمجنون لقـد رأينا الجنون وعرفناه فماهو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

نبيه بن الحجاج ـ لعله شاعر

الوليد ـ وما هو بشاعر . فقدعرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه .

العاص بن وائل ـ اعتقد انه ساحر

الوليد ـ وليس بساحر لقـد رأينا السحرة والسحر . فما هو بنفثهم ولا عقـدهم .

أبو سفيان ـ فما تقول اذن يا أبا عبد شمس .

الوليد ـ ولقد حرت في أمره . ولله ان في قوله لحلاوة . وان عليه لطلاوة . وأن أصله لعزق . وان فرعه لجناة ... ثم أطرق وأطرق معه القوم . وأخذ يدخل أصابعه بين شعر لحيته ثم يعود فيرسلها من جديد ويمسح عليها ثم يعبس بجبهته كأنه رأى ما يكره ثم يرفع حاجبه . كأنه يرفض شيئا

ثم يعود فيبسطها من جديد ثم يلوي وجهه ذات اليمين وذات الشمال ثم استأنف حديثه وقال :

.. وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل . وأن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بفرق بين المرء وزوجه . والولد ووالده والاخ وأخيه . وبين المرء وعشيرته .. فيخشى الناس لقاءه ويتفرقون عنه (١)

* * *

الناس تهرع من كل ناحية وتتنادى من كل صوب . وتفزع نحو جلبة . وضوضاء تحت سحابة قاتمة من الغبار . لم يكن يظهر خلالها الا رفع الايدى وهبوطها بالتشاد والتلاحى . والناس حول المتشادين في حلقة مستديرة . كأنهم عباد النار حول سحائب الدخان ينظرون اليها فى اعجاب . ويرمقونها في لهفة وتشبب . ثم انقسمت هذه الكتلة المتلاحمة الي شطرين . وقف على رأس كل منها كهل مستدير اللحية دامى الوجه ممزق الثياب يلوح على الاول أنه من أهل المدينة والثانى انه من أهل مكة . ثم راح المدني ينظر هنا وهناك باحثا عن بعيره فى خطفة البرق . حتى اذا استولى على خطامه راح يحدث المتسائلين عن سر هذا الشجار وقد علا فمه الزبد قائلا .

انه هذا الكهل قد استقبلنى دون الشعاب . وأخذ يتسكع خلفى في فضول ويلقي على تحذيرا لم أفهمه . ثم علمت بعد ذلك أنه يحذرني مغبة

---

(١) وبهذه المناسبة نزلت الآية الكريمة « ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا انه كان لآياتنا عنيدا (خصيما) سأرهقه صعودا . انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم عبس وبسر (كره) ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر » الخ السورة .

رجل ظهر بين أهل هذا الحرم . وزعم أنه يبغض الناس في الخمر . ويقبح لهم الميسر . ويطلق لسانه في الكهانة والكهان . ويقبح من عوائدالو أد تترك لنا في أعقابها العار والشنار وأنه يدعى أن لهذا الكون ربا غير اللات والعزى وهبل ، فأخبرته أن رجلا هذا شأنه . لا يصح أن يوصف بالسحر . وأن هذا الذي يدعو اليه لاعلاقة له بالسحر ولا بالكهانة . فان كان هذا من ميراث الماضى وتركاته السوداء فليس عيبا أن يتخلى الناس عنه بعد .. وان جريمة أن يحارب رجل يدعو الي ذلك .. والافقل لى ماهذه الخمر نشربها فنجترح السيئات وما ذنب فتاة صغيرة بريئة فى أن توارى التراب حية . وما هذا الحجر نطيف به . لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضرا أو نفعا .

قال المدني هذا تحت سمع المئات من المجتمعين . وأمام خصمه القرشي الذي أخذ يمسح عرقه ويجفف دمه ويجمع علي جسمه مزق ثيابه . بعد أن هدأت ثائرته . وبردت حميته . وأضحى بعد أن سمع خصمه كأنه فى أشهر الشتاء وقد أصابته السماء بوابل من الماء .

نعم قال المدنى هذا وقد أخذ أكثر الناس ينظر بعضهم الى بعض بعين الرضا لهذا الذى يسمعون . ثم يتساءلون من هذا الذى يقول هذا الكلام . فيقال لهم محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب سيد السدنة لهذا البيت وأمير رفادته بينما أخذ نفر آخر يلغو في هذا البيان ويجادل فيه . ويحمل على محمد وأصحابه مما كاد يؤدى الى مشادة عنيفة لولا انهم كانوا على مقربة من الحرم ، ثم تفرق الناس مثنى وجماعات يتناقشون ويتشادون حول صلاحية هذه الدعوى وعدم صلاحيتها . مما أحال مكة الى دار للبحث أو صيرها عكاظ أخري

أخذ أبو سفيان يغدو في حجرته ويروح وقد اعتقل يداً بأخرى، خلف ظهره تحت سراج بحا كي أنفاسه المحترقة وأمله المترنح الذابل . ثم يطل من شرفته فلا يجد أحدا ثم يرفع بصره الى السماء ولعل ذلك لمعرفة الوقت ثم يعود الى فناء حجرته يذرعها غدوا ورواحا. ثم سمع قرعا على بابه فوثب اليه ليفتحه ظنا منه أن صحابته قد جاءوا ولكنه مانبث أن رأى أمامه سائلا . فطرده في شدة . ونهره في عنف . وأغلق دونه الباب

ثم دخلت عليه زوجته هند . وقد رابها من أمر زوجها هذا القلق يتمثل في غدوه ورواحه . وهذا الطرد للسائل المسكين وهو ذلك المسماح الكريم . لا يطرد سائلا ولا محروما فسألته ما به فقال

لاشيء

هند ـ بل أشياء . .

أبو سفيان ـ انى مع القوم على موعد وقد غادر الزمن موقعه . ولم يفد منهم أحد وأغلب الظن أن تأخيرهم لخطب داهم

هند ـ ولكن على غير عادة تجتمعون هنا

فزفر أبو سفيان زفرة كادت تتمزق لها أضلاعه وقال :

وهذا هو سر ما نحن فيه من بلاء

هند ـ بلاء ؟؟ ماذا تقول ؟؟

ابو سفيان ـ لقد دخلت دعوة محمد الى كل مكان حتى فرقت بين المرء وزوجه والعبد وسيده

وان انباء قريش في دار الندوي توافيه بغير تحريف ولا نقص حتى رابنا أمر انفسنا وأصبحنا نرتاب من أبنائنا وأهلينا مما جعل محمد يهزأ بنا في هذا ويقول . . ان الوحى ينزل عليه بهذه الاخبار من السماء . كان السماء لم

نجد في مكة مهبطا صالحا للوحى الا ابن ابي كبشه (١)
ولهذا رأينا أن نجتمع هنا . محافظة على مايدور بيننا
هند — والى متى تنتظر صحابتك : وقد قارب انتصاف الليل
أبو سفيان — وهذا مايؤرقني ويزعج بالى
ثم سمع قرعا على الباب ، فدخلت هند الى خدرها وراح أبو سفيان يستقبل صحابته فلم يجد منهم الا نوفل بن خويلد . وأبو سفيان بن الحرث . فاستقبلاه في صمت ووجوم لاتدرى امن رهبة الليل توحي بالصمت وتبعث بالوحشة . أم استحياء من شدة التأخير عن الموعد المضروب . أم كمدا مما يحملون من أنباء دعوة محمد .
فأحس أبو سفيان بسوء مايحملانه فجلس اليهم وامسى الكل في صمت كأنهم في مأتم ثم طرق الباب عليهم العاص بن وائل متهللا فرحا . ولكن رابه صمت صحابته الثلاثة فابتدرهم قائلا :
علام اراكم في وجوم وصمت كان لم ينته اليكم بعدما وقع لمحمداليوم
أصوات — في شيء من التهلل — لاوأبيك . ماذا حدث .
لقد كان يسير صوب الحجر وخلفه صدبقه أبو بكر . فهجم عليه شبان من قريش وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم .
وما ان شاهد أبو بكر ذلك حتى امتقع وجهه واصفر لونه . وأخذ يمسك هذا بيد مرتعشة ويكلم ذاك بشفة مرتجفة . ومحمد بينهم كأنه بين أهله !! فاما ادركوا منه ذلك غاظهم موقفه فقالوا له :
انت الذى تسفه أحلامنا . وتقول عن « اساف ونائله وهبل » أنها أحجار لاتضر ولا تنفع . فظننا أنه سينكر ذلك تخلصا من ورطته .

---

(١) كنية كانوا يطلقونها على النبي استهزاء

وا نقاذا لنفسه وصاحبه ولكنه أطلقها صريحة جريئة وقال
نعم أنا الذى قلت وأقول ذلك دائما
فاخذ فهر ابن سعد بمجمع ردائه حتى احتبس الدم في وجهه وبلغت روحه حلقومه وصاحبه يتوسل ويبكي ويقول :
اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله
أبو سفيان — ليس هذا مربط الفرس فحدثني ماذا قال محمد بعد ذلك
العاص — لم يكن منه الا الاصرار على موقفه . وقد تركناه قبل ان تتداعي بنوهاشم علينا
نوفل ابن خويلد ـ يخرج من صمته ـ لقد أخطأنا التدبير حين قررنا استقبال الوافدين الى مكة في الشعب والمنافذ وتحذيرهم من محمد قبل دخولهم الى مكة
فقد فتح الحديث في ذلك أذهانهم واسترعي انتباههم وهيأ حلبات النقاش في ذلك بينهم . وزاد في الدعاوة والاعلام ماوقع بين القرشيين والوافدين الى مكة حول ذلك
فكم من حادث وقع وكم من مشادات حدثت كانت من أكبر العوامل على تتداعى الناس وتكتبهم فيسمعون مايتلاحى عليه الفريقان فمنهم المقتنع . ومنهم الممتنع
وأؤكد اننا لو تركنا الامر يسير في طبيعته ولم نرصد لحجاج البيت أرصادا يحذرونهم من محمد لما وصل ذكره الي هذا المستوي. ولما انتشرت دعوته الي هذا الشأو الذى وصل اليه بأيدينا وعلى لسان دعاتنا. وحسبنا دليلا على عقم ماقمنا به . ان تناقش اليوم عند الظهيرة سعد بن غياث مع رجل من

أشراف يثرب فتجاذبا وتشادا وكان أن أقنعه اليثربي وأعلنا اسلامهما معا وتعاقدا على لقاء محمد وايمانهما به ونصرته

وهذا ما أحزنني وفل من عزمي واقعدني عن البدار اليك في الميعاد المحدود

- ٦ -

اللهم حوالينا ولا علينا

حديث شريف

جلس الكل على أكمة في ذيل الجبل يودعون الشمس . ويرقبون مع حنان الليل ورحمته سحابة عامرة بالماء . تبل أوام الارض . وتكسوها السندس الاخضر . وتخرج لسكان المدينة حبا وعنبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وابا . وترفع عنهم ما يعانونه من شقاء الانتظار . وبؤس ما هم عليه من خوف الجوع والامحال . يهددهم بالموت في كل حين . فقال أحدهم وقد جلس القرفصاء . وعينه لما تزل ترقب الافق :

ـ لقد استفاضت الانباء وتواترت على ألسنة الغادين من مكة في موسم الحج أن بينهم رجلا أكثر بركة من « ابن الهيبان » الذى كنا نستسقي به . فهلا ذهبنا اليه بعد أن قتلنا اليأس . وفتك بهم عامل الانتظار ؟؟

فهر ـــ لقد انتهى إلي أمر هذا الرجل وشاهدت ملحمة بين أنصاره وأعدائه عند الشعاب بمكة في موسم الحج وأحسست بالغلبة لدعوته واقتنعت بما يقول أصحابه عنه . غير أنه لا يزال يتردد في خلدي هذا الذي يقوله كل واحد في مثل موقفي . وهو أنه اذا كان هذا الرجل أمينا

بين قومه صادقا . فلماذا نبذوه ومن معه وحاربوه . ولعلهم أعرف به من سواهم . وأعلم بأمره من غيرهم

سعد بن سعيد - لا تنس يافهر . أن لكل امريء من أهله ومعاشريه منافسين وحاقدين وان زامر الحي لا يطرب . فلعل محمدا هذا لا يقف في طريقه الا الحقد عليه. والكره لدعوته وحسده. وظهوره بين قوم عرفوه يدرج بينهم صبيا . ويشب يافعا . ويفرع شابا وكهلا. وعندي ان لا مانع من الذهاب الى مكة والاستسقاء به . عسى أن يرتفع عنا ما نحن فيه من بؤس يكاد يهلك الزرع والضرع

* * *

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم متوضأ من منزله الى الصحراء الواقعة فى أحضان « حراء » وخلفه وفد من أهل المدينة يسيرون في رهبة وخشوع : ثم صلى عليه الصلاة وأزكي السلام ركعتين ، ثم رفع يديه الكريمتين الي السماء . وكأن أصابعه تلامس السحاب . ثم دعى الله وطلب اليه التوفيق والهداية والرحمة لامته والمنة بالماء .. وما كاد يقبض يده حتى سحت السماء مدرارا . وهطلت أنهرا وجاء اليه أهل الضواحي يشكون الغرق . فرفع يده مرة أخري وقال اللهم حوالينا ولا علينا. فانجاب السحاب عنهم وصار الماء مستديرا حولهم كالاكليل .

ثم عاد وفد المدينة اليها . فكان ذلك مما مهد لدعوة النبي فيها بعد أن مهدت اساليب قريش لها . فيما توهموه معاكسة وايقافا لسريانها . وهكذا يخدم الحق أنصاره وأعداءه على الرغم من الجميع

كلمة لابد منها

هـذا أفق من آفاق الحياة المحمدية وصورة من صورها الكثيرة مازج الحقيقة فيها الخيال وخالط فيها الفن التاريخ دون أن يعدو الفن على حقائقه أو يستر الخيال جمال الحقيقة الرائع. فما أجريت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم مالم يقله ولا أخضعت اتجاه التاريخ من أجل طبيعة الأسلوب وإنما حاولت بقدر المستطاع أن أخضع جميع نواحي الفن ليكون في خدمة الحقائق لتبدو السيرة المحمدية في جمالها الشفاف وفتنتها الآخاذة وأسرارها الاجتماعية والسياسية الخالدة.

وليس قصدي من هـذا كله إلا أن أستخرج معين السيرة من تحت جلامد التعابير الخشنة والعنعنات المملة وكثرة الروايات الطامرة للحقائق. وأن أنظمها أسلوبا قصصيا سهلا ليستطيع الناس أن يستوعبوا نواحي الصورة التطبيقية للشريعة الاسلامية التي جاء بها القرآن وفصلتها سيرة سيد الأنام.

وكم حاول محاول أن يصل إلى ما أخذت نفسي به ولكنهم كانوا بين مفضل للفن على التاريخ ومستعل بالخيال على الحقيقة وبين كاذب على الواقع متجن على صحابة النبي، وموجز لا ينتفع بمؤلفه إلا من درس السيرة واستوعب أطرافها ومناحيها وبين مسهب أضاع الجوهر في سبيل العرض وضل بالحقيقة في تيه الاسهاب والاستطالة. وقد أكون موفقا بين هذا كله سائرا صوب الاعتدال حين يعلم الناس أني لم أرد به شهرة أو انتفاعا وإنما أردت به وجه الله جلت قدرته وتعالى شأنه.. فان كنت قد وفقت فيما قصدت فبها ونعمت. وإن كنت قد أخطأت وضللت فأرجو الله الهداية والتوفيق انه على مايشاء قدير

المؤلف

الفهرس بحسب الترتيب التاريخي

للجزء الاول من كتاب صور اسلامية

صحيفة

٤٢ تنبؤ كعب بن لؤي جد النبي السابع بقرب ظهوره صلى الله عليه وسلم

٤٤ ماتنبأت به جراشع الكاهنة المعروفة عن ظهور النبي صلى الله عليه وسلم

٤٧ ماتنبأ به حبر اليهود في يثرب عن ظهور النبي صلى الله عليه وسلم قبل ميلاده «وقد وردت هذه التنبآت في كتاب نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض»

٥٣ بعض مناقب عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم

٦٢ قصة حفر زمزم

٧٣ قصة الفداء وزواج عبد الله والد النبي بآمنة

٨٢ رحلة والد النبي بتجارته الي المدينة ووفاته بها

٩٢ ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم

١٠٢ ماتنبأ به سيف بن ذى يزن ملك الحبشة في شأن رسول الله وبعثه وذكره ذلك لجده عبد المطلب

١١٣ ماحدث في ايوان كسرى من التشقق ابدانا بولادته صلى الله عليه وسلم

١٢٦ ماذكره الراهب بحيرا لابي طالب عن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وخطورة شأنه

١٣٢ رعاية النبي للغنم وحضوره سوق عكاظ ومساهمته في حرب الفجار
١٤١ حضوره حلف الفضول في دار عبدالله بن جدعان
١٤٥ رحلته بتجارة خديجة وزواجه بها
١٥٦ هدم الكعبة ومساهمته صلى الله عليه وسلم في بنائها واحتكام قريش اليه في وضع الحجر الاسود
١٦٦ ما حدث به الكاهن سواد بن قارب عن الجن في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم ماذكره ابن الهيبان الحبر اليهودى في ذلك أيضا
١٧٦ خلوة النبي في غار حراء ونزول الوحى عليه فيه وانقطاع الوحى عنه
١٨٣ اتصال الوحي بعد انقطاعه
١٨٧ أمر الله نبيه بانذار عشيرته الاقربين
١٩١ امر الله نبيه بالجهر بالدعوة
١٩٨ مفاوضة قريش لابى طالب في التخلى عن رسول الله على أن يمنحوه (عمارة بن الوليد) بدله
٢٠٨ استسقاء وفد من المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم

* * *

هذا وقد وقعت أثناء الطبع أخطاء مطبعية لم نر بدا من تلافيها في نهاية الكتاب تحريا للصواب

ص	س	خطأ	صواب
٩	١٢	راجع	راجعا
٢٩	١٥	وليدعوء	وليدع
٣٢	١١	عجيبا	عجبا
٣٢	١٢	وتلاه	وتلاوة
٣٢	١٣	ملك واحد	ملكا واحدا
٣٥	١١	لجهاد	الجهاد
٣٥	٢١	ونقلبوا	وانقلبوا
٤٤	٥	والامال	والاعمال
٤٥	١	ويم	وغيم
٤٥	٧	سبقتها	سبقها
٤٦	٧	ائتادها	اتآدها
٤٦	٩	الموثور	الموتور
٥٦	١	المال	الحال
٦٠	٢	يستطيع	يستطع
٦٠	١٢	أبوك	أبيك
٦٩	٨	ون	وان
٧١	١٠	اط فه	أطرافه
٩٦	٢٢	٣	١
٩٧	١	الجميع	الجميع
٩٨	٩	لرضيع	الرضيع
١٠٥	٢٠	الهم	اليهم

ص	س	خطأ	صواب
١٠٦	٢	آ راعا	سراعا
١٠٦	٣	لت	آلت
١٠٩	١٦	هنأه	هانئة
١١٠	٦	هذء	هذه
١١٨	١٨	شاحذوا	شاحذو
١١٨	١٨	مقدموا	مقدمو
١١٩	١٤	يدعوا	يدعو
١٢٠	٩	مرذك	مزدك
١٢٠	١٠	فتوحه	فتوجه
١٢٩	١١	الرجال	الرحال
١٢٩	١٤	بقصد	يقصد
١٣٤	٨	فتشد	فتشتد
١٣٦	١	لهزيله	الهزيلة
١٣٦	٢	لماخرة	الماخرة
١٣٧	٢٢	هذه وهذا	هذا وها هو
١٣٩	٢	بنظرون	ينظرون
١٤١	١٠	النضال	الضال
١٤٢	١١	فتنقد	فتندر
١٤٦	١٦	لهذه	لهذا
١٤٨	٨	حيببها	حبيبها
١٤٨	١٩	فبها	فيها

ص	س	خطأ	صواب
١٥٠	٢٠	لا يتكلم	لا تتكلم
١٥٢	١١	فلقه	قلقه
١٥٢	١٣	نطل	تطل
١٥٧	١٣	نبؤه	نبوءه
١٥٨	١٨	سحيل	سجيل
١٥٩	١	بذيا به	بذيا نه
١٦٠	١٥	جلله	جلى
١٦٢	١٦	يابي وهب بين	بأبي وهب بن
١٦٤	٥	وميضه	وميضة
١٦٤	٦	والتنا بيذ	والتنا بذ
١٦٤	٧	عبد الذار	عبد الدار
١٦٤	٢٢	جا نب	باب
١٦٩	١٦	بابهم	بابه
١٧٠	١٣	مقالقى	مقالتى
١٧١	١٩	ينظر	وينظر
١٧٢	٤	اراد	أريد
١٧٢	٢	الانوار	الانواء
١٧٤		الـكعبة موسم	الـكعبة في موسم
١٧٥	٦	رجاءعمر	رجاء عمه
١٧٦	١٥	نسبج	تسبح
١٨٠	١١	عينيه	عيناه

ص	س	خطأ	صواب
١٨٠	١٦	حذلا	جذلا
١٨٢	٦	لفد	لقد
١٨٢	١٨	ادعوا	ادعو
١٨٢	٢١	محاورته	مما روته
١٨٣	١٨	كالطبول	كاليطوف
١٨٤	١٥	ويتلوا	ويتلو
١٨٦	١٢	يرنوا	يرنو
١٨٧	١١	من نسبه قريش	من نسبه في قريش
١٨٨	١٩	بعيدبن	بعيدين
١٨٩	١٢	وجه	وجهه
***	٢٢	قال	وقال
١٩٠	١٦	خكمة	حكمة
٢٠٠	٦	قريس	قريش
***	٢١	با كناف	با كنافنا
٢٠١	٦	لحال	الحال
٢١٢	١٩	ولله	والله
٢٠٣	٩	مستدبره	مستديره
***	١٨	نزلت الآيه	نزلت فيه الآية
٢٠٦	١٥	صدبقه	صديقه